مَسْخُ
المَغَارة
د. شيرين عدنان قبرطاي

مَسْخُ المَغَارَةِ

تأليف: د. شيرين عدنان قبرطاي

تصميم الغلاف: سينا حاج حَسَن

تَقديم

مَسْخُ المَغَارَةِ... رواية لفئة الفِتيان وأكثر...

تُسلِّطُ الضوء على قيمة الجمال الداخلي للإنسان وأهميَّةِ عمل الخير.. وأثر اليقينِ بالله في تَدبيرِ أمور حياتِنا..

تحكي قصةَ مُعاناةِ عائلةٍ ثريَّةٍ فقدَتَ وَلَدَيّها في ظروفٍ غامِضة.. وتعملُ جاهدةً على حلِّ لغزِ اختفائِهما المُريب قربَ المَغارةِ العَتيقة التي كثُرَت الأقاويلُ حولَ وجودِ مَسْخٍ مُخيفٍ يحومُ في محيطِها..

لا يفلحُ الثراء ولا الجَاهُ ولا السُلطةُ في تضميدِ جراحاتِ العائلة ما لم يتقدَّمهم اللجوءُ إلى الله واستجداءُ عَونِهِ وقُدرَتِهِ..

ليسَ إلا النوايا الحَسنة وعمل الخير والتقرُّب بالطاعات قبل السَعي.. أمورٌ هي وحدها مفتاحُ الفلاحِ والخلاصِ والسلامِ الداخليِّ..

تتوالى الأحداثُ في إطارٍ دراميٍّ مُشوِّقٍ بَطلُه (سَليم).. الفتى الخَلوقُ المُحبُّ للخير.. ومعه (مَروان).. صديقه المُشاغبُ الذي يرافقه ويتعلم منه في رحلة البحث عن الحقيقة لحلِّ لغز المَغارة.. إلى أن يظفرا مَعاً بالنجاح في المهمَّة.. ويَتكللَ سعيُهما بالتوفيق..

بسمِ اللهِ نَبدأ

يَومٌ ونِصف

مع إشراقةِ يومٍ ربيعيٍّ جديد.. أطلقت الشمسُ العنان لأشعتها الدافئة مُهيمِنةً على أرجاءِ القصرِ الرُخاميِّ الكبيرِ في قرية المَغارةِ العَتيقة..

قصرٌ مَهيبٌ فاخرٌ يَعتلي هضبةً تتوسَّطُ القريةَ ليبدوَ كقلاع الريف الإنكليزي بحدائقِه الخلابَة مُترامية الأطراف.. وبوَّابته الفولاذيَّة المُزخرفة على عرضها وارتفاعها.. وسورِهِ الحجريِّ المُمتدِّ طُولاً بأناقة.. مع ما يفترشُهُ من طحالب تسلَّلَت وتغلغلت بين شقوقِ وفواصل حجارتِه الرطبة المَرصُوفةِ بعنايةٍ في تلاحُمٍ آسِرٍ مع الطبيعة..

هو يومٌ مُميزٌ لا يشبِه باقي أيام السنة.. فطاقمُ القصر الذي اعتاد الهدوء والاسترخاء طيلة العام كَمَن دخلَ في سُباتٍ عَميق.. يَضجُّ اليوم كخليَّةِ نحل.. وقد تبعثرَ كلُّ من فيه من عَمال ومُستخدَمينَ كقطعِ (ليغو Lego) أُفرِغَت بِرعونةٍ من جَعبَتها على يدِ طفلٍ مُشاغبٍ لتتناثرَ على الأرضِ هنا وهناك..

المشهدُ عَموماً يثيرُ الفضول.. علامَ كلّ هذا الاستنفار الآن؟

العَم فائز (أبو سليم).. بستانيُّ القصر أو (الجنايني).. مُنهمِكٌ وأولاده سليم وياسر بتشذيب الشُجيرات وتقليمها.. وسقايةِ الأزهار وجزِّ العشب وكنس ما تناثر على الأرض من وريقاتٍ يابسة وشوائب تعكِّر صفوَ البساط الأخضر اليانع للحديقة الأماميَّة..

جهاد.. سائس القصر.. شابٌّ عشرينيٌّ أسمر.. عريضُ المَنكبين.. مفتولُ العضلات.. يتولى وظيفة ترويض الخيل والكلاب ويُعنى بمتابعة شؤون نظافتها وطبابتها.. وها هو الآن يُمطِر معاونَيه الفتيان أمجد ومروان بتوجيهاته وأوامره لإتمام أمور تنظيف وترتيب الإسطبل ومضمار الخيل على أكملِ وجه..

نعيمة (أم سليم) زوجة العَم فائز.. مُدبِّرة القصر وربَّة المطبخ ومسؤولة الإطعام فيه مع ابنتيها مريم ورنيم..

وقد شمَّرنَ عن سواعدهنَّ وباشرنَ بتحضير ما يبدو أنَّه وليمةٌ فاخرة لكن لبضعة أشخاصٍ فقط..

أصنافٌ متنوعة من الطعام الشهيِّ..

شوربة البروكلي والجزر.. السمك الهشُّ المُقدَّد الغنيُّ بالزبدة والمَصحوب بالخل.. شرائحُ الدجاج المشويِّ مع الصوص الحار.. كُراتُ الكُفتة المقلية العائمة في مَرقة الطماطم..

علاوةً على ما لذّ وطاب من أطباق المعجنات والحلويات..

وكالمعتاد.. لا تغفلُ أمُّ سليم عن طبق السباغيتي الخاصّ الذي يتم إعداده ويوضع على المائدة كل عام دون أن يأكلَ منه أحد!

أما أعباءُ المنزلِ الأخرى من تنظيفٍ وتوضيب فقد أُوكِلَتْ إلى باقي فتيات الطاقم النسائي نَغَم وزينة..

هناكَ أيضاً العَم جابر بوَّابُ القصرِ وحارِسهُ.. رجلٌ ستينيٌّ يُمضي مُعظم وقته في حُجرته الصغيرة عند بوَّابة القصر.. وقد يتجوَّلُ في الأرجاء القريبة للاستطلاع والاطمئنان على أمن المكان.. مُؤتمِناً ابنه عامر على البوَّابة في غيابه..

الكلُّ مُنشَغلٌ بإنهاءِ مَهامهِ قبلَ المساء! قبلَ وصولِ السيِّد رستُم فَيَّاض..

(أبو عَزيز).. سيِّد هذا القصر..

"هيَّا يا سليم وبسرعة إرمِ كيسَ المُهمَلاتِ هذا في مَكبِّ النفايات.. علينا إنهاءَ العَمل قبل وصول السيِّد رستُم.. اتصلَ سائقُهُ وأخبَرَنا أنهم سيكونونَ هنا في غضونِ نصف ساعة"..

أوعزَ أبو سليم لابنه وهو يُلمْلِمُ معدَّات البَستَنة ليُعيدَها إلى المستودع الخلفي للمرآب..

"كم هوَ غريبٌ حِرصُ السيِّد رستُم على تقليدِه السنويِّ هذا!

لهُ خمسُ سنواتٍ على هذه الشَاكِلة..

يهجرُ القصرَ والقرية طيلة العام ليأتيَ في السابع من آذار ويقيمَ مَأدبةً غريبةً على نطاقٍ عائليٍّ ضيِّقٍ ويَمكث لليوم التالي ثم يعود أدراجَه مع مَنْ معهُ إلى العاصمة..

ولماذا يصرُّ على هذه الطقوس المُريبةِ التي يُمارسُها لدى قدومه؟"..

تَمتَمَ سليم وهو يهِمُّ بحملِ كيسِ المُهملات بفضول..

"قلتُ لكَ مِراراً.. لا شأنَ لنا بما يفعله السيِّد في قصره ولا يَعنينا إلا أن نقومَ بعَملِنا.. هو يدفعُ لنا ويُؤوي الجميع هنا في مَساكنِ العَمالة الخلفيَّة للقصر من أجل ذلك.. لسنا شركاءَه لنحاسبَه على طقوسهِ وأهوائه.. حدودنا في هذه الحديقة حيث وظيفتنا يا سليم.. من الأفضل أن تكبحَ جماحَ فضولِكَ حول هذا الأمر".. أجابَه والدُه بِحزم..

أطرَقَ سليم رأسَهُ بامتعاض وهو يفكر بالأسئلة الكثيرة وأجوبتها الافتراضية التي ما تزال تتحرَّشُ بمُخيِّلَتِهِ.. هو بطبيعة الحال فتىً فضوليّ يحب أن يغوصَ في التفاصيل ويستطلعَ الأمور ولن يهدأ له بالٌ إلا بتفسير ما يدور حوله..

يريد أن يفهم كل شيء.. لطالما استفزهُ فضولُه لاستكشاف المجهول.. ولا عَجَبَ في ذلك.. فحلمه الأكبر في أن يصبح مُحققاً أو ضابطاً في الشرطة ينبع من حِسِّهِ الاستقصائي في تتبُّع الأحداث وفهمها وتحليلها وربطها معاً بشكلٍ منطقي.. علاوةً على أنه مُولعٌ بالقراءةِ ولديه شغفٌ بالبحث والتعلُّم..

الفتيان في هذا العَمر يكونون أكثر اندفاعاً.. تعتَريهمُ الطاقة والحماسة لتجربة كلِّ شيء.. وتعجُّ رؤوسُهُم بالكثير من الاستفسارات التي لا بدَّ منها للبدء بالتفاعل مع هذا العالم بمسؤوليةِ الرِجَال.. ولا ضَيرَ في ذلك..

لكن من الأفضل أن يكون هذا الفضولُ والاندفاع مَصحوبَين بشيءٍ من التروِّي والعَقلانية..

فمن شأن الوعي والتخطيط المُسبَق تقييد الجنوح للخطر.. وتفادي أخطاء كارثية فادحة.. لتوفيرهما الكثيرَ من الجهد الذي قد يذهبُ سُدىً إذا استحكمَ التهوُّر والانقيادُ الأعَمى في أهوائِنا..

وحدَه العَم جابر.. يتفهَّم طبع سليم هذا ويحثُّه على المضيِّ في إشباع فضوله لكن بشكلٍ عاقلٍ ومدروس.. ربَّما لأنَّه أمضى عُمره مُمتَهناً الحراسة فباتَ يترتَّبُ عليه هو الآخر الإلمام بتفاصيل كلِّ ما حوله قبلَ أن يشعر بالأمان التامّ..

انقضَت نصف الساعة واستنفرَ الجميع واصطفُّوا معاً في ساحة القصر الأمامية لاستقبال السيِّد رستُم الذي وصلَ أخيراً في مَوكبٍ من ثلاثِ سيارات لِكزس سوداء فارِهَة..

لا يقتصرُ السَوادُ على لونِ السيارات فحسب.. بل هو سِمةُ روّادِ هذا المَوكِب.. جميعهم يتَّشِحُونَ بالسَواد.. يَلُفُّهُم الجُمُود ويبدو الوُجومُ على وجوهِهم..

عادةً يصطحب السيِّد معه زوجته وأُختَيه وسكرتيره الخاص ومرافقَين من طاقم الخدمة الشخصية.. يُقيمون مَأدبةَ عشاءٍ هادئة لا تبدو مُمتعةً أبداً.. يَبيتون ليلتهم في القصر ثم يعودون أدراجهم في مساءِ اليوم التالي إلى العاصمة..

لدى اجتيازه البوابة.. حطَّ المَوكبُ رحاله في الساحة حيث يتربَّعُ حوضُ نوافير الماء على منصَّةٍ رُخاميَّةٍ مُزركشة..

توقفت السيارةُ التي في المُقدمة وهرعَ سائقها ليفتح بابها الخلفي إيذاناً باستقبال السيِّد رستُم الذي ترجَّلَ منها بنظاراتٍ شمسيَّةٍ سوداء تُخفي نظرته الحادّة دون أن تخفيَ حاجبَيه العريضين واقفاً بهندامِه الراقي الذي يَشي بحسابِه المَصرفي..

حذاءٌ إيطاليٌّ فاخر من النمط الكلاسيكي الأسود مصنوع من الجلد الطبيعي.. ساعة رولكس كريستال سويسرية.. بدلة رسميَّة سوداء بأزرار بلاتينية.. لا تنتمي إلى أيٍّ من الماركات العالمية.. فللسيِّد ذوقٌ تَعجيزيٌّ في الثياب لا يُرضيهِ إلا خيَّاطه الخاص.. ومع كل هذه الرَصانة نجدهُ حاملاً بيده حقيبةً رياضيَّةً شبابية برتقالية اللون.. تبدو بغرابةٍ كالعلم المُبهِج وسطَ هذا المشهد الرَتيب.. لكنها أيضاً تطيحُ بوقارِ هندام السيِّد..

وكما المرات الأربع السابقة.. يتسابقُ مُرافقو السيِّد رستُم ومُستَخدَموه على تفريغ حمولة السيارة الثالثة ونقلِها إلى الغرفةِ الخاصَّةِ في صدرِ القصر.. هيَ شيءٌ ضَخم مُلفَّحٌ وبشكلٍ أنيق بقطعةِ قماشٍ من السَاتان الأسود اللامع.. يَبدو كَمُجسَّمٍ من الرُخام أو الحجر إذ يَتعاونُ ثلاثةُ رجالٍ على حمله بِمشقَّةٍ وإيداعِه بِمُنتهى الحِرصِ والعنايةِ في تلك الغرفةِ الغامضة..

يومٌ ونصف تختزلُ أيام السنة في هذه الزيارة المَيمونة التي يوزِّعُ فيها السيِّد هِبَاته بِسخاءٍ على مُوظفِيه.. وعلى فقراء ومُحتاجي القرية.. قبل أن يغادر عائداً إلى امبراطورية استثماراته التجارية في العاصمة..

ولعلَّ ما يتكرَّم به عليهم في زيارة اليوم.. يكفيهم طيلة العام حتى السابع من آذار المُقبل..

أخيراً دخل الجميع إلى صالة القصر.. بمن فيهم زوجة السيِّد رستُم.. السيِّدة مُنيرة.. (أمُّ عزيز).. تُلازمها أمُّ سليم لتتأكد إن كان ثَمَّةَ توجيهات جديدة تخصُّ مأدبة المساء..

"شكراً يا أم سليم.. أرى أن كلَّ شيءٍ في القصر على ما يُرام من نظافة وترتيب.. ماذا عن أمور المساء؟ هل كلُّ شيءٍ جاهز أيضاً بالتفاصيل التي أرسلتها لكم على الواتس؟"

هَمَسَتْ السيِّدة فيَّاض في أذن أمِّ سليم وهي تنزعُ وشاحها الأسود بتململ وتجلس على أريكةٍ قريبة.. وتتنهَّدُ بِحزن..

"طبعاً يا سيِّدتي.. كله تمام.. وفق توجيهاتك.. نَغَم وزينة تجهزان غرفة المأدبة الآن.. ومريم ورنيم في المطبخ لوضعِ اللمساتِ الأخيرةِ على الوجبات المطلوبة في قائمة الطعام.. والعَم جابر فقط هو من دخل بالأمس إلى الغرفة الخاصَّة مع الرجل الذي أرسله السيِّد ليُشرفَ على تنظيفها وتدبير شؤونها وهي جاهزةٌ الآن"

أجابت أمُّ سليم بحماسة..

"حسناً إذاً.. سأصعد مع الجميع إلى غرفنا لنأخذَ قِسطاً من الراحة.. ولتتوَلَّي أنتِ جُهوزية كلِّ شيء.. إنَّها السنة الخامسة لك في هذا البروتوكول الذي لا أعلم متى سينتهي.. وقد أصبحتِ خبيرةً في تدبير أموره دونَ الرجوعِ إليَّ يا نعيمة.. يريد أبو عزيز أن يكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام مع حلولِ الثامنة مساءً".. أوعزَتْ السيِّدة فَيَّاض ثم همَّتْ بالانصراف بِتثاقُلٍ يُغالبها الإنهاك من طريق السفر..

بينما تابعَ الجميعُ إتمام عَملَهُ ولكن بهدوءٍ بعدَ الآن..

فالقصرُ لم يَعُدْ خَاوِيَاً..

العيدُ الأسوَد

إنَّها استراحةُ الظهيرةِ لكلِّ مَنْ يعَملُ خارجَ حدودِ المَطبخ وصالة الطعام.. الفتيات داخل القصر ما زِلنَ مُنهمكاتٍ في العَمل..

في حين أنهى الفتيانُ في الخارج أعَمالهم ومشاركتهم في مراسم استقبال السيِّد.. وها هم يجلسون في الظلِّ تحت فَيءِ شجرةِ السِنديان العَملاقة بمُحاذاةِ السورِ الحجريِّ.. ويتجاذبونَ أطرافَ الحديثِ حول ثروة السيِّد وعائلته وطِباعه.. وما سيَدور في المساء خلف نوافذ هذا القصر..

"ليتني أتمكَّنُ من اعتمارِ طاقيَّةِ الإخفاء لأتسللَ مساءً إلى الداخل وأشاهد هذه المأدبة العظيمة التي تُدشِّنُ عامها الخامس ويُنفَقُ عليها ببذخٍ كلَّ عام.. دون أن يُبدِيَ أصحابُها أدنى علاماتِ السرورِ أو البهجة..

أكادُ أجزمُ أن السيِّد رستُم هذا غريبُ الأطوار.. بل هو مَخبولٌ يا ولد"..

قال مروان فتى الإسطبل بِتَهَكُّمٍ مُخاطباً سليم الذي جلس سَاهِماً بجواره..

"ما هذا الكلام يا مروان؟ لو سَمِعَكَ أبي تتحدثُ عن السيِّد بهذه الطريقة لأَنهى خدمَتَك هنا.. أنا أيضاً يُراوِدُني الفُضول إزاءَ ما يدورُ في الداخل.. لكن كما يقول أبي.. في النهاية هو أمرٌ خاصٌّ بالسيِّد وأسرته.. فَلنحترمْ خصوصيَّة الرجل طالما يُعطينا حَقَّنا" أجاب سليم..

"مممم كم أحسدُ الفتيات في الداخل الآن لأنَّهُنَّ يَستطِعنَ استراقَ السَمْعِ والنَظَرِ إلى ما يجري هناك.. كلُّ شيءٍ خياليٌّ في الداخل يا رجل..

الأثاثُ المَلَكي.. الأرائِكُ المُخمَليَّة.. الستائرُ الراقية.. التُحفُ الثمينة هنا وهناك.. مَصابيحُ الإنارةِ المُوزَّعة في زوايا الغرفِ تَتَوسَّطُها ثريَّا كبيرة من أحجار الكريستال البَرَّاقة.. شاشةُ التلفاز الذكيَّة العِملاقة المُعلقة في صالة الشاي وتتصدَّرُ الحائطَ بحجم شاشةِ عرضٍ سينمائيَّة.. مائدةُ الطعامِ الفاخرة بِطاولتِها وكراسيِّها المصنوعة من خشبِ السِنديان الباهظ الثمن.. والتي تَتَّسِعُ لعشرينَ شخصاً ولا يجلس إليها اليوم إلا خمسةُ بُؤساء!

أترى؟ هناك شيءٌ مُشترك بيننا وبينهم.. نحن بائِسان جالسان هنا تحتَ شجرةِ السِنديان وهم يَجلسونَ هناك ببؤسٍ على كراسي سِنديان أيضاً..

هل يُعقلُ أن نكونَ في مَكانِنا هذا أكثرَ سعادةٍ منهم هناك؟

لو كانَ لديَّ ثروَة هذا الرجل المَخبول لاستمتعتُ بكلِّ قرشٍ منها.. لطالما كان لديَّ شعورٌ بأنني أستحقُّ الأفضلَ.. سأصبحُ ثريَّاً يوماً ما وبأيِّ طريقة.. وعندها سأعلِّمُهم كيف يعيش الأثرياء".. قال مروان مُتابعاً تَهَكُّمَه..

"كُفَّ عن الإساءةِ للرجلِ يا مَروان.. أرى أنَّكَ لا تَنوي السكوت.. شهيَّتُكَ للسُخرية مَفتوحةٌ اليوم ويبدو أنَّ حِقدَكَ الأعَمى ونقمتكَ على الأغنياء يَنمُوانِ يوماً بعد يوم.. كلنا يتمَلَّكُنا الفضولُ بشأنِ تصرفاتِ أهلِ هذا القصر.. لكنَّنا ولا شكّ نُضمرُ الحبَّ والاحترامَ لهم.. ومع أنَّهم يُكرموننا كثيراً لكن يبدو أن إرضاءكَ مستحيل.. وبِما أنَّ نارَ الحسدِ المُستعِرةِ في صدرك لم ولن تخبُ.. دَعني أذهب لتفقُّدِ العَم جابر إذاً.. فالجلوس معكَ باتَ يصدِّعُ رأسي"..

قال سليم وهو ينفضُ الغبارَ عن ثيابه بعد أن نهضَ من مَجلسهِ تاركاً مروان وقاصداً البوَّابة لتَفقُّدِ العَم جابر..

العَم جابر (أبو عامر).. حارسُ القصر منذَ أربعينَ عاماً.. وكاتمُ أسرارِ السيِّد رستُم.. لطالما كان مَصْدَرَ ثِقَةٍ ومُؤتَمَناً من قِبَل العَائلة مُنذ عهدِ السيِّد (عزيز).. والد السيِّد رستُم.. وحتى بعدَ وفاتِه ظلَّ في خدمةِ العائلة يترأسُ فريقَ حِراسةِ أملاكِها إلى اليوم..

توجَّهَ سليم إلى حُجرة الحراسة وألقى التحيَّة على العَم جابر الذي كان يتناول طعامَ غَدائِه..

"أهلاً بِسليم.. تعالَ يا بنيّ وشاركني الغداء.. (حَماتُكَ تُحبُّك)".. ابتسمَ سليم بِخجل..

"شكراً عَم جابر لستُ جائعاً.. أردتُ فقط أن ألقيَ التحيَّة وأطمَئِّن عن صحتك"..

"لستَ بخير يا بنيّ؟ هل هناكَ ما يُؤرِّقُك؟ رأيتكَ قبل قليل بصحبة مروان.. هل أزعَجكَ هذا المشاغب مرةً أخرى؟ أخبرني"..

"لا لا يا عَم.. لا شيءَ من هذا القبيل.. صحيحٌ أنَّ مُزاحَه ثقيلٌ ومُستفزٌّ.. لكن لا.. لم يُزعجني شخصياً اليوم"..

"حسناً.. على كلِّ حالٍ أنا أنوي تحذيره للمرةِ الثالثة.. لقد رأيتُه منذ يومين يُدخِّنُ قربَ كومةِ العَلَف والقش في الإسطبل الخلفي.. ويرمي أعقابَ السجائر حولَه.. إنه ولدٌ قليلُ التهذيب.. سيِّءُ الطِباع.. مُستهترٌ وعديمُ المسؤولية.. لو أن أحد هذه الأعقاب بقي مُشتعلاً لتَسبَّبَ بحريقٍ كبيرٍ في الإسطبل..

وَعَدَني أكثرَ مِن مرة أنَّه سيقلعُ عن التدخين ويُحسِّنُ سلوكه وأَخْلَفَ وعدَهُ.. لا تنظر إلى زَغَبِ شاربِه الذي بَدَأَ ينبُتُ وتعتقدُ أنَّه باتَ رجلاً.. الرجولة شيء والذكورةُ شيءٌ آخرَ..

تَجَنَّبْهُ يا سَليم.. فالتفاحةُ العَفِنة تُعدي ما حولها.. لو لم يكن أبوه عاجزاً وفقيرَ الحال.. وجدَّتُه بنت خالي لما توسَّطتُ له عند السيِّد لتوظيفه..

لكنني الآنَ نادمٌ وأكادُ أشي بهِ لولا فقرِ حالِه"... قال العَم جابر بِنَزَقٍ وهو يَجُرُّ كرسيَّاً لسليم ثم استطردَ:

"لكن تعالَ إلى هنا.. لا يبدو أنكَ أتيتَ لإلقاءِ التحيَّةِ فقط يا ولد..

هناكَ ما تُريدُ إخباري به؟" سألَ جابر بارتياب..

"لا تخفْ يا عَمي.. لا شيءَ يَدعو للقلق.. ولا يتعلقُ الأمرُ بِمروان أصلَحَهُ الله..

إنَّما هيَ بعضُ الأسئلةِ التي تقبعُ في ذِهني وترفضُ أن تغادرَ بلا إجابات..

كثيراً ما سألتُ أبي وطلبتُ منه تفسيرَ شيءٍ من الأمور التي تدور في القصر هنا.. لكنه في كلِّ مرةٍ كان يُنهي الحديثَ بحُجَّةٍ ما.. ويُحجمُ عن الإجابة"..

"أظنّني خَمَّنْتُ ما تريدُ السؤالَ عنه!

لطالما اشتكى لي والدُك من إلحاحِكَ عليه للحديثِ في تفاصيلِ زيارة السيِّد رستُم وفكِّ طلاسِمِها.. لكن عليكَ أن تدركَ يا بنيّ أن والدك لا يعرف كلَّ شيء.. ولا يحبُّ أن يبوحَ حتى بما يعرفه.. حِرصاً منه على الالتزام بعَمله فقط.. دون التدخُّل في شؤون الغير.. لكنَّني أرى أنَّ فضولك بدأ يُتعبُك.. ولا ضَيرَ في أن تعرف ما هو ليسَ بِسِرٍّ"..

قال العَم جابر وهو يُشيرُ بيدِه إلى سليم ويدعوه للجلوس ثم أردَفَ:

"كانَ للسيِّد رستُم ولدانِ تَرَبَّعَا عرشَ قلبه وعَلَّقَ عليهما آمالاً كبيرة.. لكنَّه فُجِعَ بكلَيهِما.. ابنه البكر عزيز توفيَّ طفلاً منذ ثلاثة وعشرين عاماً في حادثٍ غامضٍ أودَى بحياته عن عُمُرِ السنتين.. وكادَ الحزنُ عليه يفطرُ قلبَ السيِّد لولا أنَّ زوجته أم عزيز أنجبَت له ابنه الثاني تَيْمُور.. فوجدَ فيه العزاءَ إلى أن توفيَّ هوَ الآخرُ كما تعلمُ منذ خمس سنواتٍ عن عُمرِ السابعة عشر في حادثِ الغابةِ ولم يُعثرْ على جُثمانه.. ولا قبرَ الآن لكليهما..

كانت هذهِ هيَ الضَربةُ القاضِية التي قَصَمَتْ ظهرَ السيِّد وأفقدتُه توازنَهُ كما تَرى..

لا بدَّ وأنَّكَ تَذْكُرُ تَيْمُور.. كان الوريثَ المدلَّلَ للعائلة.. شابٌّ في عَمرِ الوَرد وضعَ فيه أهلُه كلَّ أمنياتِ الدُنيا الجميلة.. لكنَّهُ رَحلَ فجأةً واختفى إثرَ رحلةٍ في غاباتِ المَغارَةِ العَتيقة.. كنتَ صَغيراً حِينَها.. لكنَّك تَذكُرُهُ ولا شكّ"..

"نعَم نعَم.. كان وَسيماً ورياضياً.. يَأتي كل صيفٍ ويحبُّ الفروسيَّة هنا في مِضمارِ الخيل.. كنتُ أراهُ يَخرجُ كلّ صباحٍ أيضاً ليمارسَ الجَري.. مُتأنقاً بملابس الرياضة الفاخرة وسمَّاعات جوَّاله في أذنَيه بينما هو يَجري.. وكان لديه درَّاجةٌ يُعلِّق عليها حقيبةً رياضيَّةً برتقاليَّة اللون تشبِه تلكَ التي يحملها السيِّد كلّ عامٍ لدى قدومِه"..

"لا تُشبِهُها.. بل هيَ الحقيبةُ ذاتها.. منذ وفاة تَيْمُور وهو يَحتفظ بها وبكلِّ مُتعلقاتِه.. يُقيم وكما ترى كلّ عامٍ مأدبةً للمقرَّبينَ فقط في يومِ ميلاده..

هو في حالةِ إنكارٍ لما جَرى.. لا يريدُ أن يَتعايَشَ مع حقيقةِ الفَقْدِ..

يُحاولُ إحياءَ طقوسِ حياة تَيْمُور كما لو أنَّه لم يَرحل.. غرفتُه التي تتصدَّرُ القصر باقيةٌ بما كانت عليه منذ خمسِ سنوات.. لم يُحرِّكْ أحدٌ ساكناً فيها..

طبقُ السباغيتي الذي كان يحبُّهُ ويَعتادُ تَناولَهُ.. يُوضَعُ كلّ عامٍ على المائدة أمامَ مقعدِهِ الفارغ وكأنَّهُ ما زالَ معهم دونَ أن يتناولَه أحدٌ..

ويُرفَعُ في نِهايةِ المَأدُبةِ على حَاله..

كنتَ صَغيراً لكنَّكَ تذكرُ ولا شكّ.. كيفَ كانَ يُقيمُ له السيِّد في السابق حفلاتِ عيدِ ميلادٍ تقوم لها الدُنيا ولا تقعد.. يوزِّعُ الهدايا والحلويات على أهل القرية.. يُضيءُ سماءَ القصر ليلاً بالألعابِ النارية..

يعيش هذا القصرُ بِمَن فيه كرنفالاً رائعاً بأضوائه وزينته وموسيقاه الصاخبة..

لكن بعد حادثة الوفاة انطفأ كلُّ شيء.. وإلى الآن لا يستطيعُ السيِّد أن يعيشَ ذكرى عيد ميلاد ابنه دونَ أن يقيم هذه الطقوس التي تستغربها الآن..

اعتقد أنَّ ما يفعله هو محاولةٌ بائسة لتشتيتِ ذهنه عن الواقع المؤلم.. ولإثبات أنَّه ما زال يوماً مميزاً.. لكن بمراسمَ مُغايرة.. هو لا يستطيع أن ينشرَ الفرح كالسابق في هذا اليوم.. غيرَ أنَّه أيضاً لا يملك شجاعة تركِهِ ليمُرَّ فارغاً عادياً مَخافةَ أن تتلاعبَ الذكريات الحزينة في مساحة الفراغ هذه..

لم يتعافَ السيِّد رستُم من هذه الفاجعة.. ولا أعلم إن كان سيفعل!"..

"نعَم نعَم أذكرُ جيداً.. كنت أقفُ مَشدوهاً أمام الألعاب النارية.. وقالب الحلوى العَملاق الذي يأتي كلّ عامٍ بهيئةٍ مُبتكرة ومُميزة..

آخرُ سنةٍ وكما أذكر كان على شكل سيارة سباقٍ زرقاء.. أهدَانا السيِّد يُومَها ألواحَاً رقميّةً بهذه المناسبة..

يا إلهي.. لم أكنْ أعلمُ أن السيِّد رستُم يحملُ كل هذا الوَجَع.. هو يبدو قوياً مُتماسكاً صلباً من الخارج..

مَن يراهُ يحسدهُ على رغَدِ عَيشِه وثروته الطائلة التي يبدو أنَّها فشلت في شراءِ سعادته..

لهذا يَتشحُّ جميع الوافدين بالسَواد.. هو إذاً حدادٌ في هيئةِ عيدِ ميلاد..

لكن ما قصةُ المُجَسَّماتِ التي يأتي بها كلَّ عامٍ ليَضعَها في غرفة ابنه تَيْمُور؟"..

تَساءَل سليم وهو مَأخوذٌ بما رواهُ العَم جابر..

"هذه قصةٌ أخرى يا بنيّ.. سأقُصُها عليكَ كي أُسكِتَ شيطانَ الفضولِ الذي يعبثُ برأسكَ الصغير هذا..

بعد وفاة تَيْمُور استقدمَ السيِّد رستُم نحَّاتاً ماهراً وقام بتوظيفه لأداءِ مهمةٍ غير مَألوفة..

أرادَ أن يَرى تطورات شكلِ ابنه كما لو كان يَكبُرُ مَعه.. كيف سَيبدو شكله مع كلِّ عامٍ جديد كما لو أنَّهُ لم يَمُتْ.. هيَ فكرةٌ مَجنونةٌ.. نعَم.. لكنَّها تنبعُ من حالةِ العجزِ والإنكارِ التي لمْ يخرج منها السيِّدُ بعد..

هو يعيشُ في كذبةٍ تُريحُه قليلاً.. ولا يريد أن يصحوَ منها..

شيءٌ يشبِهُ إلى حدٍّ ما برامج وتطبيقات أندرويد على جوَّالاتنا لاستقراء شكل الإنسان مع تقدُّمِهِ في العُمر.. مثل (3D-Face jpg) الذي أرَيتني إيَّاه منذ يومين.. وغيرها.. مِنَ التي تُستَخْدَمُ هذه الأيام بغرضِ التسلية والمُزاح..

تلك التطبيقات التي تَعتَمِدُ تقنية الذكاء الاصطناعي للتنبُّؤ بشكلك المستقبلي.. وشيخوختك.. لكن السيِّد يكره كل تطبيقات الجوَّال المُماثلة.. ويكره معها وسائل التواصل الاجتماعي.. لذلك فقد لجأ إلى نحَّاتٍ بشريٍّ ليُعمِلَ خبرَتَه ونظرتَه الفنية على تماثيل سنويَّة تُنصَبُ لتَيْمُور في غرفته.. وعينُ هذا النحَّات هي التي تتكهَّنُ بتطورِ ملامحِ الوجه وتَغيُّراتِها سنةً عن سنة..

قد تتساءَل.. ولماذا لم يفعل كل هذا مع عَزيز؟

عزيز توفيَّ طفلاً صغيراً.. لم يلبث في حُضنِ أبيه أكثر من عامين.. وامتصَّتْ ولادة تَيْمُور بعدَهُ بشكلٍ ما صدمةَ غِيابه..

أما تَيْمُور فقد توفيَّ عن عُمرِ السابعة عشر.. بعد أن أودَعَ في قلبِ أبيهِ رصيداً هائلاً من الذكريات وترَكَ في حياته بصمةً لن تُمحَى بِسهولة.. ناهيكَ عن أنَّهُ لم يُرزَق بعدَهُ بأولاد"..

"وماذا عن السيِّدة أم عزيز؟" تابعَ سليم إشباعَ نَهَمِ فضوله.. مُقاطعاً العَم جابر..

"الأمرُ مُختلفٌ تَماماً مع السيِّدة مُنيرة.. أعني أمَّ عزيز.. هي امرأةٌ قويَّة.. تَستَمِدُ تَماسُكَها وصَبرها من إيمانها القويِّ بالله.. وتجدُ في الصلاة والدَعوات دواءَها..

هي لا تكترثُ بهذه البِدَعِ الجديدة التي أدخلها السيِّد رستُم إلى حياتهم.. لكنَّها تُجاريهِ فقط.. وتأتي كل عامٍ مَعَهُ لأنَّه هوَ مَن يرغبُ بذلك.. لِكَي يَرتاحَ فحَسب"..

كانت هذه التفاصيل التي تعرَّفَ إليها سليم للتَّو قبل أن يُودِّعَ العَم جابر ويعود مُثقلاً بها إلى شجرة السِنديان كفيلةً بإخمادِ فضولِه المُتراكم.. بل وجعلته يتعاطفُ مع السيِّد.. وكم تمنى لو استطاعَ التخفيفَ عنه بأيِّ شكل!

على الجانبِ الآخر وداخل القصر.. تمَّ وضعُ اللمساتِ الأخيرة لمائدة العشاء.. ستُّ أماكنَ.. أمام كلٍّ منها على الطاولة أطباقٌ وكؤوسٌ مُتعدِّدة الأشكالِ والمَقَاسات من الخزفِ الصينيِّ الفاخر.. ملاعق وشوَك وسكاكين من البرونز المَطفيِّ بألوانٍ وتدرجاتٍ آسرة..

مناديل قطنية ناعَمة مطويّة بعناية وقد ظهر على الوجه العُلويِّ لكلٍّ منها حرفُ تي (T) مُطرَّزاً بِحِرَفيَّة بخيطٍ مُذَهَّبٍ رفيع.. في إشارةٍ إلى أول حرفٍ من اسم تَيْمُور... وإلى جانِبِ كلِّ منديلٍ شمعةٌ بيضاء ثخينة بارتفاع سبعة عشرَ سنتيمتراً.. طُبِعَتْ جَانبيَّاً على جسمها الأسطواني العريض صورةُ وجه تَيْمُور.. بَاسماً كالعادة.. ولُفَّتْ قاعدَتُها بشريطٍ من السَاتانِ الأسود..

وكأنَّ احتراقَها يحكي قصةَ نَفَادِ أعوامِهِ السبعة عشر.. سنتيمتراً بـِ سنتيمتر.. عاماً بِـ عام.. انتهاءً بالشريطِ الأسود....

"مِن أينَ يأتونَ بهذه الأفكار؟ وكيف تخطرُ لهم على بال؟

ربما لو وجدوا ألعاباً ناريّةً سوداء لأطلقوها الليلة أيضاً..

لا أعرف.. مشاعري مُختلطة الآن.. هو مَشهدٌ يوحي ظاهرُه بالروعة والرومنسية لكن عندما تعلمينَ أنَّه عيدُ ميلادِ مُتوفىً.. تُصابِينَ بالاختلال العاطفيِّ.. أنا أرى أنَّ هذه المظاهرَ تسبِّبُ ألماً مُضاعفاً كلَّ عامٍ ولا تسمحُ لهم بالتعَافي.. على الإنسان ألا يَبقى أسيراً لمُصابِهِ.. كان من الأجدَى لهم ولَهُ لو أنفقوا هذه الأموال في عَملِ الخير لروحه.. وحاولوا تَقَبُّلَ فكرةِ مَوتِهِ.. رحِمَهُ الله".. هَمَسَتْ نَغَم في أذُنِ زينة وهما يوزِّعانِ أكاليلَ صغيرةً مُسطَّحة من زهور الزنبقِ البيضاء الجميلة وسطَ الطاولة..

"نعَم يا عزيزتي.. رُبَّما نستهجنُ الأمر لأنَّنا فقراء ونقدِّرُ قيمة القِرش..

كلفةُ ما يُنْفَقُ في طقوسِ الحُزنِ والحِدادِ على أحدِهم تُغَطِّي تكاليفَ عِيشةِ عشرةٍ مِنّا.. يبدو أنَّ الموتَ أصبحَ أغلى من الحَياة".. أجابتْ زينة بصوتٍ خافتٍ أيضاً.. وتابعتْ مع نَغَم توزيعَ الزهور بهدوء..

قاربتْ الساعة على الثامنة.. وأتَمَّتْ أمُّ سليم ومَنْ مَعَها تحضيرَ كلِّ ما يتعلقُ بمراسمِ المساء.. في انتظار أن ينزلَ السيِّد وصَحْبُهُ لتناولِ العشاء بصمتٍ.. كما في كلِّ مَرَّة..

3D-Face jpg

إثرَ حديثِ العَم جابر.. جلسَ سليم في خلوةٍ تحت شجرة السِنديان سارِحاً بأفكارٍ تضجُّ في رأسه أكبر وأكثر من تلك التي كانت قبلَ قليل..

استغلَّ خُلوَّ المكان.. وانشغال الجميع بما يدور الآن داخل القصر وتَسمُّرهم حولَ نوافذه.. ليُفكِّرَ مُنفرِداً في كلِّ كلمةٍ قالها جابر..

ما هذه الحياة التي لا تُسعِدُها أموالُ الدنيا!

لكن نعَم.. هناك أشياء لا يُعوِّضُها المال.. فسلامةُ أحدٍ من إخوته أو وَالدَيه لا تُوزَنُ بأيِّ ميزانٍ مَصرفيٍّ.. هناك أشياءَ لا تَسعيرةَ لها..

أنفاسُنا.. عافيتُنا.. وعافيةُ من نحب.. هيَ أيضاً أرزاقٌ ولكن من نوعٍ أخر..

هناك أشياءَ للعرض فقط وليست للبيع.. ولا تحلُّ محلَها المَلايين..

"آه لن أصدِّعَ رأسيَ بعدَ الآن بتمنِّي حياةِ الآخرين.. فما نراهُ من الخارج قد لا يعكسُ الباطنَ أبداً.. سأهتَّمُ بحياتيَ ومَنْ أحبُّ.. لا وقتَ لنهدرَه في الحسد والتَمنيِّ.. العَمل ثم العَمل ثم الإنجاز بعد الآن.. أنا على أيِّ حالٍ سأعيشُ حياتيَ لا حياتَهم..

لكن كانَ على السيِّد أن يستعينَ بيَ في تَخمينِ شكلِ ابنِه المُتوفى وتقديرِ كيف سيبدو عاماً بعد عام.. الكلُّ يعرفُ أنَّني مُولَعٌ جداً ببرامج الذكاء الاصطناعي الرائجة.. ويَسهُلُ عليَّ استخدامها.. لكن يبدو أنَّهم لم يُعلِمُوهُ بذلك..

أنا شيخُ كارِ التطبيقاتِ الرقميَّة هنا.. لو كان عندي صورة لتَيْمُور على جوَّالي لاستنسختُ خمسةَ أشكالٍ افتراضيَّة لملامِحه المُتوقَّعة في الخمسة أعوامٍ الفائِتة بناءً على تلك الصورة فقط.. ولَتَفَوَّقْتُ على مُخيِّلةِ نحَّاتِ السيِّد رستُم هذا..

مممم كم يغيظُني هذا التحدِّي!

مَهلاً.. لا بدَّ أنَّ لتَيْمُور حساباً سابقاً على الفيسبوك..

أمثالُه من الأثرياء يملكونَ حساباتٍ على كلِّ مِنصَّةٍ.. فيسبوك.. إنستغرام.. تويتر وغيرها وبآلاف المُتابعين.. ليَضخُّوا صوراً جذَّابةً عن رحلاتهم ومناسباتهم..

لن أرتاحَ حتى أختبرَ قدراتيَ التقنيَّة في هذا الأمر".. فكَّرَ سليم..

وتابعت خواطِره المُشاغِبةَ العَبَثَ بعقلِهِ قبلَ جوَّالِه.. حتى عثرَ أخيراً على حسابٍ قديمٍ لتَيْمُور على الفيسبوك..

"أها... لِنَرَ.. ها هوَ.. (تَيْمُور فيَّاض).. وبالإنجليزية (Fayad Taymour)"..

تَمْتَمَ سليم بعينينِ شاخِصَتينِ في شاشةِ الجوَّال يتأمَّلُ صورةَ تَيْمُور الشخصيَّة:

"حسناً.. إنَّهُ هوَ.. مَأسُوفاً على شبابه.. رَحِمَهُ الله..

لِنرَ ما في صفحتِه الشَخصيَّة.. كيفَ لم يخطر هذا على بالي من قبل؟

بإمكانيَ أن أعرفَ الكثير عن عائلة السيِّد من حساباتهم هنا..

لكن هذا يَحتاجُ إلى جلسةٍ هادئةٍ في سريري أستطيعُ التركيزَ فيها على أدقِّ التفاصيل مع كُوبٍ من الكاكاو الساخنة.. يبدو أنَّ سهرتنا طويلةٌ الليلة يا جوَّالي العزيز".. فكَّرَ سليم في سِرِّهِ واعتَلَتْ وجهَهُ نصفُ ابتسامةٍ ماكرة..

لكن سرعانَ ما استدرَكَ فجأةً كمَنْ لطَمَتْهُ صفعةُ صحوةٍ..

"آآآه عُدّتُ مُجدَّداً لأدُسَّ أنفيَ في شؤونِ غيري.. وعلامَ أتعقَّبُ حساباتِهم الشخصيَّة وأتصفَّحُها؟ متى سأتحرَّرُ من هذا الفضول عديمِ النفع..

حسناً.. سأدخلُ فقط لهدفٍ مُحدَّدٍ..

للاستحصالِ على صورةٍ واضحة وبدقَّةٍ عالية لتَيْمُور.. وسأنتَقيها مِن صوَرِهِ الأخيرة.. ثم سَأُعْمِلُ فيها برامجَ استقراءِ الشكلِ المُستقبليِّ المُتَوَقَّعِ الرقميَّة وأجرِّبُ تطبيقَها عليها.. وسنرى كيف تكونُ النتائج"..

ما هيَ إلّا عشرُ دقائقَ حتى أثمَرَتْ مُحاولتُهُ التجريبيَّة في تفعيلِ برنامجه الرقميّ (3D-Face jpg) على صورة انتقاها سريعاً وبشكلٍ عشوائيٍّ لتَيْمُور أثمرتْ عن نتائج مُرضِية يبدو أنَّها أقربُ ما يكون إلى الواقع الافتراضيِّ المُحتَمَل..

خمسُ صورٍ تَختزلُ الخمسة أعوامٍ الأخيرة لشابٍّ لم يَعُدْ فوقَ التراب بيننا.. ولا أحدَ يعلمُ الهيئة التي يرقُدُ عليها الآن تَحتَهُ..

"تُرى هل تبدو التماثيلُ الخمسةُ في غرفةِ القصر كهذه الصور؟

لا أعلمُ ما الجَدوى من هذا التقليدِ الغريب كلّ عام.. لا يَنْفَكُّ يُجدِّدُ ألمَ الفراق.. ويُؤَلِّبُ المَواجِعَ ويُعيدُ تَحريكها لضخِّ الحُزن والكآبة وتعويمِهما على سطح الحياة مُجدَّداً".. فَكَرَ سليم وهو يتأمَّلُ صوَرَ تَيْمُور الافتراضية.. إلى أن قاطعَ شرودَه اسم مروانَ يُضيءُ شاشة الجوَّال وهو يتَّصِلُ بإلحاحٍ حتى آخر رنَّة... دون أن يَرُدَّ على اتصاله..

"آآآه.. ها قد وجدتُكَ الآن.. أين تركتَني واختفيتَ يا ولد.. الكلُّ هناك مُنشغلٌ بأهلِ القصر.. وأنت عدتَ لتجلسَ وحيداً هنا دونَ أن ترفعَ بصرَكَ عن جوَّالِكَ.. رأيتُكَ من بعيدٍ وكنتُ أراقِبُكَ فأثرْتَ فضولي.. رجعتُ إليكَ ولم تنتبه حتى لوجودي قُربَكَ.. ولماذا لم تَردّ على اتصاليَ يا صاح؟

قل لي ما الذي سلَبَ عقلكَ في هذا الجوَّال يا أبو فائز.. هيَّا هيَّا.. أرِنِي.. أجزمُ بأنَّهُنَّ فتياتٌ جميلاتٌ جداً.. لَستَ بقليلٍ يا هذا"..

حاولَ مروان أن ينتزعَ الجوَّالَ من يدِ سليم بعد أن باغتَهُ من خلف الشجرة وأفسد هدوء جلسته بفظاظةٍ دونَ استئذان..

"أبعِدْ يدَكَ يا مروان.. هذا ليسَ من شأنك.. ثم ما هذه الحركات الغليظة.. ألن تكفَّ عن سماجَتِكَ وترحمني من دمك الثقيل؟ أتستظرفُ تصرفاتك إلى هذا الحدّ؟

ثم لا داعي للقلق.. لم يَفُتْكَ أيُّ مَشهدٍ أو صورةٍ مُخِلَّةٍ بالآداب.. فأنا لا ألهثُ وراءَ مثلِ هذه السَخافات.. ذاكرةُ جوَّالي أرقى من أن تَكْتَظَّ بما يدور في رأسك المُشبَعِ بالمَفاسد.. هناك أمورٌ كثيرةٌ في هذه الحياة تشغلني أهمُّ بكثيرٍ من صورِ الفتياتِ التي لا تجلبُ لكَ كما أرى إلا قلَّة العقلِ وذهابَ الهَيبةِ".. أجابَ سليم بنبرةٍ غاضِبة.. وهو يَدفعُ مروان عنه بامتعاض..

"ما بكَ يا رجل؟ لماذا تَغيَّر مزاجك فجأةً؟

حسناً حسناً.. جئتُكَ بسرعة وكنتُ أريدُ أن أقدمَ لكَ عَرضاً مُغرياً..

في رأسي خطةٌ مُمتعة لكن يبدو أنَّك خارج التغطية الآن".. قال مروان وهو يُحاولُ استدراجَ سليم وجذبَ اهتمامهِ دونَ جَدوى..

ثم تابعَ بعد أن صمتَ هُنيهةً مُنتظراً فيها سُدىً أيَّ تجاوبٍ أو تفاعلٍ منه..

"حسناً إذاً.. ستفوتنا مرةً أخرى وككلِّ عامٍ فرصةُ التعرُّفِ إلى تلكَ الغرفة الغامضة بما فيها من أسرار.. كان لديَّ خطةٌ آمنة وناجحة لدخولها بعد قليل"..

"ماذا تعني؟" أثارت الفكرة فضول سليم..

"هذا هو سليم المُغامر الذي أعرفه.. اسمعْ يا صديقي.. أخبرَتْني نَغَم أن بابَ الحديقةِ الخَلفيِّ المُؤدي إلى مَمَرِّ الطابقِ الأرضيِّ للقصر مفتوحٌ اليوم.. وسيبقى مفتوحاً حتى الغد لتسهيلِ لملمةِ ما يُفضي إليه العَشاء من مُهملات وفضلات طعامٍ وترحيلها لتوضَعَ مُباشرةً في مكبِّ الحديقة الخَلفيِّ.. وأنت تعلمُ أن هذا المَمَر ينتهي بالدرجِ الثانويِ للطابق العُلويِّ.. ويمكن من خلاله أن ندخل الغرفة دونَ أن يَرانا أحدٌ من الحضور..

المُهمُّ في الأمر أن يتمَّ كلُّ ذلك أثناء العشاء.. حيث يكون الجميع مُنشغلين حولَ مائدة الطعام.. حتى أن رَجُلَيِّ الخدمةِ الشخصيَّةِ وسائق السيِّد سيتناولون عشاءَهم في صالة الإطعام الصغيرة المفتوحة على المطبخ ولن يَرَوننا أيضاً.. إنَّها فرصتُنا للاستمتاع والاستكشاف أخيراً.. دعنا لا نهدرها"..

قال مروان بحماسة بعد أن استشعرَ أنه استَجَرَّ أخيراً اهتمامَ سليم..

"ماذا تقولُ يا مروان؟ أأنتَ واعٍ لخطورةِ ما تَهذي بهِ؟

نعَم لدينا فضولٌ مشتركٌ لاستطلاع ما في تلك الغرفة.. لكن إن كُشف أمرُنا.. ستكون العاقبة وخيمة.. أنت لا تهتَّمُ لطردِكَ من العَمل هنا.. لكنَّ لي أسرةً كاملة قد يُقطع رزقُها بسبب تصرُّفٍ أرعَنٍ طائشٍ لا تُحْمَدُ عُقباه..

ثمَ كيفَ تفكِّرُ أن تتلصَّصَ على مُمتلكات الغير وتعبثَ بها؟ ألن تَكُفَّ عن أفكاركَ الشيطانيَّة؟".. أجابَ سليم مُستنكِراً..

"ومَنْ قال أنَّنا سنتلصَّصُ.. أنا لا أريدُ أن أدخلَ الغرفة لأسرقَ شيئاً منها.. إنَّه فقط إسكاتٌ لثرثرةِ فضولي حولها.. ثم لو كان فيها أسرارٌ خطيرةٌ لما سَمَحَ السيِّد للعَم جابر وبعض الرجال الغرباء بدخولها منذ أيام..

لماذا يُسمَحُ للغرباء بمعرفةِ ما فيها ونحنُ لا؟

هيَّا يا صاح.. لا تُضَخِّم الأمر.. نيَّتُنا حَسَنَة.. ولن نؤذيَ أحداً بهذا.. سندخل عشرَ دقائق فقط ونخرجُ بسلامٍ كما دخلنا.. و(لا من شاف ولا من دري) كما تقول جدَّتي"..

تعطَّلَ تركيزُ سليم لدقائق وبدا أنَّ إدراكَهُ قد تخدَّرَ تحتَ وطأةِ مُغريات هذا الاقتراح بعد أن زيَّنَه مروان بثوبِ النوايا الحسنة مُحاولاً شَرْعَنَتَهُ لانتزاعِ مُباركةٍ فوريَّةٍ منه..

هو لم يكن ليُوافِقَ.. لكن يبدو أن رغبَته الجامِحة برؤية تماثيل الغرفةِ ومُقارنتها بالصور التي أنتجَها هوَ.. دَغْدَغْتَ روحَ المُغامرة والتَحدِّي لديه.. وجعلته جاهزاً لاستقبال هذا العرض مع القليل من التردُّدِ والتَحَفُّظِ اللذان سُرعان ما سقطا أمام إصرار مروان..

"هذا أمرٌ خطيرٌ وفيه مُجازفةٌ يا مروان.. أنا لا أجرؤُ على المشاركة فيه ما لم يكن مُؤَمَّناً تماماً ومَدروساً بعناية ولا ثغرات فيه".. قال سليم وقد بَدَتْ عليه علاماتُ القبول.. لكنَّه يَحتاجُ دَفعةً أخيرةً ليقعَ في هذا الفَخّ..

"أووووف سليم تَبدو كَمَن يتَمَنَّعْنَّ وهنَّ راغبات.. ما بك؟ إنَّه أمرٌ في غايةِ البَساطة.. صدِّقني سندخلُ ونخرجُ بسلاسةٍ.. ولن نُلحِقَ الضَرَرَ بأيِّ أحدٍ أو أيِّ شيء.. أعِدُكَ بذلك.. لكن دَعنا لا نهدر الوقتَ الآن.. التأخير ليس في صالحنا.. خمسُ دقائق وتَحِلُّ الساعة الثامنة.. سننتهزُ انشغالَ الجميع بمراسم تناول العشاء.. ونَنسَلُّ وننفذُ خطتَنا بهدوءٍ وسلامة"..

كانت هذه آخر وَسوَسات مروان قبل أن ينتزعَ استجابةَ سليم.. ويقرِّرا المضِيَّ في الأمرِ مَعاً...

تَيْمُورُ الخَامِس

في القصر.. وتحديداً في غرفة العشاء.. جلس السيِّد رستُم بِوَقار إلى رأس المائدة.. تُحاذِيهِ عن يمينه زوجته السيِّدة مُنيرة.. يَليها أختاه اللتانِ ترافقانه كلّ عام.. وعن شماله كرسيٌّ فارغ.. يليه السيِّد أدهم سكرتيره الخاصّ..

مَكان تَيْمُور ولا شكّ.. هو على هذا الكرسيِّ الفارغ.. ظلَّ فارغاً ومَحجوزاً له.. وقد وُضِعَ أمامَه وحدَه صحنُ السباغيتي الساخن.. تلك الأكلةُ التي طالما أحبَّها في حياته..

باشرَ الجميع بتناولِ الطعام بإيعازٍ ودعوةٍ من السيِّد.. على أنغام موسيقى فريدريك شوبان..

تحديداً.. ما تُعرَف مَحليَّاً بـ (عالَم آخَر).. من أشهرِ مقطوعاته التي يحبُّها أبو عزيز..

هي بالفعل تليقُ بِهكَذا طقس..

تُستَحضَرُ فيه ذكرى شخصٍ باتَ الآن فعلاً في عالمٍ آخرَ..

وهناك مقطوعةٌ أخرى يَروقُ للسيِّد سماعها في هذه الأمسية.. (الغابة الغامضة).. هي أيضاً لشوبان..

وحدَها المُوسيقى تستطيعُ أن تقولَ كلمَتَها هنا.. وتبوح بما لا يَجرُؤُ أحدٌ على البوحِ بهِ.. وتلخِّص ما حدثَ ببساطة..

(غابةٌ غامضة) أودَتْ بأحدِهِم إلى (عالمٍ آخر).. أحسنتَ صُنعاً يا شوبان..

أمَّا عن الأصوات البَشريَّةِ.. فثَمَّة عبارات مُجامَلة قليلة وكلمات بالكادِ تُنطَقُ كانت مُتداوَلَة على المائدة بين الحاضِرين تجدُ لها مُتَّسَعاً بين المعزوفة والأخرى لتَكسِرَ رَتابةَ الصمتِ وحَرَجه.. ليسَ إلّا....

يَتناولُ الجميعُ عادةً عشاءَهُم.. ثم يُوعِزُ السيِّدُ لسكرتيره بتوزيع هِباتٍ على عُمَّالِ القصر ومُستخدَميه.. ويُخصِّصُ قِسماً إضافياً لمُحتاجي القرية..

يَصعَدُ بعد ذلكَ ليَختليَ بنفسهِ في غرفة تَيْمُور.. الغرفة الخاصَّة!

ليَقضيَ سهرَتَهُ فيها.. ثم يَبيت لليوم التالي ويعود أدراجَه إلى العاصمة مع مَن صاحَبَهُ.. بِمِثلِ ما استُقبِلَ بهِ مِن حَفَاوَةٍ...

يعلمُ سليم ومروان هذه الترتيبات.. لذا فقد سارعا إلى التسلُّلِ والدخول من الباب الخلفيِّ وصعود الدرج الثانويِّ خِلسةً.. وُصُولاً إلى الغرفة المَقصودة..

"هيا وافتح الباب يا سليم.. بسرعة".. أوعَزَ مروان مُخاطِباً سليم الذي كان يتقدَّمُه عند باب الغرفة..

"لا أعلم.. أنا مُتوتِّرٌ يا مروان.. قد يكون من الصواب ألا نفعل.. وأن نعودَ أدراجَنا".. أجابَ سليم وهو يتطلَّعُ يُمنةً ويساراً بِتَوَجُّسٍ.. وبِعينينِ شاخِصَتين..

"ماذا؟ لا بُدَّ وأنَّكَ تَهذي.. ابتعد.. ابتعد".. دَفَعَهُ مروان جانباً.. وفَتحَ الباب بالقدر الذي يَسمَحُ لهُما بالدخولِ تِبَاعاً..

دخلَ هو أولاً بسرعة ثم أمسك بيدِ سليم الذي ظلَّ جامداً يراقبُ في مكانه.. جاذِباً إيَّاهُ إلى الداخل.. وأغلقَ البابَ بهدوء..

وَقَفا بصمتٍ لِثوانٍ بعد أن أصبَحا وسطَ الغرفة يُحاولان استيعاب الموقف..

ها هي أخيراً الغرفة الخاصّة التي يتحدث عنها الجميع ولا يَطَؤُها إلّا بضعة أشخاصٍ لا يتجاوزُ عدَدُهم أصابعَ اليدِ الواحدة..

غرفة (تَيْمُور رستُم فيَّاض).. رحِمَهُ الله..

غرفةٌ واسعة.. سقفُها عالٍ بلا ثريّا.. فطِرازُها على ما يبدو لا يُشبِهُ باقي غرف القصر الكلاسيكية.. طابعُها الشبابيُّ جعلَ مصدرَ إضاءَتها يقتصر على (سبُوتَّات) قويَّة مُوَزَّعة في زوايا الغرفة الأربعة..

تتناثرُ على الجدران لوحاتٌ وصورٌ مُختلفة.. بعضها للاعبي كرة قدم مشهورين.. والبعض الآخر لسيارات سباقٍ مُتعددةُ الأشكالِ والألوان..

وللغرفة نافذتان زجاجيتان كبيرتان تُشرفان على الجبال البعيدة المُطلَّةِ على الغابة.. في مشهدٍ مَهيبٍ يتزامنُ مع غروب الشمس التي لم يبقَ من أثرها إلا شفقٌ وردِيُّ اللون يفصلُ بين حدود الجبال وعتمة السماء..

ولا يقول وداعاً.. بل إلى لقاء يومٍ جديدٍ غداً..

تتوسَّطُ المكان سجادةٌ صغيرةٌ مُلَوَّنة.. تتموضعُ فوقها طاولةٌ زجاجيّةٌ بيضويَّة الشكل.. يبدو أن تَيْمُور ترك عليها دفتر ملاحظاتٍ وقلم.. وهناك أيضاً سمَّاعاتُ أذُنَين إحداهما مُتدَلِّية والأخرى مُنبَسِطة فوقَ سطحِ الطاولة.. أغلبُ الظنِّ أنَّهما هكذا منذُ خمسِ سنين!

على الجانب الأيمن من الغرفة.. وبمُحاذاة النافذة.. سريرٌ كبيرٌ يفترشه غطاءٌ أزرق.. تتبعثرُ فوقه ثلاثُ وسائد ناعَمة من نفس اللون.. وترتمي على طرفه مِنشفةٌ قطنيَّةٌ بيضاء.. جافةٌ تماماً.. ويبدو أنَّها لن تَبْتَلَّ بعدَ الآن..

لوحٌ رقميٌّ مُغلق وُضِعَ على طرفِ أريكةٍ جلديَّةٍ كحليَّة اللون تُجاورُ خزانة المَلابس الكبيرة التي تغطي الحائط الأيسر للغرفة..

لا تُخفي فوضويَّةُ الشباب بَصمَتَها على مَلامح المكان.. لكنه على الأقل يحتفظ بنظافته.. لا غبارَ واضحة كما يُفترَض.. لا شوائبَ ولا حشرات أو بيوت عناكب هنا وهناك.. هي فوضى مَدروسة ونظيفة وثابتة كما لو أنَّها أصبحت نظاماً بحدِّ ذاتها..

يبدو أن السيِّد حريصٌ جداً على إبقاءِ المَشهدِ الأخير للغرفة على حالِه..

لا عَجَبَ أنَّهُ يَستقدِمُ كلَّ عامٍ فريقَ تنظيفٍ خاصّ يأتي برفقة العَم جابر ليَدخُلَ ويُعنى بتنظيفها بما فيها.. وتجديد زهوَتها.. لكن.. بنفس الهيئة..

هي كما كانَت بذات التفاصيل الصغيرة.. هكذا ترَكَ تَيْمُور الغرفة قبل أن يرحلَ بلا عَودَة.. الأمرُ يشبِهُ التقاط صورة تذكارية أخيرة.. كانت مُلوَّنة ومُفعَمة بالحياة.. ثم استحَالت إلى الأبيض والأسود.. لكنَّ المَشهد الذي فيها بقيَ كما هوَ..

أهمُّ ما في الأمر.. تلك التماثيلُ الرُخاميَّةُ الخَمسةُ التي تَصَدَّرت الغرفةَ واستَجَدَّت على مَعالمِ المكان.. خمسةُ مُجسَّماتٍ مُتجاورة اصطفَّتْ في الداخل هي التغيير الوحيد الذي طرأ على المَشهَد منذ وفاة تَيْمُور..

"يا إلهي.. انظر إلى هذه التماثيل الحجريَّة يا سليم.. لقد أفزَعَني مَنظرُها للوهلةِ الأولى.. هي تشبِهُ بعضَها مع القليل من الفروقات"..

هَمَسَ مروان مُقترباً وهو يُدقِّقُ في وجهِ كلِّ تمثال.. ليستنتجَ أخيراً أنَّها لتَيْمُور..

"آه.. هكذا إذاً.. المُجَسَّمُ الذي يُشحَنُ من العاصمة مع موكب السيِّد رستُم هو لتَيْمُور.. أشعرُ أنَّني أمامَ خمسِ جُثثٍ.. ما هذا؟ غرفة أم مشرَحة؟"..

تابعَ مروان بدهشة وقد توسَّعَت حدقتا عينيه وهو يُحملقُ في تقاسيم وجوه التماثيل الأربعة ويتفحَّصُها وقد بدَتْ عليها ملامحُ الرجولة بلحيةٍ يبدو أنَّها نبَتَت حديثاً..

بينما كان التمثالُ الخامسُ مُغطىً بقماشٍ من السَاتان الأسود مُسبَلاً عليه حتى الأرض..

"نعَم إنَّها تماثيلُ سنواتِ تَيْمُور الخمس الفائتة".. تَمْتَمَ سليم مُتَسَمِّراً أمامَها يحاولُ مُطابقة ملامحها مع صور التطبيق الرقميِّ التي كانت بحَوزَته على جوَّاله.. وقد انتابَتْ جسدَه قشعريرةٌ مُفاجِئة.. وأحسَّ ببرودةٍ خفيفة..

ربَّما لأنَّ الغُرفةَ باردةٌ فعلاً لا حياةَ ولا أنفاسَ فيها.. أو لأنَّها تبدو كما قالَ مروان مع هذه التماثيل الجامدة كالمشرحة.. أو لأنَّه أساساً خائفٌ ومُتشنِّجٌ والدمُ لا يكادُ يَجري في عُروقه.. أو هي رهبةُ التواجدِ بين أغراضِ ومقتنياتِ شخصٍ ميِّتٍ..

"ولماذا لا يُسدَل السِتارُ عن تَيْمُور الخامس.. يبدو أن السيِّد رستُم لم يُدَشِّنهُ بعد.. دعنا نرى كيف أصبحت ملامحه هذا العام".. قال مروان وقد همَّ برفعِ الغطاءِ الأسود بِرعونةٍ مِن على التمثال الخامس.. ليقاطعَه سليم بِجزَعٍ ويحاول منعَه..

"ماذا تفعلُ أيُّها الأبله.. هل جُننت؟ لا تلمسْ شيئاً ولا تحرِّك ساكناً هنا..

دعنا نخرج الآن بسلام يا مرواااا..."..

لم يكدْ يُنهي جملته حتى كان الغطاء الساتر مُلقىً على الأرض ليَبرُزَ تَيْمُور الخامس للمَرَّةِ الأولى بين أقرانِهِ.. بعد أن سارعَ مروان للكشفِ عنه بحركةٍ خاطفةٍ مُباغتة دون سابقِ إنذار..

"لم يكن هذا اتفاقنا يا مروان.. ماذا فعلت؟ هيا ولتُعِدْ تغطية التمثال بسرعة ولنغادر"..

"ما بِكَ يا سليم؟ هدِّئ من روعِك يا صاح.. علامَ كلّ هذا التوتر؟

أكادُ أسمعُ ضرباتِ قلبِك وهي تنتفضُ بِجَزَعٍ.. ثم إنَّه تَيْمُور الخامس وليسَ لويس السادس عشر.. مع ذلك.. سنتصوَّرُ سيلفي بجانبه كذكرى على انتصارنا في مغامرتنا الصبيانيَّةِ هذه ونعيدُ تغطيتَه وننصرف.. ما بك؟"..

"نتصوَّر؟ يا لبرودةِ أعصابِكَ واستهتاركَ! اتَّفقنا ألا نَمَسَّ شيئاً هنا.. لكن كانَ عليَّ أن أتوقعَ أنَّكَ تَعِدُ وتخلف".. نَهَرَهُ سليم بعصبيّة..

"حسناً حسناً.. لا تغضب.. سأعيد تغطيته الآن".. أجابَ مروان وهو ينحني ليلتقطَ الغطاء مِن على الأرض.. لكن لسوءِ الحظ.. وفي اللحظة ذاتها سمع الاثنان صوتاً يقتربُ قادماً من المَمَر..

"ما هذا؟ من المُبكرِ جداً قدوم أحدهم.. أسمعُ دعَساتِ قدمٍ يَتعالى صوتُها على الدرج الرئيسيِّ يا سليم.. ما العَملُ الآن؟".. تساءَل مروان وقد تبخَّرَتْ عنجهيَّتُه وتلاشى تباهِيهِ بالجُرأة..

"لا أعلمُ وأنا أيضاً تفاجَأتُ مثلَكَ.. يبدو أنَّ أحدَهم يصعدُ باتجاه الطابق العُلويِّ.. دَعنا نغطي التمثال بعُجالةٍ ونخرج قبل أن يصلَ القادم كائناً من كان".. أجابَ سليم وهو يتلقَّفُ الغطاء الذي أفلته مروان من يده قبل أن يتحرَّك مُسرعاً صوبَ النافذة..

"غَطِّهِ وحدَك.. شريك.. أنا خارجُ هذا الأمر الآن.. يا روح ما بعدك روح.. لا وقت حتى للتفكير.. سأقفزُ من هذه النافذة إلى الحديقة ولتتدبَّر أنتَ أمرَكَ أيضاً.. أراكَ بخير"..

كانت هذه آخر كلمات مروان قبل أن يفتح النافذة ويَتَدَلَّى منها بحذرٍ ثم يقفز بخفَّةٍ مُبتعِداً خارجَ حدودِ دائرةِ الخطر وسطَ ذهولِ سليم الذي باتَ وحده الآن مع خمسِ نُسخٍ من تَيْمُور في انتظار هذا القادم بخطواتِه الثقيلة..

بسرعة البَرق وكيفما اتفق رمى غطاء الساتان الأسود على تَيْمُور الخامس.. ثم فكَّر في أجزاءٍ من الثانية أنْ لا وقتَ كافٍ لدَيه للمغامرة والقفز من النافذة فهو على أيِّ حالٍ ليس ماهراً في أداء هذا الأمر بالسرعة المطلوبة وغيرُ مُعتادٍ عليه كمروان البَهلوان..

"أفٍّ مِنكَ وممَّن انجَرَّ وراءَ أفكارِك يا مروان.. أين سأختبئُ الآن؟".. فكَّرَ سليم وهو يُجري مَسحاً سريعاً بناظِرَيه في زوايا المَكان ليَجِدَ مُتَّسَعاً بين ستائرِ النافذة والجدار يوحي بأنَّه مَلاذُ الأمان الوحيد المُتاح في هذه الورطَةِ الطارِئَة..

وبما أنَّه لا خَيارات أخرى.. هَرَعَ بسرعةٍ لِيندَّسَ بين ثنايا الستارة الكبيرة ويجلس القُرفصاءَ مُحاولاً الانكماشَ قدرَ المُستَطاع وتقليصَ حجمه في الزاوية خلفَها في آليةٍ تلقائيَّةٍ لتحصينِ النَفْس..

بالتزامنِ مع كلِّ هذا كان صوتُ الخطواتِ يَعلو ليصبحَ أقربَ وأكثرَ وضوحاً شيئاً فشيئاً.. حتى تَوَقَّفَ فجأةً!

لِيَعْقُبَ اختفاءَه حركةُ مِقبَضِ الباب نحوَ الأسفل والتي تَشِي بأنَّ أحدَهُم.....

سَيَلِجُ الغرفةَ الآن.....

إقامَةٌ جَبريَّة

لطفُ الأقدارِ وحدَه.. هو الذي حالَ دون افتضاحِ أمرِ سليم ومَكَّنهُ من الاختباءِ في اللحظة الأخيرة التي سَبَقَتْ فَتْحَ الباب.. ويا لَلهَول.. إنَّه السيِّد رستُم بشحمِهِ ولحمِهِ..

كان صعوده ودخوله الغرفة كما الولادة المُبَّكرة.. مخاضٌ سريعٌ مُفاجئٌ أتاحَ الفرصة لِكِلا المُتسَلِّلَين بالتواري عن النظر.. قبل أن يَلِجَ سيادَتُه الغرفةَ..

"يا إلهي.. إنَّه هو.. السيِّد.. بعد أن اعتَدتُ أن تفصلني عنه أمتار من الخوف والمَهابة.. بعد أن كنتُ أخشى رفعَ ناظريَّ إليه.. هو الآنَ أمامي في هذه الغرفة..

عليَّ أن أحبسَ أنفاسي لئَلا يتنبَّهَ لوجودي.. ستكون أكبر كارثة إن افتُضِحَ أمري".. فكَّرَ سليم وهو يراقب الوضعَ بِتَوَجُّسٍ..

وقفَ السيِّد قبالة التماثيل وهو يُنَقِّلُ ناظرَيه بحزنٍ فيما بينها إلى أن وصلَ إلى التمثال الخامس.. جَذَبَ عنه غطاء الساتان الأسود بهدوء.. رماهُ أرضاً.. واقترب يُدقِّقُ النظر في ملامح وجهه الرُخاميَّة..

تَحسَّسَهُ بلطفٍ.. وهمسَ في أذنِه:

"وَلَدي الغالي..

كم أفتقدُك يا تَيْمُور!!!

اشتقتُ إليك كثيراً..

كلُّ عامٍ وأنتَ بخير يا وَلَدي..

ها قد كبِرَتْ مَلامِحُك عاماً لتزدادَ وسامةً ورجولةً.. لحيَتُكَ هذا العام أجمل..

أترى؟ هذه غرفتك على حالها.. كما كانت.. كما تَركتَها أنت عشيَّة العاشرِ من أيلول منذ خمسِ سنوات.. رحلتَ دونَ وداعٍ يا وَلَدي.. دونَ أيِّ وداع..

دونَ أن أُشبِعَ ناظِرَيَّ بملامحك الحيَّة..

كانَت ولادَتُكَ في مثلِ اليوم.. سبعة عشرَ عاماً أودَعْتَ فيها سعادة الدنيا في قلبي.. ثم انتزَعْتَها معكَ برحيلك المُؤلم..

تَيْمُور.. اشتقتُ لصوتك يُناديني يا وَلَدي"..

قال السيِّد بصوتٍ تُقَطِّعُهُ غصَّة وحشرجة.. ثم أجهشَ بالبكاء مُتَّكِئاً إلى قاعدة التمثال الرُخاميِّ الخامس..

سقطَ وَقْعُ هذه الكلمات كالصاعقةِ على قلبِ سليم الذي كادَ ينفطرُ من شدَّةِ التعاطف..

السيِّد رستُم فيَّاض على سنّ ورمح..

أبو عزيز بجلالةِ قدرِهِ..

كبيرُ أكابرِ هذه القرية.. ورجلُ أعَمالٍ من الطرازِ الرفيع وعلمٌ من أعلام التجارة والاقتصاد في العاصمة.. بِجَبَروتِهِ وهَيبَتِهِ التي تجعل كلَّ من حوله يقفُ على قدمٍ واحدة.. وقالَبُ وجهِهِ المُتَصلِّبِ بِملامِحِهِ الصارمة.. يبكي هنا كالطفل بصوتٍ عالٍ.. بعد هذه المُناجاة المُؤلمة..

"أكادُ أجزمُ أنَّه إن اكتُشفَ أمريَ الآن لأصبحت في خبر كانَ..

دون أن يُقام لي حتى ربعُ نصبٍ تذكاريٍّ كالذي لتَيْمُور هنا"..

فَكَّرَ سليم وهو يتابعُ مُراقبة ما يجري في ذُهول..

أرخَى السيِّد ربطة عنقه في محاولةٍ بائسةٍ لتحرير أنفاسِه المَخنوقة.. ورفَعَ رأسَه بِوجهِهِ المُحمَّرِ مِن شدَّة الانفعال.. لينظرَ مُجدَّداً إلى وجه التمثال..

"ليتني على الأقل عثرتُ لكَ على جثمان.. ليتني شيَّدتُ لكَ قبراً أزوره باستمرار وأعلمُ أنَّكَ تَرقُدُ فيه..

هجرتُ قصريَ هذا الذي كان أحبَّ الأماكنِ إلى قلبي.. لأنَّني لم أعُدْ احتملُ خُلُوَّهُ منكَ.. من أنفاسِكَ.. من نبرةِ صوتِك يُجَلجِلُ بِصَخَبٍ هنا وهناك..

أزورُ غرفتَكَ هذه كلَّ عامٍ في يوم ميلادك.. لأتَخيَّلَ وجودَك فيها كما لو أنَّكَ لمْ تَرحَل..

ليتني على الأقلّ عثرتُ على قلادَتِك المُفضَّلة التي لم تكن تغادِرُ عنقك ولو للحظة.. ليتني وجدتها بعد فِقدانِكَ لأزَيِّنَ بها تمثالَك كلَّ عام.. أدفعُ الملايين لِمَن يأتِني بها.. لأشتَّمَ رائحةَ شيءٍ منك..

حقيبتُك الرياضية تُرافقني في كلِّ تَحرُّكاتي.. أمتعتُك المُفضَّلة ومُقتنياتك الغالية لا يقتربُ منها ولا يمَسُّها أحد..

لحقتَ بِشَقيقِكَ عزيز وغِبتُما باكراً دونَ قبور.. ما هذا الفِقدان الذي لا يُخفِّفُ من وَطأتِهِ عزاءُ زيارةِ قبرَيكما!"..

شعرَ السيِّد بشيءٍ من الإعيَاء من شدِّة الانفعال فجلسَ على الأريكة الجلديَّة القريبة من التمثال.. حاصراً رأسَه بين كفَّيهِ.. يُحاولُ عَبَثاً الإطبَاقَ على الأفكار السوداء التي ما انفَكَّتْ تتحرَّشُ بذاكرتِه..

لحُسنِ الحظ.. لم تتأخر السيِّدة أم عزيز.. فسرعانَ ما لحِقت به ودخلت الغرفةَ وراءَه وفي يَدِها حبَّةُ دواءٍ وكوبُ ماء..

"كالعادة.. تهملُ تناولَ دوائِك قبل العشاء فتُؤَرِّقُك حرقة المَعدة حتى الصباح.. هاك دواءَك رستُم.. يجب أن تنتبه أكثر لصحتك.. ثم لماذا صعدتَ إلى الغرفة باكِراً ولم تكمل عشاءَك؟".. تساءَلت السيِّدة أم عزيز وهي تُمرِّرُ حبَّة الدواء لزوجها مع كوب الماء..

"لا أدري.. لكن شعرتُ بتوعُّكٍ في معدتي.. وفقَدّتُ شهيَّتي.. وضاقَ صدري فجأة.. فسارعتُ بالاعتذار من الجميع والانسحابِ إلى هنا..

آآآآه يا مُنيرة.. ليتها حرقة معدةٍ فحسب.. حرقةُ القلب التي أعاني منها أكبر وأشدُّ إيلاماً".. أجابَ السيِّد وهو يتجرَّع دواءَه بِبطء..

"متى ستكفُّ عن جلدِ نفسِك بهذه الطريقة يا رستُم؟ أين إيمانُك؟ أتظنُّ بأنَّني أقل حزناً منك على فراق ولدَيْنا؟ أنا لم أنسَ عزيز كي أنسى تَيْمُور..

لكنها مَشيئةُ الله.. ولا اعتراض..

إن كانَ ثمَّة ندمٍ أو حزنٍ على شيء فهو الندمُ على أنَّني لم أعزِّز فيه نزعَة عَملِ الخير بالقدر الذي ينفعُه بعد مَمَاتِه.. ونسيتُ أنَّ سِعَة القبورِ أهمُّ من سِعَةِ القُصور..

كنت أظنُّ أنَّه لا زالَ صغيراً وأنَّ لديه مُتَّسَعاً من العُمر.. قلت لنفسي فليأخذ وقتَه الآن وليُمضِ شبابَه في إشباع رغبته باللهو والتسلية والسياحة..

هو شابٌّ صغير.. وسيعوِّضُ لاحقاً ما قد يفوته من عبادةٍ وطاعاتٍ وعَمل خير.. لكن فاتني أن لا ضامنَ للعُمر.. ولا أحدَ يعلمُ عدد ما تبقَّى له من أنفاس..

انظر الآن لما جَرَّهُ علينا تساهُلُنا مع انسياقه وراءَ وسائل التواصل الاجتماعي.. وإدمانه الإنترنت.. ألم يقتله العالم الافتراضي وتحدِّياته الشيطانية المَريضة؟؟؟

يلهثُ شبابُ اليوم وراء تحديَّاتٍ افتراضيَّة مُهلِكة.. ويهجرُ واقعاً حقيقياً هو رأسمال الدنيا والآخرة..

ليتني شجَّعته أكثرَ على زيادة رصيده فيما قد يُعينه الآن وهو بين يدَيِّ الله..

فهذا أهمُّ وأكثرُ إثراءً من رصيد عدد مُتابعيهِ.. أو رصيده البَنكِيِّ..

حسابُه المَصرفيّ على أيَّ حالٍ لا قيمة له الآن إلا بالقدر الذي أُنفِقَ منه على الخيرات..

نصحتُك مِراراً يا رستُم.. كفَّ عن إنفاقِ أموالِك في هذه الطقوس التي لا تزيدُكَ إلا إيلامَاً.. ولا تَجُرُّ نفعاً لِولَدِنا.. أنا أُجَاريكَ في هذا الأمر لعلك ترتاح.. لكنكَ عاماً بعد عام.. تُوغِلُ في ممارسة أمورٍ تجلبُ لك الشقاء.. علاوةً على نظرة الناس لكَ التي بَاتت مَشُوبةً بالريبة والاستهجان.. هَدَاكَ الله وأراحَ قلبَك"..

"أنا لا أستطيعُ أن أترك هذا اليوم فارغاً يمرُّ هكذا يا مُنيرة.. في هذا اليوم بالذات أريد أن أشغل تفكيري بممارساتٍ تتعلَّقُ كلُّها بولدي وأتخيَّلُ أنَّه لم يَمُتْ.. عسى أن تغلبَ ذكرى ميلاد تَيْمُور ذكرى وفاتَه".. قال السيِّد بنَزَقٍ يصاحِبُهُ اليأس..

"لن يغلبَ حزنَكَ وشيطانَكَ إلا تقرُّبُكَ من الله.. أموالُ الدنيا كلُّها تعجزُ عن شراء السلام الداخليِّ.. وإدخال الطمأنينةِ إلى قلبك..

هذا القلب المُنْهَكُ لن ينفضَ الغبارَ عنه إلا اليقينُ والإيمانُ بالقضاء والقدر وبأنَّنا جئنا إلى هذه الدنيا أساساً زوَّار.. وابنُنا لم يذهب.. بل رجعَ إلى حيث سنرجعُ كلُّنا.. ولعلَّ لقاءَنا بهِ قريب..

لكن جَبَرُوتَك يا رستُم وأموالَك الطائلة أوهَمَتْكَ أنَّك تستطيعُ تحريك حجارةِ لعبةِ الدنيا كما تَشاء.. في حين أنَّنا كلنا هنا بكبيرنا وصغيرنا نتحرَّكُ بمَشيئةِ الله التي لا تصمُد أمامَها مشيئةُ البشرِ مَهما تَطَاوَلوا.. وهذا ما يدفعُك للغضب وإنكار الواقع ورفضِه بَدلاً مِن تَقبُّلِهِ والتعايشِ معه"..

أفرغت مُنيرة مكنوناتها وعيونها تغرغرُ بالدمع وهي تجلس على طرف الأريكة واضعةً يدها على صدر زوجها لدى حديثها عن قلبه..

أطرقَ الرجلُ رأسَه نحو الأرض..

هو في قرارةِ نفسه يُدرِكُ صدقَ كلِّ كلمةٍ قالتها زوجَتُه.. لكن شيطان نفسه يُسَوِّلُ له مُعاندة القدر وعدم الرضا به.. فيكابرُ على الاعتراف بالخطأ..

"ما هذا؟ من تَرَكَ شبَّاكَ الغرفة مَفتوحاً هكذا؟ ".. صرخ السيِّد فجأة وانتفضَ بغضبٍ.. بعد أن لاحظ للتَّو وفي خِضَمِّ حديثِهما أنَّ النافذة التي قفزَ من خلالها مروان ولم يُسعفه الوقت لإغلاقها خلفَهُ.. مفتوحة..

استشاطَ غضباً من الأمر.. وهو الذي ما انفكَّ يأمرُ بإبقاء النوافذ مُوصدةً.. لئَلا يلتهمَ الغبارُ نضارة ملامح الغرفة..

لطالما شدَّدَ على مُراقبة الأمر.. وهدَّدَ بعقوباتٍ صارمة بحقِّ من يخالف قوانين هذه الغرفة بشكلٍ خاصّ..

"من هي الفتاة المَعنيَّةُ بضبطِ أمور الغرفة وترتيباتها يا مُنيرة؟

أنهي خدمَتها على الفور بدون مُساوَمة.. أنا لا أتهاونُ أبداً ولا أتسامحُ في هذا الشأن".. عَلا صوتُ السيِّد رستُم وهو يُعيد إغلاق النافذة بسرعةٍ وبتوتر..

"مهلاً يا رستُم.. فلننظر في الأمر.. لا تَدخلُ الفتيات هذه الغرفةَ أبداً.. غير أنَّ نَغَم على ما أعتقد هي المسؤولة عن التأكد من بقاء النوافذ مُغلقة ومُراقبتها من الخارج.. سأستدعي أمَّ سليم لأفهمَ مِنها مَن تسبَّبَ في هذا الإهمال"...

"لا نِقاشَ في هذا الأمر.. لقد أفسَدَتْ أمسيَتي بسببِ إهمالِها هذا.. جِدِي ليَ الفتاةَ المسؤولة.. وأنهي خدمتها على الفَور يا مُنيرة.. مفهوم؟"..

كانت هذه آخر كلمات السيِّد رستُم قبل مغادرته الغرفة غاضباً..

أما سليم فقد أُسْقِطَ في يدهِ وارتَعدَتْ فرائِصُهُ مما كانَ شاهداً عليه قبل قليلٍ في إقامَتِهِ الجَبريَّةِ تِلك..

"يا إلهي.. أقامَ السيِّد الدُنيا ولم يُقعِدْها فقط لأنَّ النافذةَ كانت مفتوحة..

ماذا سيفعلُ إذاً إن اكتشَفَ أمريَ الآن؟

وهل ستستدعي السيِّدة مُنيرة أميّ لهذا الأمر؟ ما هذه الورطة التي أقحمتُ نفسيَ فيها؟

ثم إنَّه ذنبُ مروان السَفيه.. هو من فتحَ النافذةَ ولم يُغلِقْها خلفه.. لكنَّني لا أملكُ الآن توضيحَ أيِّ شيء.. أسألُ الله أن يُخرجَنا مِن هذا المأزق بسرعة وبلا ضرر.. وألا أبيتَ ليلتي مُنكمِشاً خلفَ الستارةِ هنا".. فَكَّرَ سليم وهو يراقبُ تَتَابُعَ الأحداثِ.. وقد تَمَلَّكَهُ الجَزَعُ..

كانت أمُّ سليم قد سَمِعَتْ صراخَ السيِّد وفَزَّتْ من مكانِها مُسرِعةً صوبَ الغرفة دونَ أن تنتظرَ استدعاءَ السيِّدة مُنيرة لها..

"خير يا سيِّدة أم عزيز.. هل حدثَ مكروهٌ لا سمحَ الله؟".. تساءَلت أمُّ سليم وهي تلتقطُ أنفاسَها بعد صعودِها السريع على الدرج وصولاً إلى الغرفة التي كان بابُها مفتوحاً.. ودخلت وهي تَستَرقُ النظر عَفويَّاً إلى مَوجوداتِ المكان وتماثيلِه..

قَطَّبَت السيِّدةُ حاجِبَيها ونظرَتْ بِحِدَّة إلى أمِّ سليمٍ مُعاتِبةً إيَّاها..

"ألم أخبركِ أنَّ هذه الغرفةَ خطٌّ أحمرٌ يا نعيمة؟

لا يَحتملُ الوضعُ ربعَ خَطَإٍ عندما يتَعلَّقُ الأمرُ بها.. ها قد انفجرَ أبو عزيز غاضباً عندما رأى النافذةَ مفتوحةً.. وهو مُصِرٌّ على معرفة المسؤول عن هذا التقصير ومعاقبته.. نَعَم هي من أوكَلْنا إليها مراقبة وضع النوافذ من الخارج على ما أذكر.. أليسَ كذلك؟"..

"نعَم يا سيِّدتي.. نَعَم تراقبُ النوافذَ من الخارج جِيئة وذهاباً كلَّما أفرَغَتْ مُهملات المطبخ في مكبِّ الحديقة.. عيناها لا تَسهُوان عن تَفقُّدِ النوافذ حتى باتتْ عادةً مُتأصِّلَةً عندها..

اليوم تحديداً وقبل العشاء دخلَتْ إلى المطبخ بعد إتمامِها وزينة توضيبَ المائدة وأخبرَتْني أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام.. وكيف أن نوافذ الغرفة بقيَت مُوصَدة بإحكامٍ كما كانت بعد دخول الشباب إليها ثم مُغادرتهم.. لم يَطأ أحدٌ غيرهم الغرفة اليوم.. نقلوا المُجسَّمَ الذي كان في السيارة عند الظهيرة.. وضَعُوهُ وخَرَجوا مع جابر.. كان كلُّ شيءٍ على ما يرام.. لا أعلمُ ما الذي فتَحَ النافذةَ لاحقاً وكيف!"...

"حسناً.. سنرى غداً ما يَؤول إليه الأمر.. أسألُ الله أن يستيقظ أبو عزيز بمزاجٍ جيدٍ.. وأن يَغضَّ الطرفَ عَما جرى ويعتبرَه هَفوَةً عابرة ولن تتكرَّر.. لا يُطاوعُني قلبي أن يُقطَعَ رزقُ أحدٍ هنا.. وتعلمين أنَّني اعتبركم أهل.. لكن أخشى أن يُصِرَّ السيِّدُ على إنهاء خدمتها يا نعيمة"..

كَمَّمَتْ أمُّ سليمٍ فَمَها بِكَفِّها في إشارةٍ عفويَّةٍ إلى صدمَتِها ثم أرْخَتْها قائلةً:

"لا قدَّر الله.. هي فتاةٌ مسكينةٌ يا سيِّدتي.. صدقيني"..

"سنرى يا نعيمة.. سنرى"..

أجابَتْ السيِّدة وهي تُشيرُ بِيَدِها إلى أمِّ سليم بالانصراف.. ثم أطفَأتْ الأنوار وأغلَقَتْ البابَ خلْفَها على سليم والتماثيلِ الخمسة...

كان عليه أن ينتظرَ مُطوَّلاً قبل أن يُلملِمَ القصرُ تَبِعات ما حدث.. ويهدأَ ضجيجُه.. ويَخلد كلُّ مَن فيه إلى النوم..

بدأت الأصوات في الداخل تَخبو شيئاً فشيئاً.. وأُطفِئت الأنوار تدريجيَّاً..

حتى خارجَ القصر لم يَعُدْ يُسمَعُ إلا حفيفُ الأشجار.. ونقيقُ ضفادع أحواضِ النوافير.. ونباحُ كلابِ الحراسة بين الحينِ والآخر..

هذا الهدوء المُنتظَر كان فرصةً لسليم كي يُسارع بالتسلُّلِ خِلسةً والهروب إلى الباحة الخلفيَّة للحديقة..

لكنَّه وقبل أن يهمَّ بالخروج شعر برغبةٍ عارمة بالجلوس على الأريكة الجلديَّة قرب التماثيل.. ليستَحضِرَ شريط الحوار الذي سمِعَه للتوّ..

أرخَى جسدَهُ المُتشنِّج على الأريكة.. فَرَدَ ذراعيه ومدَّ ساقَيهِ المُتَقلِّصَتَين كما لو أنَّهُ مُالكُ هذه الغرفة.. وسرَحَ ينظرُ إلى تَيْمُور الخامس وقد انسَلَّتْ حزمةُ إضاءةٍ

خفيفة من عَمود الإنارة القريب الذي في الحديقة لتسقطَ عبر النافذة على وجه التمثال فيبدوَ كصورة من صور الفلاسفة الإغريق التي كانت توضع في كتب التاريخ المدرسيَّة..

"كم هو غريبٌ هذا الـ ... أبو عزيز!!

توليفةٌ عجيبة بين الخير والشر.. القوة والضعف.. الطيبة والقسوة..

تارةً يبكي كالطفل العاجز.. وتارةً يزأرُ كالأسد الجريح..

بحَّةُ صوتِه الحزين في أولى كلماته وهو يقول (وَلدي الغَالي) ستجد لها مكاناً ولا بدّ في القرص الصلب لذاكرتي الدائمة..

هو يبدو مُتكبِّراً.. مُتعجرفاً.. ومُتعالياً حتى على الفطرة..

لكنَّني أكادُ أجزمُ أنَّ شعرةً رفيعةً تفصله عن العودةِ مُجدَّداً إلى حضن التواضع والإيمان والتسليم..

يبدو أنَّ صَدْمَتَه.. بل صَدمَتَيهِ بوَلَدَيهِ.. جَعَلَتاهُ يَحيدُ عن جادَّةِ الصَواب.. ويتَمرَّدُ بسَخَطٍ على بديهيَّاتِ الرضا بالقضاء والقدر.. لكنَّه سيصحو يوماً ما ولا شكّ.. وأغلب الظن أن السيِّدة مُنيرة ستكون مفتاح هذه الصحوَة..

هي امرأةٌ بألف امرأة.. من الطراز الرفيع الصبور المُتَزيِّنِ بالإيمان..

تملكُ الدنيا.. ولا تَملِكُها الدنيا..

لا شكَّ أن رجلاً يعيش مع امرأةٍ مثلُها.. لن يغلبَهُ البؤس أبداً...

ليتني أستطيعُ فعلَ شيءٍ يجلبُ الراحة لهما.. ليتني أجدُ وسيلةً لأردَّ شيئاً من عطايا السيِّد لنا..

مسكينٌ أنتَ يا مروان.. ذنبُ نَغَم في رقبتكَ.. مؤكدٌ أنَّك تشربُ الآن سيجارتك الثالثة مُعتقداً أنَّكَ نجَوتَ بِحذاقَتِكَ.. بينما أتلقَّى أنا هُنا درساً عظيماً في الحياة"...

فَكَّرَ سليم قبل أن ينهضَ بجسَدِهِ المُتثاقلِ ويجدَ له طريقاً إلى الخارج وسطَ عتمةِ المَكان..

رافَقَتكُم السَلامَة

أشرَقَتْ شمسُ صباحِ اليوم التالي دافئةً.. تُرافقُها نسَمَاتُ هواءٍ عليلة..

إنَّه طقس الثامن من آذار.. تتناوبُ فيه الشمس مع الغيوم صَدارةَ السماء..

ربيعٌ رائعٌ ذاك الذي تختبره قرية المغارة العتيقة في مثل هذا الوقت من السَنة..

وصباحٌ هادئٌ اليوم لم يُعَكِّر صَفْوَهُ إلا مفاوضاتٌ يائسة تدور هنا وهناك.. في كواليس مشهدِ الأمسِ حول مصير نَغَم المسكينة..

استيقظَ سليم مُتأخراً هذا الصباح على صوتِ أمِّهِ وهي تتحدَّثُ مع شقيقتِه ريم في مَطبخِ منزلهم الصغير المُتاخِم للقصر..

"آه كم أنا حزينةٌ على تلك المسكينة.. ظلَّت تبكي وتخبرُ السيِّدة مُنيرة صباحاً أنَّها تأكَّدَتْ بأمِّ عَينَيها أنَّ النافذتين مُغلقتان بعد مغادرةِ مَن كان في الغرفة..

صدَّقَتْها السيِّدة ورَبَتَتْ على كتِفِها وتعاطفت معها.. لكنَّ السيِّد رستُم مُصِرٌّ على إنهاء خدمتها..

أحياناً أشعر أن عناده يُغرِق قلبَه بالقسوة فيتَفشَّشُ بأحدِهم لمُجرَّدِ التفريغ".. همَسَتْ أمُّ سليم باستياء.. وهي تُحضِّرُ طعامَ الفطور الثاني لمَن لم يستيقظ بَعد وتسكبُ الشاي الساخن تَعلوهُ سحابةُ بخارٍ مُتصاعدة يَلفُّها شعاع الشمس الضارب بلطفٍ على صينيَّة الفطور في المطبخ..

"لا أتصوَّر أن تغادرنا نَغَم يا أمي.. هي نِعْم الصديقة.. وتقوم بعَملها على أكمل وجه بِلا تَأفُّفٍ أو تذمر".. قالت ريم بحسرة..

نهضَ سليم من فراشه وأدرك أن مُجريات الأمس لم تكن كابوساً..

على وقع حديث أمِّه مع ريم استحضرَ ما جرى بالحرف.. وعاد الوُجومُ ليُغلِفَ وجهَهُ..

"الفطور الثاني لفئة الكسالى.. (شمسك عالية اليوم يا أبو السلُم)..

خير؟ أنت لم تَعْتَدْ النوم لهذا الوقت المُتأخر يا أخي.. هل تشعر بالتعب؟

هل من خَطبٍ ما؟".. سألتْ ريم بقلقٍ وتغيَّرتْ نَبرَةُ صوتِها بعد أن لاحظتْ علامات عدم الارتياح باديةً على وجهِ شقيقِها..

"لا.. لا تقلقي يا ريم.. ما مِن شرٍّ.. أطلْتُ السهرَ الليلة الماضية وهو بعض الإرهاق من عَملِ الأمس.. ويبدو أنَّني جائعٌ أيضاً".. أجابَ سليم مُبتسماً وهو يختَطِفَ قِطعةَ جبنٍ من صينيَّةِ الفطور التي تحمِلها ريم..

"صحيح.. جاء مروان في الصباح الباكر وسألَ عنكَ.. قلت له أنَّك نائمٌ.. فانصرف.. ولكن يبدو أن في فمِه كلام.. كما أنَّ قدَمَه كانت مُصابة.. ساقه مُضمَّدة وملفوفة فيما يبدو أنَّه جرحٌ ما.. سألتُهُ فقال أنَّه اصطدم بنتوءٍ خشبيٍّ في سور الإسطبل وأنَّها إصابةٌ خفيفة..

هيا فلتغسل وجهَكَ الشاحب هذا وتعالَ لتناولِ فطورك.. عسى أن تستعيدَ نضارَتَك مُجدَّداً"... قالت ريم وهي تضعُ صينيَّة الفطور على طاولة غرفة المَعيشة..

أنهى سليم مراسِمَ الاستيقاظ والفطور وهو يفكِّر بمصير نَغَم.. يغالبُه الشعور بالذنب.. هو يعلم حقيقة ما حدث لكنَّه لا يستطيع البوحَ بشيء.. فما تورَّطَ به هو ومروان حريٌّ بأن يُلقي بأسرتِهِ خارج القصر..

"عليَّ فعلُ شيءٍ لأكفِّرَ عن خطيئَتي.. يا إلهي.. كيف نسمحُ أن تحملَ هذه الفتاة المسكينة وِزْرَ ما اقترفناه؟ لكن من جهةٍ أخرى لو تكلَّمتُ سأدمِّرُ مصيرَ أسرَتي..

سأستشيرُ العَم جابر وأطلبُ عونَه في هذا الأمر.. لكن حتى العَم جابر لا يمكنني ائتمانه على هذا السرّ.. فإخلاصه في عَمله يحتِّمُ عليه إبلاغ السيِّد بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ بأمانة.. لن يستطيع التغاضيَ ولن يجد بُدَّاً من ضرورة إخباره.. لا لا.. لن أضعَه في هذا المأزق أبداً..

لكن ما ذنب نَغَم؟ لن أدَعَها تدفع ثمنَ ذنبٍ لم تقترفه.. عليَّ أن أتحمَّل مسؤوليَّة تصرفاتي كالرجال".. فكَّر سليم وهو ينتعلُ حذاءَه خارجاً صوبَ الحديقة ليساعد والده في العَمل كالمُعتاد..

في هذه الأثناء كان السيِّد رستُم وصحبه يعدُّونَ العِدَّةَ للانطلاق إلى العاصمة..

بعد أن ألقى نظرةَ اطمئنانٍ أخيرة على الغرفة الخاصَّة.. شرعَ وزوجته السيِّدة مُنيرة بارتداء ثيابهما وقامت أمُّ عزيز بتوضيب حقيبة يدٍّ صغيرةٍ تضع فيها مُستلزماتهما الشخصيَّة لرحلةٍ قصيرةٍ كهذه.. ولم ينسَ السيِّد حتماً الحقيبة الرياضيَّة البرتقاليَّة أيضاً..

"كلُّ شيءٍ جاهزٌ يا عزيزي.. علينا أن نكون في العاصمة مساءً.. فلدينا موعدٌ مع طبيب المَعِدة كما تعلم"..

"أجل أجل.. أذكر المَوعد يا مُنيرة.. اعقدي لي ربطة العنق كَي لا نتأخر.. فإن تركتِ أمرَها لي سيحلُّ المساء قبل أن أعقدها".. قال السيِّد تَيْمُور مُخاطِباً زوجته بشيءٍ من التودُّدِ فيما يبدو أنَّه مزاجٌ حسنٌ اليوم..

انتهزت السيِّدة مُنيرة فرصةَ اعتدالِ مزاجِ زوجها ودَنَتْ منه بهدوءٍ لتعقدَ ربطة العنق بتلكُؤٍ مُتعمَّدٍ وتهمسَ في أذنه بضعَ كلماتٍ في محاولةٍ أخيرةٍ لاستجدائه وإنقاذ ما يمكن إنقاذه..

"ألن تخزي الشيطان يا أبو العزّ؟

لا تجعل قلبَك الطيِّبَ هذا أسوداً واعفُ عن تلك المسكينة.. هيَ فتاةٌ صغيرةٌ مُخلصة وصادقة بشهادة الجميع.. ثم إنَّها تُصِرُّ على أنَّ النافذة كانت مُغلقةً خلال فترة تفقُّدِها إيَّاها.. لا نعلمُ ما حدث بعد ذلك.. لكنَّها قد تكون مَظلومة.. لا أريدُكَ أن تحمِلَ وِزْرَ ظلمِها يا رستُم..

يكفينا ما حدثَ منذُ عقودٍ مع أمِّ جَمال وكوابيسِها التي تُلاحِقُكَ بين الحينِ والآخر.. الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامة.. ولا طاقةَ لنا بتبِعاتِ دعوةِ مَظلومٍ أخرى.. لا يَردُّها اللهُ لهُ"..

"حسناً الآن.. لقد تأخرنا.. أدهم ينتظرنا مع البقيَّة في الأسفل منذ نصف ساعة.. سأسبقكِ أنا.. وأرسلُ أبا سليم ليحمل الأمتعة إلى السيارة.. لكن لا تتأخري أكثر"..

تملَّصَ السيِّد من بين يَدَيّ أمِّ عزيز كما الشعرةِ من العجين وانصرفَ مُتجاهِلاً عرضَها فيما يبدو أنَّه رفضٌ ولكن بِكَياسة..

من جهةٍ أخرى أنهى سليم وشقيقه ياسر تنظيفَ الحديقة.. ثم عرَّج على شجرة السنديان ليأخذَ قِسطاً من الراحةِ والتفكير..

في طريقه إلى هناك صادَفَه جهاد مسؤول الإسطبل والمُشرف على عَمل كلٍّ من مروان وأمجد..

"أهلاً سليم.. كيف حالك؟"..

"بخير والحمد لله.. كيف حالكَ أنتَ يا جهاد؟"..

"الحمد لله.. كنت أريدُ أن أسألَكَ عن إصابة مروان.. أعلم أنَّكما تترافقان وبينكما صُحبَة.. هو يزعُم أنَّ ساقه أصيبت إثر اصطدامه بنتوءٍ خشبيٍّ في سور الإسطبل.. لكن هذا هراء.. فلا نتوء هنا بهذه الخطورة.. ما الذي حدثَ مساءَ أمس؟ أخبِرني.. لا أراكُما على ما يُرام.. وأخشى أنَّ في الأمر مَكروه"..

"لاااا.. أيُّ مَكرُوه؟ لا شيءَ من هذا القبيل يا جهاد.. على كلِّ حال مروان لم يَعُدْ مُقرَّباً منِّي.. على الأقل ليس بعدَ الآن.. هو يفرضُ نفسه عليَّ وأنا لن أجامِلَهُ مُجَدَّداً"..

"اسمع يا سليم.. لا أحبُّ أن أغتابَ أحداً.. لكن من قبيل الحِرص عليك أُحذِّركَ من صُحبة هذا المُشاغب.. أنتما لا تُشبهان بعضَكُما البعض.. الكلُّ يعلم أنَّكَ مؤدَّبٌ.. مُثابر.. ومُثقف.. تُمضي وقتَك بعد العَمل بين قراءةِ الكتب وبين شَغَفِكَ في استكشافِ تطبيقات التكنولوجيا الرقميَّة والدراسة على الإنترنت..

في حين يُمضي مروان وقتَه في التَسكُّع واللعبِ واللهو وإثارة المشاكل وإزعاج الآخرين.. انظر فقط إلى جوَّاله.. صور وفيديوهات مُشينَة.. وتطبيقات ألعاب لا تجلبُ إلا التوتُّر والعصبيَّة لا نفعَ لها.. حياتُه مَسارُها واضحٌ عنوانه التفاهة والأنانيَّة..

ما علينا الآن.. سأذهبُ لمُشاركةِ الآخَرين في وداعِ السيِّد رستُم.. ألن تأتي؟"..

"لا.. لديَّ ما يَشغَلني.. أبي هناك في وداعه.. وأنا سأمرُّ على العَم جابر ما أن يسافر السيِّد".. أجابَ سليم وقد أمطَرَهُ مروان باتصالاتِه المُتواصِلة على الجوَّال في محاولةٍ لاسترضائِه دونَ جَدوى..

كان الجميع في انتظار مغادرة مَوكب السيِّد رستُم الذي ما إن اتَّجَه صوبَ سيارته حتى وقف بشكلٍ مفاجئ مُستنِداً إلى بابها المفتوح وكأنَّه تذكَّر شيئاً مُهمَّاً للتَّو..

استدارَ تِجاه العَم جابر الذي كان يُلازمه حتى آخر لحظة.. وهمسَ في أذنه:

"لا تُنهِ خدمة نَغَم يا جابر.. فلتبقَ على رأسِ عَملها.. ولننسَ الأمر"..

انفرَجَتْ أساريرُ العَم جابر وغَمَرَتْهُ الفرحة..

"باركَ الله بكَ يا سيِّد رستُم.. كان هذا عَشَمُنا فيك.. حَفِظَكَ الله"..

رفعَ السيِّد رستُم رأسَهُ هُنَيهةً إلى السماء قبل أن يأخذ مكانَه إلى جانب زوجته في السيارة.. ولسانُ حالِه يقول:

"لا أريدُ أن أظلمَ أحداً بعدَ الآن يا الله..

أنهَكَني البعدُ عنك وتراجعتُ عن قراري تقرُّباً منكَ..

لعلِّي بعَملي هذا أجدُ الراحةَ لقلبي المُتعَب"...

صِناعةُ الرجَال

وأخيراً.. عادَتْ المياهُ إلى مَجاريها.. وعادَ رتْمُ الحياة الهادئ المُريح المُطمَئنُّ ليُخيِّمَ على أنحاء القصر بمَن فيه من عَمالة..

غادَر السيِّد مع الوفدِ المُرافق له.. ووُدِّعَ بمِثلِ ما استُقبِل به من حَفاوة..

تنفَّسَ الجميعُ الصُعدَاء... واستبشروا بعطلةٍ طويلةٍ حتى السابع من آذار المُقبل..

مروان بدورِه لم يدَّخِر فرصةً للانفرادِ بسليم.. كان يريد تمريرَ تبريراتٍ جَوفاء عن خيانة الأمس.. ظلَّ يتحيَّن الظروف للحديث معه جانباً.. لكن سليم كان يُوصد باب الصُلح في وجهه..

هو في قَرارة نفسه يريد التخلُّصَ أصلاً من صحبته الفاسدة ولعلَّ ما حدث بالأمس كان ذريعةً له على طبقٍ من ذهب..

توجَّهَ سليم صوبَ البوَّابة بقصدِ لقاء العَم جابر وكان يَنوي الاعتراف بكلِّ ما قد يُبرِّئُ نَغَم.. هو لمْ ولا يستطيع التعايشَ مع حالة تأنيب الضمير التي انتابته.. يريد التصالحَ مع نفسه ليرتاح.. مهما كان الثمنُ غالياً..

وصل إلى حجرة الحراسة عند البوَّابة فوجد عامر جالساً إلى النافذة يتواصل مع أحدهم على الواتس أب..

"أهلاً سليم جئتَ في وقتك يا صاح.. أبي في القصر لأمرٍ ما منذ ربع ساعة.. واستودَعني حراسة البوابة.. لكنَّ صديقاً أرسلَ لي الآن يستعجلنُي أن ألاقيه عند مدخل القرية لأدلَّه على بيت مَعارف لنا هنا.. هل أستطيع ائتِمانك على البوَّابة مكاني ريثما يعودُ عَمك أبو عامر؟ قال أنَّه لن يتأخر"..

"طبعاً طبعاً يا عامر.. خذ راحتك.. ولا تقلق.. سأبقى هنا في انتظار العَم جابر"..

"شكراً يا عزيزي.. إلى اللقاء إذاً"..

همَّ عامر بالانصراف سريعاً تاركاً الحُجرة في عُهدة سليم الذي أخذَ نفساً عَميقاً وهو يُنمِّقُ الكلمات في رأسِه عن اعترافاتِ الأمس التي سيفصح عنها بعد قليل..

ما هي إلا خمس دقائق حتى باغتَه مروان مُستَغلاً انصراف عامر وغياب جابر.. وبادرَ بالحديث معه..

"وأخيراً تمكَّنتُ من مقابلة السيِّد سليم.. ما بِكَ يا فتى؟ علامَ كلّ هذا التشنُّج والعصبية؟ لماذا ترفضُ الكلام ولا تردُّ على اتصالاتي؟

اسمح لي فقط أن أشرح لك ما....."

كانت مناورةً كلاميَّة فاشلة من مروان قاطَعَها سليم بانفعال..

"يا لوقاحَتك ودمك البارد أيُّها الكاذب!!

لطالما توجَّسْتُ من طباعك المَاكرة لكنَّ مُخيّلتي لم تَرْقَ إلى تخمينِ مُستوى الغدر الذي يجري في عروقك.. أتمنى أن أجدَ فضيلةً واحدةً فقط في أخلاقك.. كان يجب أن أعرفَ أنَّنا سنصلُ إلى هذه النتيجة"..

"لا تُضَخِّم الموضوع يا سليم.. من حقِّي أن أنقذَ نفسي وأنفذَ بجلدي.. وكما تقول جدتي.. (الهريبة ثلثيُّ المَرجَلة)"..

"على حسب تعريف (المَرجَلة) أو الرجولة في قاموسك المُختَّل.. نعَم إذا كنت تقصد بها الأنانية والكذب والنجاة على حساب غيرك.. وتوريط الأبرياء دون أدنى شعورٍ بالمسؤوليَّة.. فأنتَ مُحقٌّ.. بل ولا شكَّ أنَّها حذاقةٌ وشطارةٌ بنظرك.. ليتَك تأخذ عن جدَّتِك ما هو مفيد.. أرى أنَّك تنتقي ما يحلو لك ويناسبك فقط..

أنت من خطَّطَ لهذا وكان عليك تحمُّل مسؤوليَّة عواقبه.. أنت من ورَّطَ نَغَم المسكينة وتسبَّبَ في قطع لقمَة عَيشها وانسحبَ بكلِّ (رجولة).. وتجلس جانباً الآن كالقطّ تراقب طردَها من عَملها بكلِّ صَفاقة..

المروءة والتعاطف أفعال وليس أمنيات فقط.. والرجولة موقف يا سيِّد الرجال"

قال سليم بحدَّة واستهزاء وقد تمَلَّكَهُ الغضب..

"وهل تُريدُني أن أذهبَ ببساطةٍ وأقولَ للسيِّد بكلِّ حماقة أنا من تسبَّب بالمشكلة؟ أنهِ خِدمَتي أنا لو تكرَّمْتَ يا سيِّد رستُم؟

ثم أنِّي نِلتُ نصيبي من الضَرر.. انظر إلى ساقي المُضمَّدة.. غُرِزَ فيها نتوءٌ معدنيٌّ بارزٌ من المصرف المطريِّ المُحاذي لإطار النافذة الخارجيّ عندما

حاولَتُ الاستعانة به للقفز إلى أرض الحديقة.. لم أنمْ من وَجَعي ليلة أمس".. قال مروان مُحاولاً عبثاً انتزاع تعاطفِ سليم معه وتَفَهُّمَه له..

"ليست حماقة.. بل هي شجاعة ونخوة.. لكنَّكَ ماهرٌ في اللعب على الألفاظ..

ثم أنت قلتها.. لم تنمْ من وجعك.. وهل تشعر أنت إلا بوجعك فقط؟

مُنتهى الأنانية منك"..

لم يَكَدْ سليم يُنهي جملته حتى وصلَ العَم جابر إلى حُجرة الحراسة أخيراً..

"ما بكُما يا شباب.. علامَ هذا الجدال والصوت العالي.. وما الذي أصابَ ساقك يا مروان؟".. تساءَل العَم جابر وهو يضعُ جوَّالَه على الطاولة ويعلِّقُ سترته على الحائط..

"لا شيءَ مُهمٌّ يا عَم.. جرحٌ بسيطٌ.. لا تشغل بالك.. حسناً كنتُ على وشك الانصراف.. أراكُم بخير".. انسحب مروان انسحاباً تكتيكيَّاً.. كي لا يستفزَّ سليم أكثر فينفعلَ ويفضحَ كلَّ شيءٍ أمام جابر..

"لا بدَّ أن هناك أمراً ما.. غريبُ الأطوار هذا المَروان.. لا أرتاحُ له أبداً.. أصلَحَهُ الله..

وأنت؟ كيف حالك يا بنيّ؟ أراكَ شاحباً اليوم"...

"الحمد لله.. لا أُخفيكَ يا عَم جابر.. هناك ما يُؤرِّقُني.. وأريد البوحَ به لك".. أجابَ سليم وفي نيَّته الإفصاح عَما يَضيقُ به صدرُهُ ويثقلُ كاهله..

"حسناً دعني أضع الشايَ على النار إذاً لأسمَعك بمزاجٍ جيد.. حتى قهوتي لم أشربها صباحاً مع انشغالي بترتيبات رحيلِ السيِّد..

أُخبرُكَ أمراً؟

ما إن رحلَ موكبُه حتى هرعتُ إلى المطبخ لأُبشِّرَ نَغَم بأنَّه تراجعَ عن قرار طردِها.. تصوَّر! فجأةً هكذا وبعد أن فَقَدْنا الأمل تراهُ يصفحُ عنها.. كنتُ هناك الآن وأخبرتُهم للتَّو بقراره.. وطاروا من الفرحة..

لو لم يفعل لحزنتُ جداً على هذه المسكينة.. الحمد لله"...

كان لهذه الأخبار غير المتوقعة وقع الصاعقة على سليم.. توسَّعتْ حدقتا عينيه.. وجَمُدَ في مكانه للوهلة الأولى قبل أن ينتفضَ مُبتهجاً بعد أن استوعب كلَّ كلمةٍ نطَقَها جابر.. وترجمَ دماغُه المعلومات التي سمِعها حالاً على أنَّها (تهانينا.. تمَّ إنقاذك من الورطةِ يا سليم.. تم حِفظُ ماءِ وجهِك)..

لكن كان عليه أن يجدَ شيئاً ما ليقولَه.. بعد أن أخبر العَم جابر أنَّه يريد البوح بما هو مُؤرق..

فلنطوِ صفحة الأمس.. ولا داعي بعد الآن للاعتراف بغلطة التسلُّل إلى القصر.. خاصةً وأن نَغَم لم تتضَرَّر.. فكَّرَ سليم وقلبُه يقفز من الفرحة..

"يا لَه من خبرٍ رائعٍ!! لا تعلمُ كم أسعدْتَني وأرحْتَ قلبي يا عَمي.. أنا الآن بخير.. في الحقيقة هذا ما كان يؤرقني.. مشكلة نَغَم المسكينة.. كنت أريد أن نجد بمَعِيَّتِك حلاً لها"...

"أهذا فقط ما كنت تريد الحديث عنه؟ لماذا أشعر أنَّ هناك أمراً آخراً يا ولد؟"..

قال العَم جابر مُمازِحاً سليم الذي قرَّر أن ينتهز فرصة انفرادهما ويستفسر عن كلِّ ما يدورُ في ذهنِه حول حياة أهل هذا القصر..

"أعلمُ أنَّك لطالما أخلصتَ للسيِّد وأسرته يا عَم جابر وكنتَ كاتمَ أسراره.. ولا أطلب منك الخوضَ فيما هو خاص.. لكن أتعشَّمُ أن تحكيَ لي حكاية هذه العائلة وفق ما يعرفه أهل القرية.. هناك أمورٌ ربما حدثَتْ قبل أن أولدَ وتعَملَ أسرتي هنا.. أريد أن أعرف ما يُسمَحُ بمعرفته عنهم.. وصَدِّقني أنا أهتَّمُ لأمرهم من باب المحبَّة والعرفان بالجميل.. وأتمنى فعلَ شيءٍ يَردُّ لهم ولو جزءاً ممَّا أكرموني وأهلي به..

أنا لا أنسى أنَّ السيِّد رستُم تكفَّلَ بنفقاتِ تعليمي عندما علمَ أنَّني متفوقٌ في دراستي.. اللوح الرقميُّ الذي أهدانا إيَّاه منذ سنوات كان عوناً لي في اكتساب خبرات في عالم الإنترنت لم تكن لتزدهرَ دون مساعدته.. وما كنت لأحلمَ بامتلاك جوَّالي هذا أيضاً"..

"أنت صاحبُ وفاءٍ يا بنيّ.. لطالما أكبَرْتُ فيك اتزانَك وحسنَ تقديرك للأمور.. مذ كنتَ صغيراً..

وأنت اليوم ما شاءَ الله شابٌ يافعٌ يعرف تماماً أن يُميِّزَ الخطأ من الصواب ويتحمَّلَ المسؤوليَّة كرجلٍ صغير.. حتى ولو لم تنبت لحيَتك بعد.. أنت بهذا الشارب الرفيع الخجول أكثر رجولة من مروان الأرعن بلحيته الظاهرة وصوته الخشن..

الرجولة ليست شارباً ولحية وخشونة صوت وعضلات.. تلك ذكورة..

تلك أشياء حتى لو تفاوت ظهورها بين فتىً وآخر.. لا بُدَّ وأنَّها ستأتي مع الزمن إن شاء الله وإن تأخَرَتْ عند البعض..

الرجولة الحقيقة أن تكون قادراً على تحمُّلِ المسؤوليات..

أن تستخدم تلك العضلات في الخير.. أن تكون عادلاً.. قوياً.. وقادراً على اقتناص فرص النجاح.. أن تترُك أثراً طيِّباً أينما حَللت..

هكذا تُصنَعُ الرجولة.. وأنتَ كذلك يا سليم"..

"باركَ اللهُ بك وحَفِظَك لنا بخير يا عَم جابر.. إن كنتَ ترى أن طلبي هذا فيه انتقاص لرجولتي فأنا آسف.. أنا لا أتعَمَّدُ أن أطَّلِعَ على قصص الناس بغرض الثرثرة ونقل الأخبار وإرضاء الفضول.. أنا فعلاً أتعاطَف معهم.. وأكثر ما يشغلني الآن أمرُ التخفيف عنهم إن استطعت أن أفعل"..

تبسَّمَ العَم جابر وناولَ سليم كوباً من الشاي الساخن..

"لا أعتقد أن أموال الدنيا تستطيع التخفيف عن السيِّد يا بنيّ.. وأنا لم أتحدث عن الرجولة لأنتقصَ منك.. بالعكس أنا أقارن بينك وبين مروان وتؤرقني صحبتُكما.. وأخشى أن تنزلقَ معه في أمور لا تليقُ بك..

لن أسألك عن سبب المُشادَّة الكلاميَّة التي دارتْ بينكما هنا قبل قليل.. لكن أريدك أن تبتعد عنه.. أتمنى أن ينصلِح حالُه.. لكن إن لم يفعل فأنا لا أريد أن يُفسِدَ حالَكَ.. ويَجرَّكَ معه إلى المشاكل"..

"لا تقلق يا عَمِّي.. وضعتُ لهُ حدَّاً.. ولن أجاريه على حساب مبادئي"..

"حسناً.. فلنشرب الشاي معاً إذاً.. ولأحكي لكَ الحكاية التي تتوقُ لسماعِها"....

أجابَ العَم جابر وهو يرتشِفُ شايَهُ بهدوء..

مَشاويرُ المَوت

"قريتنا وكما تعلم تشتهرُ بطبيعتها الخلابة ومعالمها الفريدة.. ليس بسبب الغابات الشاسعة المُمتَدَّة بمُحاذاة الجبال الشماليَّة فحسب.. بل هناك ما هو أهم..

(المَغارة العَتيقة)..

تلك المغارة التي لم تُستَكشَفْ كاملُ أنحائِها بَعد.. هي بتجاويفها وتَكَهُّفاتِها المُتشَعِّبة أشبه بمدينةِ أنفاقٍ تحتَ الأرض.. لذلك تُسمَّى بأمِّ المغارات.. وثمَّة خطورة على مَن يدخلها ويتوغَّلُ فيها..

بعض الأماكن هناك تتكرَّرُ فيها انزلاقاتٌ للتربة بسببِ هشاشةِ ما تحت الأرض.. ففيها عددٌ لا يُحصى من كهوفٍ وتجاويف تُفضي إلى زوايا ومَمَرَّاتٍ ضيِّقة لا يعلمُ مَساراتِها ونهايتَها إلا الله.. ناهيك عن الحكايات الخُرافيَّة التي تُنسَجُ عن أشباحِ كائناتٍ غريبةٍ يُقال أنَّها تحومُ في رِحابِها.. وأنَّ أُناساً رَأَوهُم بأمِّ عَينِهم..

باختصار هي مَغارةٌ خطيرة لا يُنصحُ بارتيادِها أو التوغُّل فيها.. حتى السلطات الرسميَّة بكوادرِها المُختصَّة لم تستطعْ أن تضعَ خريطةً واضحةَ المَعالِم لها بعد.. لصعوبة تضاريس الطريق إليها..

طريقٌ وَعِرةٌ ولا إمكانيَّة لدخولِ السيَّارات.. وبسبب حوادثَ غامضة فُقِدَ فيها عناصرُ من الدفاع المَدنيِّ لدى مُحاولتهم توثيقَ مَعلوماتٍ عن هذه المَغَارة قرَّرَت السلطات أن تُغلِقَ مَلفَّها في الوقتِ الراهن.. وتتركَ أمرَ من يُحبُّ استطلاعها على مَسؤوليَّتِه الشَخصيَّة..

منذُ ثلاثةٍ وعشرين عاماً كان السيِّد رستُم عائداً من زيارة عائليَّةٍ لأحدِ معارفه في التلَّة القريبة بصُحبةِ زوجَتِه وابنه عزيز.. كانت الأمطارُ غزيرةً وشاعَتْ حينَها أقاويلُ عن ضِباع مُفترسة شاردة كَثُرَ انتشارُها في الطريق الجبليَّة تلك السنة.. ولكي يتجنَّبَ السائقُ المرورَ من هناك.. سَلَكَ طريقاً مُغايراً لكنَّه يُحاذي تُخومَ المغارة.. وفجأةً وربَّما بسببِ غزارةِ الأمطار حدثَ انجرافٌ في التُربة وهبَطَتْ بهم السيَّارة لِتَرتَطِمَ واجِهَتُها بصخرةٍ كبيرة ويَغيبَ الجميعُ عن الوَعي بإصاباتٍ مُتفاوتة..

لحُسنِ الحظ.. رجالُ القصر كانوا يعرفون أن السائقَ سَيسلِكُ طريقَ المَغارةِ لدى عودَتِهم.. وعندما تأخَّرتِ السيَّارة في ظلِّ ظروفِ الطقسِ السيِّئةِ تلك.. ارتَابوا وانتَابَهُم القلق.. فاتَّصَلوا بالنجدة وسيَّروا فرقَ بحثٍ فوريَّة..

لكن لدى وصولِ فرقِ الإسعاف والنجدة إلى المكان والعُثورِ على المُصابين.. ولدَى استعادَةِ السيِّد وزوجته وَعيَهما.. كانتِ الصَدمةُ الكُبرى!

لم يَجدوا عزيز!!! لم يُعثَر لهُ على أثر!!!

بقعٌ دمٍ كانت على وِشاحِ السيِّدة مُنيرة تشيرُ إلى إصابَتِه هوَ الآخر..

لكن أينَ اختفى؟ وماذا حلَّ بهِ؟

هذا هوَ السؤالُ الذي لا إجابةَ له إلى يومِنا هذا..

في تلكَ المنطقة التي وقعَ الحادثُ فيها لا يوجد إلا بضع بيوتٍ مُتباعِدة لم يُسفر التحقيقُ مع أصحابِها عن أيِّ نتيجة.. فلَفَّ الغموضُ تلك القضيَّةِ وطَوَاها..

كم كانت مُؤلِمة تلكَ الإشاعَات التي تَداوَلها أهلُ القرية حينَها بأنَّ شبحَ المَغارةِ قد اختطفَ الطفل.. أو أن الضِبَاعَ انتشلَته من حُضنِ أهلِه وهُم فاقِدو الوَعي..

و ... لا أريدُ أن أقولَ..... التَهَمَتْهُ..

لكنَّني مُتأكِّدٌ أنَّه مَحْضُ هرَاء.. فحتى لو كانَ هذا صَحيحاً.. لا بدَّ أن يُعثُر على الأقل على قطعة قماشٍ من ثيابه.. لم يَعثرْ أحدٌ على أثر له.. ولا حتى قُصاصة..

دخلَ بعدها السيِّد رستُم في دوَّامةِ حُزنٍ لمْ يُخرِجه منها إلا حدَثُ ولادةِ ابنه تَيْمُور.. أضاءَ لهُ الدنيا من جديد.. وكان كجائزةِ الترضية التي سُرعان ما انتُزِعَتْ منه أيضاً"...

استفاضَ العَم جابر في حديثِ الذكريات وكأنَّ رغبةً عارمةً بالبوحِ كانت مَدفونة داخِله.. وشرَعَ يصبُّ كوبَ الشاي الثاني..

"أرأَيتَ يا سليم.. أخَذَنا الحديثُ وها قد بَرَدَ الشاي"..

عدَّل سليم من وَضعيَّتِه فجأةً كمَن استفاقَ من جَلسةِ تنويمٍ مِغناطيسيٍّ بعد أن كانَ مُتَّكِئاً على الطاولة يَسندُ ذقنَه إلى راحة كفِّهِ الأيمن شارداً في حكاية العَم جابر..

"ما هذا المُصابُ الجَلَلُ يا عَم.. أيُّ لعنةٍ هذه التي تلاحقُ السيِّد وزوجته؟"..
تساءَل سليم وقد بَدا الوُجومُ على وجهِه..

"وليتَها انقضَت بذلك يا بُنيّ.. كان مُصابُهما في تَيْمُور - رَحِمَه الله - أمَرَّ وأقسى..

تَيْمُور الذي مَكَثَ فِيهِمَا سبعةَ عشرَ عاماً.. أدمَى فراقُه المُفجعُ قلبَيهِما.. وبحادثٍ لا يقلُّ غرابةً وغموضاً عن حادث فِقدانِهما لعزيز الصغير..

كان هذا منذُ خمسِ سنين.. تَحديداً عَشيَّة العاشرِ من أيلول..

خَرَجَ الشابُّ من غرفته التي تحوَّلَت إلى مُتحفٍ كما تعلم..

خَرَجَ بِزِيِّهِ الرياضيِّ وبِحوزَتِهِ هاتفه الآيفون فقط..

امتطى دراجَتَه الناريَّة وقال بأنَّه سيجُول في مِشوارٍ في الجوار ولن يتأخر..

فتحتُ له بوَّابة القصر.. وكنتُ آخرَ مَن رآه!!

تأخرَ تَيْمُور ولم يَفِ بوعده..

بدأت الوساوسُ تُساوِرُ السيِّدة مُنيرة عندما لم يَرُدّ على اتصالاتها فأخطَرَتْ السيِّد رستُم بالأمر.. وجُنَّ جنونُه..

تمَّ استدعاءُ الشرطة ومَسحَ رجالُ القصر برفقة دوريَّاتِ البحث القريةَ بالكاملِ دونَ جَدوى..

اعتقدْنا في البداية أنَّها عَملية اختطاف طمعاً بأموال العائلة وأن الجُناة سيتَّصِلونَ ولا شكّ لطلبِ فِدية..

لكنَّ أحداً لم يتَّصلْ.. بل وأصبحَ جوَّالُ تَيْمُور مُغلقاً.. أو أن شحنَه قد نَفدَ فخرَجَ من التَغطِيَة..

كانت أسوأَ وأصعبَ ثلاث ساعاتٍ مَرَّتْ قبلَ أن تُحدِّدَ الشرطة مكان الآيفون بعد تحرِّياتِ البحث التي استعانَت بتطبيقٍ كان تَيْمُور قد فعَّلَه على هاتفه يدعى (فايدما) لا أعلم ماذا!!!"..

"نعَم نعَم فايند ماي.. أو فايند ماي آيفون.. هو تطبيقٌ احترازيٌّ يُتيحُ تحديدَ مكان الآيفون عبرَ ربطِه بخرائط جوجل".. قاطعَ سليم بحماسةٍ عفويَّاً حديث العَم جابر ولم يستطع كتمَ المعلومة وهو الشغوف بمثل هذه التقنيات..

"ما عَلينا.. المُهم أنَّهم حَدَّدوا إحداثيات مَكان الآيفون أخيراً ليَتَوَصَّلوا إلى أنَّه في جَوف إحدى جيوبِ المَغارة العَتيقة.. وهو مكانُ يصعب بلوغُه بالسيَّارات.. علاوةً على أنَّ عتمة الليل والضباب الذي غلَّف الأرجاء أعاقَ استخدام الطائرات أيضاً.. فكان عليهم الانتظار حتى الصباح لاستطلاع مكان الهاتف عَسى أن يكون بِصُحبَته تَيْمُور"..

"مفارقةٌ مؤلمة.. كانَ الهاتفُ بِحَوزَةِ تَيْمُور.. فأصبحَ تَيْمُور بِحَوزَةِ الهاتف الآن.. يا لغرابةِ المَشهد".. مُجَدَّداً قاطعَ سليم حديثَ العَم جابر ولم يستطعْ لَجْمَ تعليقِه...

"أجل يا بُنيّ.. كنا نتعقَّبُ أيَّ خيطٍ قد يدُلّنا على مكان وجوده.. وقد أقلعَتْ مع خيوط الفجر الأولى طائرتا هليكوبتر على نفقةِ السيِّد مُعزَّزتانِ بعناصر بحثٍ وإنقاذٍ مُدَرَّبَة هبطَتْ بين تَعَرُّجاتِ منطقة المَغارة وحاوَلتْ على قدر استطاعتها مَسْحَ المكان حتى أنَّها استطلعتْ قليلاً وبشيءٍ من التَّوَجُسِ باطنَ المغارة لتعثُرَ أخيراً على الآيفون عند مدخلِها الرئيسيِّ وعلى مَسافةٍ ليست ببعيدة كانت الدراجة النارية مُلقاةً وشِبه مُحَطَّمة فيما يبدو أنَّه حادثُ ارتطامٍ مرةً أخرى"...

"وبما أنَّه لا قبرَ لتَيْمُور.. ستُخبرني بأنَّهُم لم يَعثُروا عليه هوَ الآخر.. هل تروي لي قصةَ فلمِ رعبٍ يا عَم جابر؟".. استفهمَ سليم بنبرةٍ استِنكاريَّة..

"هذا ما حدَث.. وأنتَ مُضطرٌ لتَقبُّلِ هذه النهاية.. وللأسف.. لا خيارَ آخرَ.. كنتُ أتمنى وجودَ سيناريوهاتٍ أخفّ وطأة.. لكنَّهُ فِعلاً ما حدَث..

استمرَّت عَمليات البحث ولم يعثروا على جثةٍ لتَيْمُور.. لكنَّهم لاحظوا في مكانٍ قريبٍ من مدخل المغارة آثارَ دمٍ وسَحْلٍ لِمَا يبدو أنَّها جثتُه.. غيرَ أنَّ الأثرَ انقطع بعدَها ولم يُفضِ إلى شيءٍ مُفيد"..

"هناك إذاً من سَحَلَهُ ثم وضَعَه في واسطةِ نقلٍ ورَحَل.. لذلك انقطعَ أثرُهُ؟".. تساءَل سليم مُندَمِجاً..

"لا نعلم.. أفادَتْ التحقيقات أنَّ جِسماً ما أغلب الظنِّ أنَّها جثتُه تمَّ سحبه من المكان وانتهى الأثرُ عند حافَّةِ مجرى نهرٍ أو ساقيةٍ ما..

قد يكون زحفَ حتى وصلَ إلى هناك ثم سقطَ وهو يحاولُ الحصولَ على الماء مثلاً.. أو أنَّ أحدَهم وجدَهُ وألقاهُ هناك ثم ساقه النهر إلى حيث لا نَدري.. لكن لماذا؟ العلمُ عند الله"..

"طيِّب.. ألم يلاحظ سكان المنطقة على قِلَّة عددِهم أيَّ شيء؟ ألم يسمعوا أصواتَ استغاثةٍ مثلاً؟"..

"عددُ البيوتِ المُجاورةِ في ذاك المكان لا يتجاوزُ عددَ أصابعِ اليَدِ الواحدة.. ومنها ما هو مَهجورٌ أساساً..

سأَلنا الراعي بَشير الذي يَقطنُ قريباً من المكان لكنَّهُ قال أنَّه لم يكن في الأرجاءِ وقتَ الحادث.. كان مُنشغِلاً بإعادة قطيعِ الأبقار مساءً إلى الزريبة الخلفيَّة لبيته..

وهناكَ مُستخدَمةٌ غريبةُ الأطوار كانت تعَملُ لدَى السيِّد.. حدثت مشاكلُ معَها منذ سنوات فأنهى خِدمَتَها.. أمّ جَمال.. تقطنُ قربَ النهر.. لكنَّها في تلك الفترة كانت طريحةَ الفراش.. كانت عجوزاً مُسِنَّةً وتعاني من عجزٍ جزئيٍّ.. ولدَيها ولدٌ مُعاقٌ أيضاً..

بكلِّ الأحوال فقد فتَّشَتْ الشرطةُ كلَّ سنتيمترٍ في البيوتِ المُجاورة.. المَهجورة مِنها قبل المَسكونة.. ولم تُفلح في العثور على تَيْمُور الذي باتَ الغائبَ الحاضرَ في هذا القصر.. لكن التَحريَّات وبالاستعانةِ بوحدةِ تكنولوجيا المعلومات تَمكَّنَتْ لاحقاً من فكِّ طلاسمِ الحادثة"..

جَحُظَتْ عَينا سليم وهو ينتظر بفضولٍ تَتِمَّةَ الحكاية.. سِيَّمَا وأنَّ القصةَ فيها تكنولوجيا معلومات..

"بعد أن تمَّ تفريغُ بياناتِ ومحتوياتِ هاتفِ تَيْمُور.. ومن بين المُحادثات الكثيرة على وسائل التواصل الاجتماعي المُختلفة.. تَوَصَّلَتْ الشرطة إلى دردشاتٍ غريبةٍ دارَتْ بينَه وبين شخصٍ أجنبيٍّ يدعى كارلوس كان شريكاً له في إحدى ألعاب الإنترنت.. كان تَيْمُور مُدمنَ ألعابٍ إلكترونيَّة.. لديهِ هَوَسٌ مُؤذٍ بلعبةِ البوبجي..

تلكَ اللعبةُ التي تلعبُ بشبابِنا ويظنُّون أنَّهم اللاعبُون بِها..

تعرَّفَ تدريجيَّاً وعن طريق المجموعات والصفحات الراعِية والمُرَوِّجَةِ لهذه اللعبة على العديد من الأشخاص وكان كارلوس هذا من بينهم..

وليسَ أخطر من أولئِكَ الغرباء الذين يُوحُونَ لك أنَّهم أصدقاءٌ افتراضيون..

نحنُ بالكاد نَطمَئِنُ إلى الأصدقاء الواقعيين الذين نعرفهم شخصيَّاً ونراهُم وجهاً لِوَجه.. كيفَ ينسَاقُ المَرءُ لصداقاتٍ لا يعلَمُ ما تُخفي خلفَ كادرِ شاشتِها؟

تطوَّرَتْ صداقتُهُما وأصبَحَا يَتَجَاذَبان أطرافَ الحديث حول أمورٍ عديدةٍ أخرى بما فيها تلك التحدِّيات المُقرِفة عَديمة النَفع التي تُرَوِّجُ لها مِنصَّاتٌ إلكترونيَّةٌ مُخَصَّصَة لتدمير الشباب..

تحدِّياتٌ تَحُفُّها المَخاطِرُ يُساقُ لها شبابنا كما النِعاج.. تحت مُسَمَّى الجرأة والشجاعة والمُغامرة..

تغليفٌ ماكرٌ وحقير لممارساتٍ مريضة قاتلة أقلّ ما يُقال عنها أنَّها شيطانيَّة..

طبعاً استعرضَ كارلوس فيديوهاتٍ كثيرةً يَتباهى فيها بمغامراتِه في تطبيق ومُحاكاة تلك التحدِّيات.. وبدأ يتلاعبُ بأفكارِ تَيْمُور ويَستَفزُّه لخوضِ غِمار بعضٍ منها.. وبالفعل انجَرَّ تَيْمُور للفخ وكان الرِهانُ بينهما أن يَتوَغَّل في غَيَاباتِ المَغارة التي طالما تجنَّبَ أهلُ القرية الغوصَ في أعَماقها.. ويبدأ بثَّاً مباشراً من هناك على حساباته في وسائل التواصل الاجتماعي..

لكن للأسف.. تم استدراجُه لحتفِهِ.. باغَتَهُ الموت.. وغيَّبَهُ عن كل هذه الحسابات المقيتة"..

"آآآآه.. لذلك يَكرَهُ السيِّد رستُم سائرَ تطبيقات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي؟ لطالما حيَّرَني وأزعجني هذا الأمر.. لكن مَعهُ كلّ الحَق".. قال سليم رافعاً حاجِبَيهِ باستغراب..

"يكرهها وسارعَ بتكليف مُحامٍ في القانون الدولي لمُقاضاةِ كلِّ من له يدٌ في هذه الجريمة.. والأمر ما زالَ مُعلَّقاً بين أخذٍ وصَدٍّ حتى اليوم"..

"لكن الإنترنت ليس سيئاً بالمُطلق يا عَم جابر.. هو سلاحٌ ذو حدَّين.. والأمر مَنوطٌ بِنا.. نحن من نختار أيَّهما سنستخدم.. لا يجب أن نلقيَ اللومَ على هذه المِنَصَّات لوحدِها.. لو لم تجدْ لها جمهوراً لاندثرتْ تلك التفاهاتُ في أرضِها.. لكنَّنا من نجعلُ لها قيمة بمُتابعتها.. نلهثُ وراءَها فقط لأن الجميع يفعل.. نحن نحملُ وزراً كبيراً في السَماح لها بالتلاعُب بعقولنا.. هي أولاً وأخيراً.. سلعٌ معروضةٌ وما علينا إلا أن نُحسِنَ التَسوُّقَ..

تَيْمُور - رَحِمَهُ الله - مَلومٌ أيضاً فيما حدث.. ويتحمَّل مسؤوليَّة عدمِ صونِ عقلِه قبل نفسِه.. كانَ عليه ألا يَتمادى بالانجراف وراء تلك السخافات.. كان عليه أن يُصارح أباه أنَّه يعاني من إدمانٍ إلكتروني بغيضٍ.. ويلجأَ إلى استشارةٍ نفسيَّةٍ بل ويخضعَ لعلاجٍ إن اقتضى الأمر.. ليس عيباً أن نعترفَ بالضعف.. لكن العيب أن نتعامَى عنه حتى يُعْمينا بالفعل".. أجاب سليم وهو يتنهَّدُ بعد أن حَبَسَ أنفاسَه وهو يستمعُ بكلِّ جوارِحِهِ لكلامِ العَم جابر..

"من أينَ أتيتَ بهذه الحكمة يا سليم؟ كلامُك أكبرُ مما هوَ مُتوقعٌ من فتىً في مثل عُمرك!" قال العَم جابر بدهشةٍ وإعجاب..

"ربَّما لأنَّني أتسوَّقُ من هذه المِنصَّات ما لا يُرَوِّجُ لهُ بائِعُو الشرِّ.. أبحث في الاتجاهات التي لا تُغري الهَوى لكنَّها تُشبِعُ العقلَ اتِّزاناً..

ثم أنَّ القراءة التي شجعني عليها والدي - بارَكَ الله به - منذ الصغر أحدثَتْ فارقاً في اهتماماتي وطريقة تفكيري.. كانت قراءَتي ورقيَّة ثم أصبحت رقميَّة.. وفي الحالتين أنا أحصدُ الخبرة وأسبقُ بها أقرَاني.. علاوةً على أنَّني لم أفقد المُتعةَ كما يَعتقدون..

بإمكانِكَ أن تجدَ المُتعةَ والفائدة في القراءة إنْ بذلتَ جُهداً في البحث.. فأنت حين تقرأ عن تجارب الآخرين وحياتهم.. تعيش عوالم وحيواتٍ مُتعدِّدة في عَمرِكَ الواحد..

وقد أصبحَ تسارعُ عجلةِ التقنيَّات المُغرية التي يَضُخُّها الإنترنت بهَيمَنتِها وشهوتِها العارمة للاستحواذِ على عقُولِنا وسكينتِنا مُرهقاً إن لم يكن مُهلِكاً.. ما لم نتحكَّم نحن به.. وننتقي منه ما ينفعنا فقط..

تحضرني الآن مقولة أحد المفكرين:

(أصبحتْ الإنسانيَّةُ مُسرفةً في الجَلَبةِ والضوضاء.. مُفرطةً في الصناعة.. على حطامِ الهدوء النفسيِّ والغبطةِ الروحيَّة)..

فِعلاً.. حانَ الوقت لنقفَ وقفة صدقٍ مع أنفسنا ونكبحَ جِماحَ طوفانِ السخافات الذي يعترينا عندما نتركُ أبوابنا مُشرعة للفضاءِ الافتراضي بكلِّ من هبَّ ودبَّ فيه ودونَ فلترة"..

"يا لروعةِ ما أسمعه الآن.. سلِمتْ يداكَ يا فائز على هذه التربية.. أكادُ لا أصدِّقُ أنَّ شابَّاً يافعاً بعَمرِكَ يستطيع التفوُّهَ بهذه الكلمات.. لكن علامَ الاستغراب؟

كيفَ لا؟ و**(اقرأ)** هيَ أوَّلُ أمرٍ إلهيٍّ وَرَدَ مع أوَّلِ كلمةٍ من **القرآن**..

مِفتاحُ الحكمةِ والنجاح في الدنيا والآخرة لم يكنْ سِراً في يومٍ من الأيام.. لكنَّنا نحن من عَطَّلنا بوصلتنا عن عَمد.. وكما يُقال (الجهلُ الحقيقيُّ ليسَ في غيابِ المَعرفة بل في رفضِ اكتسابِها)"...

قال العَم جابر بانفعال وقد خالجَتْه مشاعرُ مُختلطة بين الحزنِ الذي عادَ لقلبه مع سَردِهِ لتلكَ الذكريات المُوجِعَة.. وبين السعادة العارِمَة والفخر بالوجه الجديد الذي اكتشفه للتَّو لشخصيَّة سليم.. ثم استطردَ بعُجالة..

"هيَّا هيَّا أيُّها المُشاغب.. جعلتَني أشرُدُ مَعَكَ دونَ أن أشعر.. وأُمضي الوقتَ في سَرْدِ الحكايات.. وتأخَّرْتُ عن جَولتي التفقديَّة حولَ القصر.. أترى؟

غادَرَ السيِّدُ فَصِرنا على وضعِ تَوفيرِ الطاقة.. (غاب القطّ اجلس يا فأر)"..

ضحِكَ العَم جابر وهو يُوَدِّعُ سليم بعد جلسةِ حديثٍ ذات شجون كان لها صداها الكبير عليهما..

تَميمةُ القِلادة

من جديد.. لم يفقدْ مروانُ الأملَ في إبرامِ صفقةِ صلحٍ مع سليم...

هو مع عجرَفتَه الصِبيانيَّة ومُشاغباته المُتمادِية وغرورِه الفارغ وتَذَاكيهِ على أقرانِه.. لا يشعرُ بالأمان إلا بصُحبَةِ سليم..

ربَّما لأنَّه وجدَ فيه الصديقَ الوفيَّ الذي طالَما أبدى سِعةَ صدرٍ في التعَاطي مع حمَاقاتِه وتحمُّلِ فَظاظته.. أو لأنَّه وجدَ فيه تعويضاً لنقصٍ يُعاني منه.. فهو وإن أنكرَ ذلك.. مُعجبٌ في قرارةِ نفسِه بِسعَة مَعرفةِ سليم وثقافَتِه واجتهادِه.. وهو أمرٌ يراهُ بعيدَ المَنالِ عنه..

كانَ يريدُ إعادةَ المياهِ إلى مَجاريها معه.. لكن يبدو أنَّه أمرٌ صعبٌ بل وشِبهُ مستحيلٍ اليوم.. فالغلطةُ هذه المرَّة كبيرة.. علاوةً على تراكُمها على ما سَبقها من أخطاء..

يحتاجُ الأمرُ هذه المرَّة إلى جُهدٍ استثنائيٍّ..

حيلة ما.. أو استعانة بصديق كي يزيدَ من فرصة نجاحه..

وقد اختارَ صديقاً قوياً من شأنه أن ينجزَ المهمة.. وينتصر..

جدَّتهُ عَواطِف!!!

فسليم يُكِنُّ لها حُبَّاً واحتراماً كَبيرَين.. هو عَموماً يحترمُ الكبار ويُجِلُّهُم..

لكنَّ للجَدَّة عَواطِف مَكانةً خاصَّة في قلبه منذ الصغر..

لم يهدرْ مَروان وَقتاً.. ولم يدَّخِرْ جُهداً.. في تَدبيرِ الأمرِ معها..

أخبَرَها أنَّ سليم مُنزعجٌ منه (لسوءِ فَهمٍ) بينهما.. وأنَّه يُصِرُّ على مُخاصَمَتِه.. وأنَّ جميعَ مُحاولاتِ استرضائِه باءَتْ بالفشل والخِذلان.. وطلبَ منها أن تَتَدَخَّل بطريقتِها وتُنقِذَ المَوقف..

وجاءَت الفَزعَةُ من الجَدَّة لحفيدِها المُدَلَّل!!

"أنَا لها يا مَروانووو.. لا تقلق يا حبيب جدَّتِك.. اليوم مساءً سيشربُ الشايَ معكَ عندي هنا وهو يَضحكُ ويلعبُ.. هاتِ جوَّالي ودَعني أكلِّمهُ.. (قال زعلان قال).. ما هذا الكلامُ الفارغ؟"..

سارعَ مَروان ودون تلَكُّؤٍ أو مُمَاطلة على غيرِ عادته إلى إحضار جوَّالها والاتصال بسليم دونَ أن يستفسرَ حتى عن خطَّتِها في الأمر.. فكلّه ثقة بقدراتِ الجدَّة الاستِدراجيَّة..

تلقَّفتْ الجوَّال مِنه بنظرةٍ جادَّة.. بعد أن جَلسَتْ على الأَريكة وهمَسَتْ له:

"شغلتَ مُكبِّر الصوت؟ أنا لا أسمعُ جيداً على هذا الاختراع"..

أومَئَ لها برأسِه مُؤكداً بالإيجاب وهو يَحبسُ ضِحكَتَه..

سليم كان قد أحجمَ عن الردِّ على اتصالات مروان.. لكنَّه بالطبع ما إن شاهدَ اسم الجدَّة يُضيءُ شاشةَ جوَّالِه حتى سارعَ بالإجابةِ مُرَحِّباً:

"أهلاً أهلاً بالجدَّة عَواطِف الغالية.. ما هذه المُفاجأة السَارَّة؟"..

كعادَتِها.. لا تستطيعُ الجدَّةُ إلا أن تُضَمِّنَ كلامَها بشيءٍ من الأمثالِ الشعبيَّة..

"لا أهلاً ولا سهلاً.. إيييييه أيُّها الفتى المُتلاعِب.. (مين شاف أحبابه نسيَ جَدَّتَه عَواطِف).. (عاشَ مَن سَمِعَ صوتَك).. جاءَ السيِّد ولم تَعُدْ تلقِ بالاً لنا يا سَلُّومَة..

(لا تأكل بِعَقلي حلاوةً يا ولد).. مَن يَشتاقُ لنا يأتي ويَطْمَئِنُّ علينا".. أجابت الجّدَّةُ وصَوتها العالي يَصدَحُ في أرجاءِ الغرفة..

هي تتحدَّثُ على الجوَّالِ تَحديداً بصوتٍ عالٍ لأنها لا تسمعُ جيداً فتظُنُّ أنَّ الطرفَ الآخرَ على الخطّ لا يَسمَعُها أيضاً..

"سامِحِيني يا جَدَّتي.. حقك عليّ.. تعلمين كم ننشغلُ في القصر مع زيارة السيِّد السنويَّة المُعتادَة.. لكنَّني سأزوركِ قريباً إن شاء الله.. فلا غِنى لي عن بركةِ دُعائِكِ"..

"وقريباً هذه كم تُساوي يَعني؟ ثلاثُ ساعات؟ أربع؟

انتظرك اليوم مساءً على العشاء.. أعْدَدتُ فطائرَ الجُبنِ المَخبُوزةِ التي تُحبُّها مع الشاي.. تعالَ مساءً وألحق حِصَّتَك قبل أن يُجهِزَ عليها كلّها مروان الفَجعَان"..

تردَّدَ سليم وأحسَّ أنَّ في الأمرِ كَمينُ مُصالحة.. لكنَّه يعجزُ عن صَدِّ الجَدَّة وكَسْرِ خاطِرِها..

"لو أرجَأنا الأمرَ ليومٍ آخرَ يا جَدَّتي.. لدَيَّ بعضُ المَشاغلِ اليوم"..

" مَشاغلُ ماذا يا أبو مَشاغِل؟ على هَامان يا فرعون؟

ولا حرف.. كلِمَتي قلتُها ولا أقبلُ أعذار..

اسمعْ..

هاتِ مَعَكَ حَبَّتَيّ طَماطم.. هي لذيذةٌ بجانبِ الفطائر.. ونَفدَتْ مِن عندي..

مع السلامة"..

كعادَتِها أيضاً.. تُنهي الجَدَّةُ حديثَها من طرفٍ واحدٍ.. وتُغلِقُ الخطَّ.. دونَ أن تنتظرَ منكَ حتى الإجابةَ بـ (مع السلامة).. المُهِمُّ أنَّها أدلَتْ بِدلوِها.. وبالنسبة لها انتهتْ المُكالمة دون استشارتِكَ ودونَ سابقِ إنذار..

الأمرُ حاسِمٌ وغيرُ قابلٍ للنقاش أو الجِدال مع الجَدَّة عَواطِف.. وزَعلُها غالٍ على قلبِ سليم..

مَروان كانَ يَعلمُ ذلك.. وها هي خِطَّتهُ تسيرُ على ما يُرام..

من جهتِه سليم عزَمَ على تَلبيَة دَعوة الجَدَّة.. ليسَ احتراماً لها فَحَسب.. بل لأنَّ تَضَخُّمَ فضولِه أصبح يَحثُّهُ على نَبشِ أيِّ مَصدر معلوماتٍ عن عائلة فيَّاض.. والجّدَّة عَواطِف هي بنكُ معلوماتٍ عن كلِّ شيءٍ يَتعَلَّقُ بقريةِ المَغارة..

غريبٌ هو ما يَدورُ في خلدِ سليم.. هناك طاقةٌ كامِنةٌ تُهَيمنُ على تفكيرِه وتَجرُّه جَرَّاً لتَحَرِّي تفاصيلِ حياةِ السيِّد رستُم بين المَاضي والحَاضر..

يطاردُ المَعلومات وفي نِيَّتِه إشباعُ فضولِه وإغلاقُ ملفِّ تساؤُلاتِه حولَ هذه العائلة فتَراهُ يَتَوَرَّطُ ويَغوصُ أكثرَ وأكثرَ في أعَماقِ القضيَّة ليتَوَسَّعَ الملفُّ بدَلَ أن يُغلَقَ..

ربَّما لأنَّه شَهِدَ لحظاتِ ضعفِ السيِّد رستُم وسَمِعَ شَكوَاهُ ومُناجاتَه فاعتَرَتْهُ حالةُ تعاطفٍ مُستدامٍ مَعه.. وربَّما لأنَّ أسئلة حكايتهم أصلاً بقيَتْ دونَ إجاباتٍ شافية..

كلُّ خبرٍ عنهُم يُؤَجِّجُ رغبتَه في معرفةِ المزيدِ ويُفاقِمُ المُشكلةَ بَدَلَ أن يحلَّها..

هو أشبهُ بِهوَسٍ استجَدَّ.. فاستبَدَ بِهِ!

حملَ كيسَ الطماطِمِ مَساءً واتَّجَهَ صَوبَ بيتِ الجَدَّةِ..

كانَ مروان في استقبالِه قبلَ أن تتلقَّفَهُ هيَ وينالَ نصيبَه مِنَ العتبِ والتَوبيخ..

جلس الثلاثةُ إلى طاولة غرفةِ المَعيشة لتناولِ وجبةِ الفطائرِ مع الشاي..

والدُ مروان مُصابٌ بِشَلَلٍ نِصفيٍّ.. وهو طريحُ الفِراشِ منذ سنوات.. ويتكفَّلُ السيِّد رستُم بنفقاتِ مُتابَعة علاجِه وأدويَتِه..

"كيفَ حالُ العَم أبو مروان يا جَدَّتي؟ هل مِن تَحَسُّن؟".. سألَ سليم

"إيه يا بُنيّ.. الحالُ على ما هوَ.. لكن الحمد لله أنْ لا تراجُع أو انتِكاسَات..

نعَملُ ما بوسعنا وكلُّه على الله".. أجابَت الجَدَّة وهي تَتَنَهَّدُ بِحزنٍ..

"هل أصُبُّ لكَ مَزيداً من الشاي؟".. سألَ مروان في محاولةٍ للتَوَدُّدِ لسليم وكسرِ حاجزِ الجَفَاءِ بينَهما..

"شكراً.. لا أرغبُ بالمَزيد".. قالها سليم بنظرةٍ حادَّةٍ ثابِتة وكأنَّه يعني

(لا أرغب بالمَزيدِ.. من التقارُبِ معك)..

لاحظت الجَدَّةُ بطرفِ عينِها وهيَ تُحَضِّرُ أطباقَ الفطائر ما آلَ إليهِ الوَضعُ بين الفَتَيان.. فتَدَخَّلَتْ لتَستَخدِمَ نفوذَها بشكلٍ تكتِيكيٍّ..

"هيَّا وكَفاكُما صغرُ عقلٍ.. اخزِ الشيطان أنتَ وهوَ.. فَليَكنْ قلبُكَ أبيض يا سَلُّومَة.. مروان بمثابةِ أخيك.. أعلمُ أنَّه طائشٌ ودمُه ثقيلٌ.. لكن لا غِنى لكما عن بعض.. والوعاءُ الكبيرُ يَستَوعِبُ الوعاءَ الصغير يا بُنيّ.. أنت الأعقلُ والأكرمُ خُلقاً.. هيَّا سامِحْهُ ولا تكسفني.. وإذا ضايَقَكَ مُجَدَّداً سأكونُ له بالمِرصاد.. عَصَا المِكنَسة اشتاقَت لجنابِه"..

تبسَّمَ مروان وربَتَ على كتفِ سليم قائلاً:

"يا أخي اصفعني.. اشتمني.. قل شيئاً ينفِّس عن غضبك.. لكن لا تعاملني هكذا بازدراء.. أنت تعلم غلاوَتك عندي يا رجل.. (غلطنا ومنك السماح) ولن أكررها.. أعدُك"..

كانت هذه الكلمات التي حاصرت سليم كفيلةً بكسر شيءٍ من الجمود الذي طغى على علاقته بمروان.. لم يعد له خيارٌ آخر سوى الاستسلام والرضوخ لرغبة الجدَّة واستجداء مروان..

"حسناً.. كُرمى لكِ يا جدَّتي عَواطِف..

سنرى إن كان جادَّاً فيما يقول.. ولكن حذارِ.. فرصيدُ الفرصِ شارفَ على الانتهاء وهو غيرُ قابلٍ للتجديد.. الحياة قصيرة بما فيه الكفاية ولا متسعَ لهدر الوقت في ترميم أبنيةٍ مُتصدِّعة"..

أراد أن يقلب صفحة الخصام ليدخل في المُفيد.. هو جاء وتسبقه جعبةٌ حُبلى بالأسئلة عن أهل القصر.. ويبدو أنَّه لن يغادرَ دونَ إجابات..

"دعني إذاً أدشِّن ظَرفَيّ كابوتشينو بهذه المناسبة؟

اشتريتُ اليوم علبةً باثني عشرَ ظرفاً احتفاءً بجلستنا هذه.. هل أحسب حسابكِ بفنجان كابوتشينو يا جدتي؟".. قال مروان وهو يزقزقُ من الفرح..

"ومتى شربتُ أنا هذا الشينو يا أزعر؟

تعلم أنَّني لا أحبُّ شربَ أشياءَ يصعبُ عليَّ نطقُ اسمها.. اصنع لي فنجان قهوة ثقيل.. ولا تنسَ أن تضع كوب الماء"..

أجابت الجدَّة مُتكِئةً بذراعيها على طاولة الطعام.. فيما انصرف مروان إلى المطبخ..

"استمرِّي في نُصحِهِ يا جدَّة.. العين مُحمَرَّةٌ منه في القصر.. وإن لم يُحسِّن سلوكه مع الجميع فسيكون هو الخاسر الأكبر".. همسَ سليم في أذنِ الجدَّة عَواطِف..

"آه يا بُنيّ.. تعبتُ من ملاحقته وتوجيهِ النُصح له.. بارَكَ اللهُ بكَ.. لا تزعل منه.. احتويه يا بُنيّ.. الولد فقدَ أمَّه وهو صغير.. وأبوه كما ترى طريحَ الفراش.. وأنا ما عدتُ أقوى على مُغالبته..

لا يغرّك شاربه الرفيع الذي يتباهى به.. ولحيته التي بالكاد نبتت ويعدّ شعيراتها يوماً بيوم..

هو في سنِّ مراهقة.. مع أنَّني أخجل أن أتحجَّجَ بهذا العذر أمامَك وأنت في مثل سنِّه.. لكن سبحان الله.. العقل زينة ورزق.. والحكمة لناس وناس..

أعلم أن جابر يتهاون معه ويصبر عليه رأفةً بالحال.. ونحمدُ الله أنَّ السيِّد رستُم غمرَنا بكرمه.. لولاه لا ندري ما كُنَّا سنفعل!"..

"صحيح.. على سيرة السيِّد رستُم.. ماذا تعلمين عن حادثتَيّ موتِ ولدَيه يا جدَّة؟ سمعتُ أشياء من هنا وهناك وانتابني (بعضُ) الفضول!".. سارع سليم إلى اقتناص فرصة ذِكْرِ السيِّد.. ليُمهدَ الطريق أمام أجندة تحقيقاته.. مع تظاهره باللامُبالاة..

"أووووه.. بل وماذا لا أعلم؟ خُضنا أياماً في هذه القصص حتى شابَ شعرُنا"..

أجابت الجدَّةُ بحماسَة.. ثم أردَفَتْ وبدا أنَّها هي الأخرى مُولعة بهذه الحكاية:

"يا سيدي.. جدَّتك عَواطِف كانت الكلّ بالكلّ في طاقم خدمة القصر منذ ثلاثينَ عاماً.. أنا وجابر ابن عَمتي لنا في خدمة هذه العائلة عشرات السنين.. منذ عهد السيِّد عزيز الأب.. رحمه الله..

لكنَّني تزوجتُ لاحقاً جدَّك مروان واضطررت إلى ترك القصر.. والانتقال إلى قصري الخاص هههه"..

قالت الجدَّة ممازحةً وهي تُقَهقهُ وتهتزُّ من الضحك.. في إشارةٍ إلى الفارق الشاسع بين الوَضعين..

ضحكَ سليم من صميم قلبه وهو يتناول فطيرةً أخرى.. وقد حرَّضَ الحديث شهيَّته مُجدَّداً..

"بعد زواجي عدتُ مُجَدَّداً للعمل في القصر لكن بساعاتٍ أقل..

عزيز تربَّى على يدي - رحِمَهُ الله - توفيَّ صغيراً.. ويقال أنَّ الضباع أكلته.. يا لطيف".. قالت الجدَّة بأسفٍ ثم دنَت من سليم وهمسَتْ له بتوَجُّس:

"ويُقالُ أنَّها لعنةُ أمِّ جَمال!!"..

"ماذا؟ لم أفهم.. ومن أمّ جمال تلك؟"..

"آآآه.. يا حسرتي على أمِّ جمال.. كانت تساعدني في المطبخ.. عندها خبرة في انتقاءِ الأعشاب وتحضير وصفاتٍ طبيةٍ عجيبةٍ منها..

يا مَن تراها في البراري بين رحاب المروج وسفحِ التلَّة المُحاذية للمغارة والقريبة من بيتها تجمعُ ما تيَسَّرَ لها من أزهار البابونج البريّ وشقائق النعَمان وإكليل الجبل هناك..

منذ قرابة الثلاثة وعشرين عاماً.. وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة طلبت إذناً بالانصراف باكراً بعد أن حضرَ زوجها وأخبرها أن رضيعها جمال ارتفعت حرارته فجأة..

تعشَّمَتْ المسكينة أن يساعدها السيِّد في إيصالها والطفل بإحدى سيارات القصر إلى أقرب مركزٍ طبيٍّ.. كانت مُضطربة وعلى عجلةٍ من أمرها فاصطدمت بالخطأ بتحفةٍ أثريةٍ يتفاخرُ السيِّد رستُم باقتنائها.. وكانت الكارثة!

غضبَ غضباً شديداً.. وعنَّفها دونَ أن يستمِعَ لها.. وأنهى خدمتها ولم يعلم أنَّ طفلها مريضٌ وفي وضعٍ حرج..

انصرفت هائمةً على وجهها مُحاولةً وزوجها بلا جدوى إنقاذ جمال..

تبيّن أنَّه مُصابٌ بحمَّى شديدة.. ولم يتمكنوا من خفض حرارته بسرعة..

تسبَّب تأخرُّهم قسراً في إسعافه بتلفٍ في الدماغ.. أدى إلى إعاقةٍ مُزمنة..

علمَ السيِّد لاحقاً بتفاصيل الواقعة.. وندمَ ندماً شديداً..

حاول استرضاءَها وتعويضَها.. لكنَّها لم تغفر له أبداً حتى وفاتها..

ظلَّ حقدُها عليه يكبُر عاماً بعد عام.. مع تفاقُمِ وضعِ ابنها جمال..

أنا لم أرَ ابنها بعد ذلك.. حاولتُ زيارتها والتواصلَ معها لكنَّها صدَّتني.. أعَمَت النقمةُ قلبها ورفضَت التعاطي مع كلِّ من في القصر..

لا بل اعتكفت في بيتها ونادراً ما كانت تتعامل مع أحد.. وقد يكون الراعي بشير هو الشخص الوحيد الذي يعلم أخبارها باعتباره جارهم وصديق قديم لزوجها..

على أيِّ حالٍ.. توفي زوجها بعد سنتين وبقيت وحيدة تُربِّي جمال وتخفيه عن العيون..

يقال أنَّها أُصيبت بالهلوسة أو بانهيارٍ عصبيٍّ أفقدها صوابها.. هي لم تكن على ما يرام حتى توفيت العام المضي بعد إصابتها بكورونا"..

"ما بكما؟ تركتكما بخير.. علامَ يبدو الوجوم على وجهيكما؟".. قاطع مروان الذي دخلَ وبيده صينية القهوة والكابوتشينو حديثَهما مُرتاباً من جدِّية ما يدور على الطاولة ومدى تفاعلهما وانسجامهما معاً..

"مهلاً مهلاً يا مروان.. اقعد عاقلاً ولا تقطع علينا سلسلة الأحداث الآن..

طيِّب ماذا عن تَيْمُور يا جدَّة؟".. سأل سليم وكان أكثر ما يهمه ويعنيه في الأمر شأنُ تَيْمُور..

"تعلم أنَّهُ توفيَّ في حادث دراجةٍ ناريةٍ عند المغارة.. كنت يافعاً حينها يا سليم"..

"نعَم نعَم.. أذكر أيام الحادثة.. لكن أبي كان يمنعنا من التدخل حتى بالسؤال عَمَّا حدث.. علمت حينها أنَّه توفي فقط.. ودخل السيِّد بنوبة حزنٍ لم تنتهِ إلى اليوم"..

"ولا أعلم إن كانت ستنتهي.. (الضنى غالي) يا روح جدّتك.. وقد فُجع الرجلُ بولديه.. لديه أموالٌ طائلة.. لكن الحزن أطفأ بهجتها..

كانت أمي تقول بيت فيَّاض عندهم فيضٌ من كلِّ شيء.. أموال وأراضي.. حتى أصابع أقدامهم فائضة ربما لذلك يُكنَون بـ (فيَّاض)".. قالت الجدَّة وهيَ تخفي براحة كفِّها ابتسامةً خجولةً..

"إيييييه.. أموال وسلطة.. سيِّد رستُم هذا أمواله كقارون وجبروته كفِرعَون" تدَخَّل مروان كعادَته بصَفاقة..

"اسكتْ يا مروان.. متى ستتعلمُ أن تحفظَ الجميل.. الرجل يُكرِمُنا بعطاياه.. ماذا تريد بعد لترضى عنه.. هل تريد أن يكتب لك قصره وأراضيه وشركاته ليكسب ودَّك؟ ما هذا الجحود؟".. نهَرَهُ سليم بحدَّة ثم التفتَ مُستفسراً:

"لم أفهم قصدك فيما يتعلق بالأصابع يا جدَّتي.. هي مُزحة أليسَ كذلك؟"..

"لا يا بُنيّ.. لكنَّه أمرٌ لا يعلمه الجميع.. وهو طبعاً ليس للإشهار..

عائلة فيَّاض لديهم سِمة خلقية وراثية.. يولدون بستِّ أصابع في قدمهم اليُسرى.. وكنا نمزحُ قديماً ونقول حتى أصابع القدم عندهم فائضة".. همسَت الجدَّة ثم تابَعَتْ سردها للأحداث:

"إيييه.. كان لتَيْمُور قلادةٌ لا ينزعها من عنقه.. لا تفارقه أبداً.. كم تمنَّى السيِّد لو استطاع إيجادها على الأقل كذكرى غالية من رائحةِ ابنه..

ما زلتُ أذكر اليومَ الذي اشتراها له من ماركة مشهورة في عيده السابع.. كانت برَّاقةً وقد عُلِّقَتْ بها أيقونة.. تميمة.. شيءٌ من هذا القبيل.. قالوا أنَّها تحمي من العين.. ولا أرى أنَّها فعَلت شيئاً.. خُرافاتٌ من الجاهليَّة.. وأفكارٌ خَرقاءُ باطلة.. كانت أمي تقول أنَّ التمائِمَ شِركٌ والعياذ بالله.. والله أعلم..

عرضَ السيِّد حينها مكافأةً مُغريةً لمن يبحث عن القلادة في مكان الحادث ويعيدها له.. عشرة أمثال وزنها ذهباً.. لكن أحداً لم يفلح في استعادتها.. كما أن المكان الذي يُتَوقع أنها اختفت فيه تَحُفُّهُ المخاطر.. وقد تكون الحيوانات الشاردة التقطتها ورمتها في النهر المجاور.. أو أنَّها غابت مع جثة تَيْمُور إلى مصيرها المجهول.. لا أحدَ يعلم"...

"أووووو.. عشرة أمثال وزنها ذهباً؟ لماذا لم تخبريني بهذا الأمر من قبل يا جدَّتي؟"..

كما هو متوقعٌ.. شَخصَتْ عينا مروان وسالَ لعابه على سيرة الذهب والمكافآت.. وسرعان ما استحوذت الفكرة على عقله الفارغ..

في حين فكَّرَ سليم لو كان بمقدوره إيجاد القلادة وإعادتها للسيِّد.. كي يعيد معها بعضاً من السلوى والرضا لقلبه المكسور..

راودَت كليَهما الفكرة ذاتها.. لكن لغايَتَين ودافعَين مُختلفَين.. أحدُهما شخصيٌّ بدافع المَصلحة والمكاسب المالية.. والآخرُ إنسانيٌّ بدافع جَبْرِ الخَواطر وتَطبيبِ القلوب..

شراكةٌ جَديدة

كما حدثَ في المرّة الماضية مع العَم جابر.. خرجَ سليم من عند الجدَّة عَواطِف ليسَ كما دخلَ.. غادرَ مُثقَلاً بأفكارٍ وإجاباتٍ جديدة وقد اتَّضَحَت الصورة في ذهنه أكثر.. كمَن وَضعَ آخرَ قطعةٍ في لوحةِ لعبةِ (بَزل) puzzle.. ليكتملَ المشهد..

هدأ فضولُه قليلاً ليحينَ دورُ حماسِه فينتفض..

هو على وشك اتخاذ قرارٍ خطيرٍ.. لا يفصله عنه سوى بعض التفكير والتخطيط..

"لا أعلمُ ما الذي يَجُرُّني جَرَّاً إلى هذا الأمر.. لكنَّني لا أستطيع التوقف عن التفكير به.. تجتاحني رغبةٌ عارمة في فعل أيِّ شيءٍ قد يشكِّلُ فارقاً لدى هذه العائلة..

بحَّة صوت السيِّد الممزوجة بالغصَّة في تلك الليلة لا تغادر ذاكرتي السمعيّة..

ألم الفراق الذي يعتصرُ قلبه فيجعله يلهثُ وراء أيِّ أثرٍ ليتَمْوُر يغذِّي لدي شعور الشفقة والتعاطف..

تراودُني وبشدَّة فكرة استطلاع مكان الحادث قرب تلك المغارَة لَعلِّي أوَفَّقُ إلى أيِّ شيءٍ جديد.. يُريح قلبَ السيِّد والسيِّدة فيَّاض..

من يعلم؟ قد أكون أكثرَ دقَّة وتفرغاً في البحث.. أنا على الأقل أريد توثيق معالم المكان بأمِّ عيني..

مع كلِّ هذه الإثارة المُتعلقة بمغارة قريتنا لم أفكر ولو لمرَّة في زيارتها!

لكن عليَّ دراسة الأمر وتَبِعاته جيداً.. فهناك شعرةٌ تفصل بين الشجاعة والتهوُّر".. فكَّرَ سليم بجدِّية وهو يستند إلى جذع شجرة السنديان.. وقد استحوذت الرغبة بالاستكشاف على عقله..

"ها أنتَ ثانيةً تهرب إلى هنا.. بِتَّ غريبَ الأطوار وكثير الشرود يا صاح.. هل هي علامات عشقٍ يا ترى؟"..

اقتحمَ مروان خلوة سليم وأتحفه بتعليقاته السمِجَة كالمُعتاد..

"تركتُ العشق لك يا قيس.. على ما أذكر.. فأنت من يُفرِغ ذاكرة جوَّاله بين الحين والآخر من دردشات الحب وصور الغرام.. ليجدَ مُتسعاً لأخرى جديدة.. لا أنا"..

"إذاً فالأمر أكبر من ذلك.. أكادُ أجزم أنَّه يتعلق بالسيِّد وما جرى لتَيْمُور.. أنت تهدُس في هذا منذ أيام..

لكن أتعلم؟ معك حق.. تخيَّل أن يحالفنا الحظ ونعثر على تلك القلادة الثمينة.. تخيَّل عشرة أمثالِ وزنها ذهباً.. الأمر يستَحقُّ المُجازفة"..

رفعَ سليم حاجبيه باستغراب.. فهي المرَّة الأولى التي يُصيبُ فيها مروان في قراءة الأفكار.. مع فارق الغاية بينهما..

فحافزُ سليم هو إشباعُ فضولِه وإسعادُ غيره.. وحافزُ مروان إشباع جيبه.. والحصول على المكافأة..

لم يرغب بإطلاعِ مروان على خططه بل أوحى له بالعدول عن الفكرة.. ليحاول إثناءَه عنها وكفَّ إزعاجه.. فهو إن اعتزم الشروع في الأمر فسيقدم عليه لوحده.. ولن يكون مُمتناً لعبءِ مرافقة مروان..

"على أيّ حال هي فكرة مجنونة وذهبَتْ في حال سبيلها.. ثم إنَّها خمس سنواتٍ مرَّت على الواقعة.. وتتعشَّمُ أن تجدَ أثراً بعدها هناك لتَيْمُور؟

أنت تحلم يا مروان.. لن يكون بانتظارك هناك إلا الضباع والكلاب الشاردة.. وقد يستقبلك الشبح أو المَسْخُ الذي يتحدَّث أهل القرية عن صولاته وجولاته هناك وتردُّدِهِ على المغارَة.. اذهب إن رغبتَ وحدَك.. لكن لا تنسَ أن تكتب وصيَّتَك قبلَها".. قال سليم مُظهراً عدم مُبالاته للأمر ومُضمِراً خلافَ ذلك..

هو لا يعتقدُ بخرافاتِ المغارَة التي يتسلَّى أهل القرية بسردِها في أمسياتهم.. ولا بوجود مَسْخٍ أو شبَحٍ ما هناك.. لكنَّه يريدُ إخافة مروان ليعدلَ عن الأمر..

"أنت تنوي الذهابَ واستطلاع المغارَة.. أعرفُك يا سليم.. أرى ذلك في عينَيك.. دعنا نترافق أرجوك.. وسأكون خيرَ رفيق.. من الأفضل ألا يذهبَ أحدُنا بمفردِه..

حتى لو لم يكن هناك ما يُخيف.. فالطريق وَعِرَة وغيرُ مألوفةٍ لنا.. سنُسلِّي ونؤازِرُ بعضَنا البَعض.. ولن أزعجك بعد الآن.. أعدُك بذلك"..

"حسناً.. نعَم.. أنا أفكرُ في الأمر.. لكن حتى لو كنتُ أخطِّطُ فعلاً لما تقول.. فمن المؤكد أنَّك لن تكونَ شريكي.. لقد رأيتُ منك العجب في مراتٍ سابقة.. ولن أكرِّر حماقتي في الوثوقِ بك..

صحيحٌ أنَّنا تصالَحنا بوساطة الجدَّة عَواطِف وكُرمي لها.. لكن ستبقى بيننا حدود ولن يعود تقارُبُنا إلى سابقِ عهده".. لم يجدْ سليم بُدّاً من الاعتراف بنواياه.. لكنَّه حتماً لا يريد إرباكَ خطَطِه بتَدَخُّلات مروان..

"طيِّب امنحني فرصةً أخيرةً يا سليم وأعدُك أنَّك لن تندمَ.. فرصة أخيرة فقط لإنقاذ صحبتنا.. وسأكونُ كما تريد.. صدقني أنا وإن بدَوْتُ أرعَناً ومُستهتراً وغير مسؤول.. لكن هناك شيء في قرارة نفسي يعترفُ بذلك وغير راضٍ عنه.. يُؤنبُني ضميري وأريد أن أتغيَّر لكن لا أعرف كيف أبدأ.. لا أملك أشياءً كقوة إرادتك وثباتك واجتهادك في الحياة.. لكنَّني مُعجبٌ بها.. ومن يملك صديقاً مثلك عليه أن يتشبَثَ به بيديه وأسنانه"..

للمرَّة الأولى لمسَ سليم صدقَ مروان وشعورَه بالعجز مع رغبته في التغيير للأفضل.. كان هذا الاعتراف كافياً لاستعطاف واستمالة ضميره.. فَلانَ له.. وفكرَ باستغلال الموقف لتحقيق أكبر قدرٍ من المكاسبِ الأخلاقية.. وفي حقيقة الأمر.. فإن هذه المكاسب أساساً تصبُّ في صالح مروان..

"لن نتواءَمَ معاً ولن يكون بمقدورك تلبية اشتراطاتي يا مروان.. دعنا نفُضُّ هذه السيرة".. أجاب سليم مُراوغاً..

"هيَّا سليم.. قلت لك آخر فرصة.. ولا مَلامة عليكَ بعدَها.. سأكونُ طوعَ بنانِك.. ولتكن القيادة لك في هذه الطلعة الاستكشافية.. ولن يكون هناك مخالفات من جهتي.. أعدك"..

"حسناً سأختبر إرادتك في أبسط أمرٍ يزعجني في صحبتك..

خلال هذا المشوار لن تُدخِّنَ سيجارةً واحدة.. أنا لا أطيق رائحة السجائر والمُدخنين.. وإذا كنا سنترافق.. فلا تدخين".. أرادَ سليم أن يساعد مروان في فكِّ

عقدة إدمان السجائر.. وتجربة الإقلاع عنها تدريجياً والبدء بالمحاولة.. مُستغلاً تمسُّكَ مروان بمرافقته..

"حسناً.. لن أدخن سيجارةً واحدة.. لكن هل أستطيع تدخين خمس؟".. عقَّب مروان بسماجَته المَعهودة.. وطبعِه الذي غلبَ تَطَبُّعَهُ على طلب سليم مازحاً.. لكن تَجَهُّمَ سليم وعبوسَه دفعاهُ للتراجع عن مزحته..

"ما بكَ يا رجل؟ أمازحُك.. حسناً.. طلباتك أوامر سيِّدي القبطان.. سأكون تحت لوائك..

على أيِّ حالٍ.. أعتقد أننا إذا انطلقنا باكراً صباحاً سنتمكن من العودة مع المساء حتى لو تجوَّلنا هناك ساعتين أو ثلاث.. هل نذهب غداً؟".. تساءَل مروان بحَمَاسة..

"لا.. الأمرُ يحتاج إلى تخطيط.. ليس بهذه السرعة!"..

"لماذا يا سليم؟ (دق الحديد وهو حامي).. علامَ المُماطلة والانتظار؟ سنستغل فترة دوام المدرسة ونتغيَّب غداً وننطلق.. ما المانع؟ لا يحتاجُ الأمر لتحضيراتٍ خاصة.. نشحن الجوَّالات ليلاً.. وننطلق بدراجتي النارية نهاراً.. مع زوَّادة طعامٍ كافية.. وهيَّا.. ويا ليل يا عين".. أجاب مروان بإلحاح...

"أتعلمُ أمراً يا مروان؟ مع كلِّ عيوبك.. فلنعترف أنَّك سَلِسٌ ورشيقٌ في اتخاذ قراراتك.. أحياناً لا يكون للمُبالغة في التفكير والإمعان في التخطيط فائضُ نفعٍ.. فلننطلق غداً يا شريك.. على بَرَكَةِ الله"..

تصافحَ المغامِران واتفقا على إعداد العدَّة والانطلاق باكراً في الصباح.. كي لا يتأخرا في العودة مساءً.. فلا أحدَ في القصر يعلمُ بنيَّتِهما..

اختارا إبقاء الأمر قيدَ الكِتمان بينهما.. تَجَنُّباً لإثارة البلبلة.. أو إثارة قلق الأهل عليهما.. فهذه المغارَة بالذات سيئةُ السُمعَة.. ولا أحدَّ يُحبُّ سيرَتها..

"سنذهبُ ونعودُ مساءً بسلام و(لا من شاف ولا من دري)"...

هذا ما اعتَقَدَاهُ!!!

أمُّ المُغامَرات فى أمِّ المَغارَات

دَرَّاجة ناريّة بحالة جيِّدة.. زوادةُ طعامٍ سخيَّة.. جوَّالان مُكتمِلا الشحن..

وبِسمِ الله.. تَوَكَّلا على الله.. وانطلقا صباحاً من القصر صوبَ المغارَة حتى بَاتا على مَشارِفها في غضونِ ساعةٍ ورُبع.. لتبدأ وُعُورة الطريق بالازدِياد شيئاً فشيئاً.. ولم يَعُدْ بالإمكان متابعة المَسير إلا مَشياً على الأقدام..

"حسناً دعنا نركُن الدراجة هنا يا مروان.. يبدو أنَّ المكان خاوٍ وآمِنٌ وما من احتمالٍ لأن يسرقها أحد.. لن تنفعنا بعد الآن.. الطريق باتت شديدةَ الوعورة.. تتخلَّلُها أجَمَاتُ الشجر المُتشابكة.. وتفترشها الصُخور والحجارة..

وهناك مَساراتٌ ضيِّقَةٌ ومُتعرجة يُمكننا بالكاد التوَغُّلَ فيها فُرادَى على الأقدام..

استطلَعْتُ إحداثيات المكان عبرَ خرائط جوجل وGPS على جوَّالي قبل قليل.. سنتسلَّقُ تلك التلَّة ثم نتَّجه نحوَ النهر عند مدخل المغارة الكبيرة تليها سلسلةُ مغاراتٍ أخرى.. لكن علينا أن نتوخَّى الحذر فالأرض في محيط المغارة الكبيرة سبَقَ وأن تكرَّرَتْ فيها الانهيارات والانزلاقات بسبب هشاشتها وتشقُّقَاتِها.. ووجودِ تَكَهُّفَاتٍ تحتَها..

اسمع يا مروان.. عليك أن تدَّخِرَ شحنَ جوَّالك كإجراءٍ احترازيٍّ.. لا تستخدمه أنت.. وسنعتمدُ على جوَّالي حتى إشعارٍ آخر"..

هزَّ مروان رأسه بالمُوافقة والتَصْديق على أوامرِ سليم.. ورَكَنَ الدراجة جانباً.. ليستأنِفا مَسيرَهما راجِلَين..

المكان في ظاهِرِهِ آسِرٌ بجماله وروعة طبيعته الخلابة..

كيف لا؟ وقد اجتمعت فيه كلُّ عناصر الإبهار..

غابةٌ وارفةُ الظلال.. مُترامِيةُ الأطراف.. يَحُفُّهَا من الجنوب نهرٌ تترقرق مياهه العذبة بمُحاذاة سلسلة مغاراتٍ مُتَّصِلة.. وتنتصبُ الجبال من بعيد بقممها المُغطاة بالثلوج شَمالاً..

ولا أثرَ لآدَمِيينَ هنا.. ليس إلا أصوات الطبيعة وأهلها..

حفيفُ الشجر.. خريرُ الماء.. صوتُ طيورٍ تتأرجحُ بين الأغصان المُتشابكة.. ضفادعُ تُرحِّبُ بالغرباء بنقِيقِها المُتقطِّع.. أرانبُ وزواحفُ تقضُّ بحركتِها مَضجعَ الحشائش والأوراق هنا وهناك..

يشقُّ ملامحَ هذا المشهد طريقٌ ترابيٌّ عشوائيٌّ يمتدُّ مُتسلِلاً بخجلٍ بين تضاريسِ وقَسَمَاتِ المكان.. ليأخذَكَ إلى فُسحةٍ ترابيَّةٍ عند مَدخل المغارَة.. ويتخلَّلُ الفسحة تشققاتٌ وفتحاتٌ أرضية تستطيعُ عبرَها رؤيةَ باطنِ المغارَة الكُبرى (أمُّ المغارَات).. بما فيها مِن صواعِد ونوازل..

"آآآه ما هذه التلة التي لا تنتهي.. كان علينا أن نمارس الرياضة لأيامٍ لنرفعَ لياقتنا قبل أن نأتي.. انقطعت أنفاسي".. تذمَّرَ مروان وهو يجُرُّ خُطاه لاهِثاً..

"نعَم هي مُرهقة بالفعل.. وخاصَّة للمُدخنين أمثالك".. أجاب سليم مُتقدماً المَسير..

"لا تُذَكِّرني يا رجل.. كم أتوقُ لتدخين سيجارةٍ الآن بعد هذا التعب..

ما مُشكلتك مع التدخين يا هذا؟ وهل تكتملُ الرجولةُ إلا مع السيجارة؟"....

"على سيرة الرجولة.. ذَكِّرني لدى عودتنا أن أطلِعك على مخاطر وأضرار التدخين على الرُجولة.. وأعني الذُكورة بالذات.. وسنرى بعدَها رأيك بالموضوع أيُّها الفَحْل"..

"حسناً.. حسناً.. لا أريدُ أن أعرف.. شكراً.. احتفظ بمعلوماتك لنفسك"...

"وهنا تكمنُ كلُّ المشكلة يا صاح.. بأنَّك لا تريد أن تعرف"... أجاب سليم قبل أن يتوقفَ مروان فجأةً ليبدو أنَّه تذَكَّرَ أمراً مُهماً للتوِّ:

"آآآخ.. لقد نسينا كيسَ الماء والعَصَائر في السلَّة الخلفيَّة للدراجة..

ما هذه الاستفتاحية؟ لن أعودَ أدراجي لِجَلبِه حتى وإن مِتُّ منَ العطش"..

"لاا.. لا تقل هذا يا رجل.. ما هذه الخبريَّة؟

العودةُ لجلبِه صَعبة.. لكن البقاءَ طيلة اليوم بدونِ شربٍ أصعب.. نحن لا نحمل حتى ما نملأ به ماء النهر إن أردنا أن نرويَ ظمَأنا.. ما هذه البداية العاثِرة يا مروان؟"..

"ألستَ الأنشطَ حتى الآن؟ رجاءً.. عُد سريعاً وائتِ به يا سليم.. وسأنتظرك على رأس التلة"..

"آآآه.. أمري لله.. سأعودُ لجلبه.. لا يُمكننا الاستغناءُ عنه.. لا خيارَ آخرَ أمامنا"..

عادَ سليم أدراجَه لإحضارِ العَصائِر والماء.. وتابع مروان سيرَه وصولاً إلى التلة ثم جلس ليلتقطَ أنفاسَه تحت فيءِ شجرةٍ ضخمة..

وما أن انفردَ بنفسِه حتى سَوَّلتْ له تَفَقُّدَ لعبةٍ يشتركُ بها مع آخرِين على الجوَّال ريثما يعودُ سليم..

"لا بأس بتسجيل الدخول قليلاً فقط.. سأتفقَّدُ الوضعَ وأطمَئِنُ على رصيدِ نقاطي في اللعبة وأثبِتُ وجودي لدقائق ثم سأغلق الجوَّال للحفاظِ على شحنه"..

فكَّرَ في سِرِّهِ.. ودونَ أن يشعرَ وبسببِ إدمانِه اللاوَاعي لهكذا ألعاب.. امتَدَّتْ الدقائقُ المَزعومة لتتجاوزَ النصفَ ساعَة.. وسَرَحَ يلهو في الانتظارِ.. ولم يَلجم شرودَه وتورُّطَه في اللعبة إلا رؤيته قوامَ سليم وهو يتهادَى قادماً بإنهاكٍ من بعيد..

خرجَ من اللعبة بسرعة ودسَّ جوَّاله في جيبه في عُجالة لئَلا يتنبَّهَ صديقه للأمر.. ونهضَ في استقباله حامِلاً عنه الكيس الذي أجهَدَهُ..

"عافاكَ اللهُ يا أبو السِلُم.. اجلس ولتَرتَح قليلاً ثم نتابع مَسيرنا"..

"لا لا.. لا داعي لا نريد أن نتأخرَ.. ضعْ الكيسَ في الحقيبة واحملها أنت ولنُتابِع"..

أكمَلَ الرفيقانِ مَسيرَهما وصولاً إلى مجرى النهر وكان عليهما اجتيازه عبر جِذع شجرةٍ عَملاقةٍ يبدو أن إحدى العواصف الرعديَّة قد أطاحت به أو أن أحداً فيما مَضى أسنَده فوقَ النهر ليُشكِّلَ مَطيَّةً كجسرٍ خشبي طبيعي فوق إحدى تضايُقات النهر..

مَشَيَا بِحذرٍ عليه مَخافة الانزلاق.. فتيارُ المياه الباردة للنهر قويٌّ اليوم.. والسقوطُ عن الجذعِ كارثة!

"أخبَرَتني جدَّتي أن هذا النهر تجمَّدَ مرةً إثرَ موجةِ صقيعٍ استثنائيّة هاجَمت القرية منذ ثلاثين عاماً.. فأصبح الناس يمشون على سطحه الجليدي في الجزء الجنوبي منه والذي يمُرُّ بمُحاذاة القصر..

تقول أنَّهم تزحلقوا فوقه كما الرقص على الجليد.. تصوَّر لو كان الأمرُ كذلك.. لركضنا الآن على سطحِه يا سليم"..

"أتعلم؟ لولا لطفُ الله.. لتحوَّل رقصُ الجليد ذاك إلى مَأتم!!

سمعتُ منذ فترة خبراً مُؤسفاً عن ثلاثة أطفال لقوا حتفَهم بعدما سقطوا في بحيرةٍ يُغطِّيها الجليد في (ويست ميدلاندز) وسط إنجلترا..

كانوا يلهون على سطح البحيرة المُتجَلِّد مُتوَهِّمِينَ صلابَته عندما انخسَفَ بهم فجأةً.. ليتم انتشالُهم لاحقاً وقد توقَّفتْ قلوبُهم من البرودَة الشديدة.. الأمر لا يتعلَّقُ بثقتك بمهارَتك في العَومِ والسِباحة..

اللهو فوقَ الجليد ليسَ مُزحة.. فلا أحدَ يستطيعُ التَكَهُّنَ بكثافته ومدى صلابته وأمانِه.. قد تعتقدُ أنَّك على سطحٍ صلبٍ.. فيفاجِئك بهشاشتِه ويتصدَّع.. لتهبط ويبتلعك ما تحته بقلبٍ باردٍ ودونَ إنذار"...

"لديكَ دائماً إجاباتٌ صادمة جاهزة لكلِّ تعليقٍ يا سليم.. دعني على الأقل استمتع بتخيُّلِ الصورة التي غرَسَتْهَا جدَّتي في ذهني عن سعادة أهلِ القرية وهم يتزحلقُون بِخفَّةٍ فوقَه"..

"حسناً.. هل تريدُ أن أصفِّقَ لهم وأُثنِيَ على جُرأتِهم.. ثم تقعُ كارثة؟

الحمد لله أنْ كَتَبَ السلامَة حينَها.. لكنَّ الخطورة كانت واردَة وبشدَّة..

أحياناً لا ينفعُك إغماضُ عينيك عن جِدِّيَّة الأمورِ لترتاح.. فهذا لا يَعْدو عن كونِه تخديراً مُؤقتاً للعقلانية.. وقد لا تُحْمَدُ عُقبَاه"..

أجاب سليم وهو يَطَؤ بقدميه اليابسة على الطرف المُقابل لضفة النهر.. ويمدُّ يدَه لمروان ليحمِلَ عنه الحقيبة فيعينه على القفز من الجذع باتجاه الضفة هو الآخر..

ها هي أمامَهما الآن وعلى مُقربةٍ منهما فُسحةُ المَغارَات بعد تجاوُزِهِما النهر.. لكن المَسافة إلى مَدخل المَغارة الكبيرة تتخللها تشققاتٌ وهشاشاتٌ في صلابةِ الأرض وعليهما أن يَمشِيَا بِتَؤُدَةٍ وحذَرٍ كمَن يتجَوَّلُ في حقلِ ألغام..

"انظر يا سليم.. ذاك مَدخلُ المغارَةِ ليسَ ببعيد.. يا إلهي.. أكادُ أشعرُ ببرودتِها ورطوبةِ هوائِها من مكاني هنا!!

سبحانَ الله!! كيف تتقَوْلَبُ هذه الفَجوات والتَكَهُّفَات بين الأرضِ وسطحِها؟"..

"نعَم.. لكن احذر يا مروان.. فمساراتُ المياه الجوفيّة وتسريباتُها التي تختَرِقُ شقوقَ الصخورِ الكلسية تزيدُ من فرصة تشَكُّلِ تجاويف فارغة تحت سطح الأرض وتصدُّعاتٍ فوقَها.. وعلينا أيضاً الاحتراسُ من الصخور التي تتساقطُ من جدران وأسقف المغارَات.. قرأتُ بالأمس ما يكفي ليجعَلَنا شَدِيدَي الحذر حيالَ هذه الاحترازَات"..

"حسنا.. حسناً لا تَخَفْ يا سليم.. سأكونُ حذراً.. هل نتقدَّمُ لندخل؟

هل تعتقدُ أن تَيْمُور دخلَ ليلتها لاستطلاع المغارَة؟

لكن كيفَ وصلَ بدراجته إلى هنا؟

الطريقُ شديدةُ الوعورةِ.. ناهيكَ عن وجودِ مجرى النهرِ عائقاً أمامَه"..

"هناكَ عدَّة طرقٍ للوصول.. نحن سَلَكْنا الطريقَ الأقصرَ من القصر إلى طرف الجادَّة التي نَركنُ فيها الدراجة الآن.. لكن يوجد حسب خرائط جوجل ثلاثة مَنافذ تؤدي إلى المكان هنا.. ثم ما أدرَانا كيفَ كانت ملامحُ الموقع قبل خمس سنوات؟ دعْنَا الآن في المهم.. واتبعني على نفس المسارِ بِبُطءٍ"..

توقَّفَ سليم فجأةً وحدَّقَ في المغارة مُتوَجِّساً:

"أرى أن نستطلعَ تفاصِيلَها قبل ذلك على GPS ما أمكن.. لا أحبِّذُ فكرةَ ارتيادِ مكانٍ مجهولٍ ومُريب قبل جمعِ معلوماتٍ بقدرٍ مَعقولٍ عنه.. ليسَ من الحكمة أن نخوضَ غِمَارَها بسرعةٍ هكذا يا مروان"..

"ما بكَ سليم؟ الآن؟ وفي هذه اللحظة سنجمعُ معلوماتٍ عنها ونحن أمامَها؟

أليستْ كما قلتَ مغارَةً كباقي المَغارَات العاديَّة؟ هل ترتابُ من شيءٍ ما؟

أنت أولُ من يُنكِرُ أنَّها مَسكونةٌ ويَستخِفُّ بفكرة وجود الأشباح أو المخلوقات الغريبة أو المَسْخِ الذي طالما تحدَّثَ عنه مَن اقتربَ من المكان هنا من أهل القرية.. ما الذي استجدَّ الآن؟"..

" لا لا.. لستُ مُرتاباً على الإطلاق.. خاصَّةً وأنَّنا في وَضَحِ النهار والطقس جميلٌ ولا علامات تَسِمُ المشهدَ بسماتِ أفلام الرعب التي يرويها أهل القرية.. لكنَّ الحرصَ واجبٌ".. أجابَ سليم مُحاولاً إخفاء تَردُّدِهِ..

هوَ لا يعلمُ ما الذي اعتراهُ الآن.. لكنَّهُ يشعرُ بانقباضٍ مُفاجئٍ في صدرِهِ.. يدفعُه إلى التَريُّثِ.. لكن إلى متى؟

"هيَّا هيَّا.. هل تريدُ أن أسبِقَكَ وأدخُل؟ كفَّ عن المُماطلة واعترف أنَّكَ خائفٌ".. هتفَ مروان مُستفزاً هِمَّةَ سليم..

"مُماطَلة؟ من هذا الذي يُماطل؟ أنا؟

تفضَّل معي ولنمشِ بنسقٍ مُتَّصِلٍ.. اتبَعْ خطواتي ليكونَ مَوطِئَ قدمِنا واحدٌ.. فلا يزِلَّ أحدُنا أو ينزلق أو يخطو فوق مكانٍ مُتصدِّعٍ".. أجابَ سليم وقد همَّ بالتقدُّمِ صوبَ مدخلِ المَغارَة.. يتبعُه مروان.. يَمشيان الهُوينى مَخافة أن يَحيدا عن صَلابَةِ الأرض..

أمُّ المَغارَات.. المَغارَةُ العَتيقةُ.. المَغارَةُ الكبيرةُ.. ومُؤَخَّراً (مَغارَةُ المَسْخِ).. كلُّ هذهِ تسمياتٌ لمكانٍ واحدٍ.. يّلُفُّهُ الغُموضُ..

نعَم.. قَصَدَهُ العديدُ من الأشخاص من قَبل.. لكنَّ تِكرَار الحوادث الغامِضة المُتَعَلِّقَة به وإشاعات وجودِ مَسْخٍ يطوف في الأرجاءِ المُحيطة.. جعلَ الجميعَ يُحجِمُ حتى عن فكرةِ الاقترابِ من هذه المنطقة.. علاوةً على وُعُورَةِ الطريقِ إليها.. فالمَسيرُ من القرية إلى تلَّةِ النهر بِالكَاد يُمكن إتمامه بدراجةٍ نارية..

الأمرُ صعبٌ جداً بالنسبةِ لوسائلِ نقلٍ أخرى من سيارات أو باصات.. ولم تُولِ الحكومةُ بعدُ اهتماماً بتأهيلِ المَكان سياحياً أو إرسالِ فرق تنقيبٍ نظاميةٍ مُختصَّة.. فاقتصرَتْ زيارةُ المَغارَةِ على مُحاولاتٍ فرديَّةٍ من بَعضِ المُستكشفين والرَحَّالةِ الغُرباء.. وعلى مَسؤوليَّتِهِم..

لا يُعرَف عنها إلا القليلُ من التفاصيل.. ويُعزى شحُّ المعلومات هذا أنَّ أحداً لم يُكمِل سَبْرَ أغوارِها للنهايات حتى الآن.. علاوةً على التحامِها مع سِلسلةِ مغاراتٍ مُجاورة أصغر حَجماً.. تتوزَّعُ حولَها لتُشَكِّلَ مَتاهةً حقيقيَّةً..

المَغارَةُ ذاتُ تجاويفٍ وشعابٍ ضيقة.. وردهات وهياكل وقاعات نحتَتْها الطبيعة.. وتسرَّبَتْ إليها المِياه الكلسِيَّة من المُرتفعات القريبة لتَنحتَ مع مُرور الزمن عالماً من القِباب والأشكال والتكويناتِ العجيبة..

ما يُعرَف عنها إلى الآن.. أو ما تمَّ توثيقه من وصفٍ أوليٍّ لها.. أنَّها مُكوَّنةٌ من خمس طبقاتٍ.. منها العُلويُّ الجَاف.. والسُفليُّ المائيُّ.. وتنحدرُ إلى قرابةِ السبعينَ متراً على الأقل تحتَ سطحِ الأرض.. ليُمَيِّزَها شَكلُها اللولَبيُّ..

وقد رَسَمَتْ الطبيعةُ مناظرَ جذابةً من شلالات ودهاليز حجريَّة وطبقات متداخلة وأحجار كلسية بأحجامٍ مُتنوِّعَةٍ داخلها على مَدى عشرات السِنين..

فجَوفُ المَغارَةِ مُزيَّنٌ بسلاسل مُتلاحِقة من الصَواعد والنوازل أو ما يسمى بالمُتَدَلِّيات.. وهي عبارة عن تشكُّلاتٍ كلسيَّةٍ بفعل مياه الأمطار الحمضية الغنية بثنائي أوكسيِّد الكربون.. التي تسبِّبُ ذوبان الصخور الكلسية..

وتبدو النوازل والصواعد مُتشابكةً وقد يلتقي بعضُها ويلتحمُ لتشكيل أعَمدةٍ تُؤَرِّخُ عَراقةَ المكان..

أمَّا المَغارَةُ السُفلى فيتدفَّقُ فيها نهرٌ جوفيٌّ يُشَكِّلُ الجزءَ المَغمورَ من منابع نهر التلة المُحاذِي.. ولا أحدَ يعلمُ بدقَّة أينَ يَصبّ!!

وصلَ الصديقان أخيراً إلى مَدخلِ المغارَة المُقنطَر.. يسبِق بَصرُهما خطاهما.. بعد أن تجاوزا الفُسحةَ التي يبدو أنَّها تُشَكِّلُ سقفاً لجزءٍ من المكان..

فهي تعجُّ بالشقوق التي تسمحُ لكَ بالتَّلصُّصِ واستراقِ النظرِ من فوق ورؤية باطنِ المَغارَة تحتَ الأرض حتى قبلَ أن تَلِجَهَا..

عالَمٌ آخَر

في اللحظةِ التي قرَّرَ فيها الشريكان دخولَ جوفِ المغارة سَمِعَا صوتاً غريباً من خلف الأشجار المُحيطةِ بالمكان.. بدا وكأنَّه شيءٌ يتحرَّكُ سريعاً بين الحَشائش الطويلة..

"هل سمعتَ ما سَمِعتُ؟".. سألَ مروان بِتَوَجُّس..

"نعَم نعَم.. يبدو أنَّ الصوتَ آتٍ من هناك.. من خلف تلك الشجرة الكبيرة.. لكن قد يكون أرنباً أو سنجاباً أو أيَّ حيوانٍ آخر.. ما بكَ يا مروان؟ ألستَ من عابَ تردُّدِي قبلَ قليل؟ أرى أن صَوتاً مُفاجِئاً كان كَفيلاً بسلبِكَ شجاعتك..

إنَّها غابةٌ كبيرةٌ يا رجل.. غاااابة.. وفيها ما فيها"...

"حسناً حسناً.. لكن لماذا أشعرُ أنَّه أكبر من أن يكونَ أرنباً أو سنجاباً.. هو كائنٌ مُرتفعُ البَدَنِ.. عندما التفَتُّ إلى مَصدرِ الصوت كانت الحشائشُ ومعها الأغصان تتحرَّكُ سويَّةً.. ولا أعتقدُ أنَّ هذا فِعْل أرنب"...

"حَسناً إنَّه دُبٌّ.. هل ارتحتَ الآن؟ هيَّا ولندْخُل.. أخشى أن نتأخر في العودة".. أجابَ سليم مَازحاً ومُحاولاً التقليل من شأنِ تَحليلات مروان..

"دعنا فقط نرمي حجراً كبيراً صوبَ تلك الشجرة وسيتحرَّك مُجَدَّدا إن كان ثمَّة شيء يختبئ خَلفها وسنرى حركَتَه هذه المرَّة بوضوح لنقطعَ الشكَّ باليقين ونرتاح".. اقترحَ مروان وهو يَلتقطُ حجراً بحجمِ كفِّهِ لَيَرميَهُ بقوةٍ على تلك الشجرة.. وحدَثَ ما لم يَكُنْ مُتوقعاً!!!

من جَديد.. تحرَّكَ شيءٌ فجأةً بين الأشجار وبدا هذه المرَّةَ أنَّه جسمُ آدميٍّ..

هناك حَقاً مَن يَجُولُ في الأرجاءِ هُنا!!

تراءى لهُما خيالُ جسمِ إنسانٍ.. يَثِبُ بين الأشجار مُبتعداً بِخِفَّة.. لِيَلْتَفِتَ أخيراً قبل أن يختفيَ.. فيُشاهِدا مَلامِحَهُ بشكلٍ خاطفٍ وبدونِ وضوح..

"ما هذا يا سليم؟ وتقولُ أنَّها خُرافات؟ أرأيتَ ما رأيتُ؟ ما هذا الوجه؟

إنَّه مَسْخٌ يا سليم.. مَسْخ"... صرخَ مروان وقد انتابَتْهُ حالةٌ من الذُعر..

"مَهلاً يا مروان.. تَمالَك نفسَكَ يا رجل.. ها قد ابتعدَ هارباً.. ألم ترَ؟ خذْ واشرب القليلَ من الماء".. استلَّ سليم قنينةَ الماء من الحقيبة وناوَلَها لصديقِه مُحاولاً التهدئَة من رَوعِهِ.. ومُخفياً قلقَه وارتيابَه هو الآخر إزاءَ ما شاهداه للتوِّ..

كان بالفعل كائناً بصورَة آدميٍّ.. لكنَّ وجَهَهُ مُشوَّهٌ كما لو أنَّهُ مَسْخٌ..

أظهرتْ من بعيد تلك اللقطة التي اقتَنَصَاها من التِفَاتَتِهِ الأخيرة نحوَهم وجهَ مَسْخٍ تُغَطِّيه الدَمَامِلُ بجلدٍ مُنْكَمِشٍ يَبدو كما الحُروق..

"ماذا سنفعلُ الآن؟ دعنا نرجعُ بسلام.. لم أعدْ مُطمَئِنَّاً لهذه المُجازَفة".. تمتمَ مروان..

"اهدأ يا مروان.. حسناً هو مَخلوقٌ ما وابتعدَ الآن.. هل يُعقل أن نكون على مَدخلِ المغارَة ولا نُلقي نظرةً سريعةً لِداخِلِها؟ مِتران فقط يفصلانِنا عن استطلاعِها يا رجل.. مِتران"...

"وعشرةُ أمتارٍ كانت تَفصِلنُا عن مَسْخٍ مُرعِبٍ يبدو أنَّه يُراقبُنا ويتربَّصُ بنا"... أجابَ مروان باستنكار..

"طيِّب.. امنحني عشر دقائق فقط أدخلُ فيها لإلقاءِ نظرةٍ خاطفةٍ على ما في الداخل وأعود.. انتظرني هنا يا مروان ولن أتأخر"..

"ماذا؟ أتمزح؟ تعتقدُ أنِّني قد أبقى هنا لوحدي بعد ما رَأيناه الآن؟"..

"حسناً استجمعْ شجاعَتك إذاً ورافقني لعشرِ دقائق ثم نعودُ أدراجَنا..

على أيِّ حالٍ.. من الواضح بأن هذا المخلوق الذي رأيناهُ كانَ يُلاحقنا منذ وقت.. وسيبقى في الجِوار.. أعتقدُ أنَّ باطنَ المَغارَة باتَ الآن أكثرَ أماناً من خارجِها.. فلندخُل لعلَّه يفقِدُ أثرَنَا فيَنصَرف"..

أجابَ سليم مُحاولاً إقناع صديقِه الذي رَضَخَ لمَطلبه.. ليستأنِفَ الشريكانِ سيرَهُما ويَلِجَا أمَّ المَغَارات..

ما إن تَقَدَّما بضعة أمتارٍ في الداخل حتى تَغَيَّرَ مزاجَهُما فجأةً.. واختلفَ المَشهدُ كُليَّاً!!!

"ربَّاه! ما هذا الجمال! سبحانَ الله.. تَباركَ الله!!

أترَى هذا الإبداع يا مروان؟ أهكذا تكونُ المَغارَاتُ حقيقةً منَ الداخل؟"..

وقفَ سليم بعد أن اجتازَا المدخلَ الحجريَّ المُقوَّسَ وتَوَغَّلا بضعةَ أمتارٍ في نفقٍ شاقوليٍّ يُفضي إلى جَوفِ المَكان وقفَ مَشْدُوهاً يُحرِّكُ رأسَه بالاتجاهينِ الأفقيِّ والشاقوليِّ ١٨٠ درجة كَمَن يُجري مَسْحاً بَصريَّاً للمكان بِأسرِه..

بدا الأمرُ خيَاليَّاً بالفعل.. مروان أيضاً حَمْلَقَ في تفاصيل المكانِ بِدهشة.. ونسيَ لبُرهة ما استبدَّ بهِ من ذُعرٍ قبلَ قليل..

كان للوقوفِ في جَوفِ المَغارَة وتَمَعُّنِها وقعاً غَريباً على كِلَيهما.. كمفعولِ المُخدِّر..

فالطبيعة البكر للكهوف والمَغارات تمتلك جاذبيّةً خاصَّة.. وتتمتع بسرٍّ غامضٍ..

هناك هالةٌ من الهَيبة تهيمنُ على المَكانِ بِرُمَّتِهِ.. صوت.. صورة.. إضاءة.. رائحة.. مَلمَس.. وكلّ شيء.. كلّ شيء..

فصوتُ تقاطرِ حبَّاتِ الماءِ وهي تَتَتَالا في زَحفها وسُقوطِها ببطءٍ من النوازل الكلسيّة يُعانق صَداه صوتَ كتلةٍ كبيرةٍ من الهواء تدورُ بفعلِ الاختلافِ الحراريِّ بين الغلاف الجويِّ الداخليِّ والخارجيِّ والاختلافِ في الضغط الجويِّ.. لتمتزجَ رائحةُ الهواءِ وهو يتحرَّكُ بأثرِ الصخورِ والماء..

وتُمثِّلُ حِزَمُ الضوءِ التي تَنْسَابُ وتتسلَّلُ إلى المَغارَةِ من الشقوقِ والتَّصَدُّعاتِ والفتحاتِ السقفيَّةِ المُتفاوتَةِ في مقاساتِها وأشكالها وانعكاسها على المياه الصافية ثم انكسارها لبلوغِ القاعِ الرمليَّة بعُمقٍ يتجاوزُ عشراتِ الأمتار تُمثِّلُ مَصدرَ تَوَهُّجِها الفريدِ باللونِ الأزرق..

جُدرانُ المَغارَةِ بتجاويفِها وصُخُورِها الكارستيَّةِ وخُطوطِ تقاسيمِها النافرَة المُتوازية التي تَبدو كالتجاعيدِ المَصقُولة.. تَتَلوَّنُ أيضاً تِبعاً لنوعِ المَعادِن الخام التي تَدخلُ في التكوينِ الحجريِّ لها..

بعضُها ضاربٌ إلى البُنِّي.. والآخر إلى الشَمْعيِّ المُصفَرِّ.. وهناك ما لَهُ بريقٌ كما لو أنَّ شذراتٍ من الذهب قد تَغَلْغَلَتْ فيه..

هما الآن في القسم العلويِّ بما فيه من مَتاهات حجرية وسراديب مُتشعِّبة وأنفاق مفتوحة تُؤدي إلى القسم السفليِّ بمُسطَّحاتِه ومجاريه المائية.. وكأنَّهما يَعتليانِ شرفةً تطِلُّ على بُحيرةٍ مُحاطةٍ بالتضاريسِ الصخريةِ العجيبة..

لعلَّ ما يُمَيِّزُ هذا المكان ويحفظ له هَيبَتَهُ أنَّ أحداً لم يعبثْ بهِ مِنَ البَشَر..

هو مَحضُ تُحفَةٍ طبيعيّةٍ لم يَمْسَسْها تَدَخُّلٌ سافرٌ من الإنسان.. أو يُفسِدْها طُوفان التكنولوجيا..

"تعالَ يا سليم وانظر إلى هذه الصواعد والنوازل المُتلألئة كالثريَّات.. لم أرَ في حياتي مثل هذا الجمال!!

أووووه كم هي باردة!! ضعِ الحقيبةَ جانباً ولنستطلِع الطريق إلى الأسفل.. تُرى أيُّ مَمَرٍّ قد يُفضي إلى هناك! هناك بحيرةٌ في الأسفل يا رجل.. معقول؟

لم أتخيَّل أن سطحَ الأرضِ التي نمشي عليها يُخفي تحتَهُ عالَماً مُبهراً مُختلفاً إلى هذا الحدِّ.. كُنَّا قد اتفقنا على عشر دقائق.. لكنَّها حتماً لا تكفي لِما أتوقُ لاستكشافه الآن.. لنعتَبر الاتفاق لاغٍ يا صاح"..

"أرَأيت؟ تَستحقُّ هذه المغارات مُحاولة استكشافها.. لكن احذر وامشِ ببُطءٍ يا مروان فالمغارات تغدُر أحياناً.. عَكَفتُ في اليومَين الماضيَين على جمعِ الكثيرِ من المعلومات عبر جوجل ويوتيوب عن خباياها وأخطارِها وحوادثِها المُحتمَلة..

تتَطلَّبُ مهمة استكشاف المَغاور تدريباً فيزيائياً وتأهيلاً تقنياً خاصاً.. ويتطلّب الظلام في باطن الأرض إنارةً مُستديمة.. ولذلك فإنّ الخوذات البلاستيكية التي توفِّر حمايةَ الرأس من الصدمات المُتوقعة وإمكانية سقوطِ الأحجار تكون مُجهزةً بنظامِ إنارةٍ أمامية مؤلّفة من حزمة ضوئية تُغذِّيها مُدَّخرةٌ كهربائية.. أمّا اللباس فيجب أن يكون كتيماً وبقفازات ومقاوماً للبرودة والرطوبة وهناك حاجة لجزمات الكاوتشوك المَطاطية مع كثرة المَسارات والمُسطَّحات المائية..

أغلبُ المَمَرَّات والدهاليز والتجاويف هنا مُعتِمة لكنَّني لستُ قلقاً بخصوص الإنارة.. سنستعينُ بضوءِ فلاشي وحتى إن نفدَ شحنُ جوّالي.. هناك فلاشُ جوَّالكَ"..

تَسَمَّرَ مروان لدى سماعِه آخرَ عبارةٍ من سليم.. (هناك فلاش جوَّالكَ)..

"يا إلهي.. نسيتُ أن أغلِقَ جوَّالي وأوقِفَ تطبيقَ اللعبة بعد أن باغتني سليم بعودته وأنا في انتظاره عند رأسِ التلة.. كم أنا غبيٌّ ومُستهترٌ!!

لم أحافظ على شحن الجوَّال وأهدرتُهُ في تلك اللعبة البَغيضة.. ولا بدَّ أنَّه استُهلِكَ الآن في غفلتي الطويلة عنه..

يحقُّ لسليم أن ينعَتَني بالتافِهِ عديمِ المَسؤولية.. هو يبذلُ قصارى جهده ويخطِّطُ بجدِّية لإتمام رحلتنا هذه بأمان.. وأنا أتهاوَنُ في الأمر..

لستُ أهلاً للثقة.. أصلَحَنَي الله"... فكَّرَ مروان في سِرِّه وقد بدا عليه الندمُ والإحباطُ والحَرَجُ..

ثم أخرجَ جوَّالَه من جيبه بفَزَعٍ لتَفَقُّدِ رصيدِ شحنِ بطاريَّته..

" ماذا؟ ١٣ بالمئة فقط؟ ما أغبَاني!

لن يعَملَ الفلاش بهذا القدرِ الشَحيحِ من الشحن.. هو بالكاد يكفي لإجراء اتصالاتٍ طارئة إن اقتضت الحاجة..

عليَّ الاعترافُ لسليم قبل توريطِهِ وفواتِ الأوان.. ولأكُنْ شجاعاً ومسؤولاً ولو لمرَّة واحدة.. مَهما كلَّفَ الأمر"... فكَّرَ قبل أن يَهْمِسَ بِتَرَدُّدٍ..

"انتظر يا سليم.. أريدُ أن اعترِفَ لكَ بشيء"...

"خير؟".. التفتَ سليم بانتباهٍ يشوبُه القلق..

"أعرِفُ أنَّني وعدتُّكَ بالتزام تعليماتك.. وتعهَّدتُ بأن أكونَ صاحبَ مسؤوليةٍ.. لكنَّني أخلفتُ وعديَ مرَّةً أخرى ولا أستَحِقُّ ثقتَكَ بعدَ الآن.. سامِحني يا سليم.. أنتَ تُعَوِّلُ على شحنِ جوَّالي وشدَّدْتَ على ضرورة عدمِ استخدامي له.. كي ندَّخِرَه للحاجة.. لكنَّني فرطتُّ بالشحنَ بغباء..

إدماني لألعاب الإنترنت جعلني أدخل اللعبة صَباحاً وأنا في انتظارك على التلة.. ولدى عودتك دسَسْتُ الجوَّال في جيبي بعُجالةٍ ونسيتُ إغلاقَه..

ولكَ أن تتوقعَ بقيَّة الحِكاية"...

"ماذا؟ استنفَدتَ شحنَكَ؟ إلى متى ستظلُّ تفاجِئُني وتخذلُني بأفعالِكَ الصادِمة يا مروان؟

ألسنا شَريكَين في هذا الوضع؟ يُعجبك الحالُ الآن؟ أن تقطَعَنا هكذا ونحن في منتصف الطريق؟

ليس هناك ما يُمكن قوله أو فعله لك الآن..

أتعلم؟ لم يُزعجني نَفادُ الشحنِ بقدر نفادِ إرادتك والتزامك.. كنتُ أتمنى أن أرى فيك فضيلةً واحدة.. فضيلةً واحدة يا رجل أستطيعُ التحدُّثَ عنها وامتداحَكَ بها"..

"صدِّقني أنا أحتقرُ نفسي.. ولا أحبُّ طباعي هذه.. لكنَّني عاجزٌ عن تَغييرها" أجابَ مروان وقد حَشْرَجَ صوتُه..

استشعرَ سليم نَدَمَ صديقِه وقلَّةَ حِيلته.. ولمَسَ فيه صِدْقَ الرغبة بالتغيير للأفضل.. لكنه ضاقَ ذرعاً بضعفِ إرادتِه..

"تحمَّلتُ الكثيرَ منكَ يا مروان.. لا أريد أن أخسرَكَ.. لكن طَفَحَ الكَيلُ..

أعلم أن نوايَاك حَسنة.. لكنَّها لا تكفي.. عليكَ أن تُرفِقَها بأفعَالِك..

أتَرى نتيجةَ استهتارِكَ الآن؟

ماذا عليَّ أن أفعل لأرفعَ حِسَّ المَسؤولية عِندَك بهذا القدرِ فقط؟"... أشارَ سليم بإصبَعَيِّ السَبَّابةِ والإبهامِ مُتَقَاربَتَين أمامَ وجهِ مروان..

"سامحني يا سليم.. أنتَ غالٍ على قلبي ولا أقصدُ إزعاجك أو إثارة غضبك.. أعدُك ألا تتكرَّر حماقاتي مُجدَّداً.. أعدُك أن أفكر مَرَّاتٍ قبل أن أقدِمَ على أيِّ تصرفٍ أرعَن"..

"أنا مُضطرٌّ لتجاوزِ الأمر الآن.. لكن لدى عودتِنا هناك كلامٌ آخر"..

أجاب سليم قبل أن يُديرَ ظهرَه لمروان ويستمرَّ في السَير بِخُطىً مُتسارعة مُتَوَغِّلاً في عَمقِ المَغارَة..

"دَعنا لا نُفسِدُ مُتعَةَ رحلتِنا يا سليم.. لا تغضَبْ منِّي أرجوك"..

صَرَخَ مروان مُستَجدِياً وهو يلحقُ بصديقِه الغاضب.. وما إن أدرَكَهُ ورَبَتَ على كتفه.. حتى استدارَ سليم وصدَّهُ مُجدَّداً دافِعاً إيَّاه إلى الوَراء.. ولشدَّةِ انفعَالِه وبسَببِ تَضاؤلِ إنارةِ المكان.. لم ينتبه أنَّ بجوارِه فجوةً أرضيَّة تُفضي إلى كهفٍ سُفليٍّ تحت قدمَيهِما.. ولأنَّ الصخور مَصقولة ومَلساء زَلَّتْ قَدَمُ سليم لينزلِقَ مُتَدَلِّياً وهو يَتشَبَّثُ بحافةِ الفجوة مُحاولاً ألا يَسقط إلى قاعِ الكهف..

"سليم.. تَمَسَّكْ يا صَاحِبي.. لا تَخَفْ لن أفلِتَ يَدَكَ".. هَرَعَ مروان للإمساكِ بذراع سليم مُحاولاً جَذْبَهُ إلى الأعلى.. لكنَّه لم ينجح.. فجسمُ سليم مُتدلٍ حتى إبطَيه وقد ارتكزَ بِسَاعِدَيه وأكواعِه فقط على حافَّةِ مُحيط الفجوة..

لم يُفلح مروان بانتشالِهِ بسببِ ثِقلِ الوَزنِ المُتَحَرِّرِ في الهواء.. لكنَّه ظلَّ مُمسِكاً تارةً بمِعصَم يدهِ وتارةً أخرى بِسَاعِدِه.. جاثِياً على رُكبَتَيه أمامَ وجهِهِ على أملِ تهدئَتِهِ وبَثِّ عَزيمةِ الصمودِ فيه..

طلبَ مِنهُ النهوضَ بكوعَيهِ لأعلى بالتزامُن مع حرَكةِ الشدِّ التي يقومُ بها هو.. كرَّرا المُحاولةَ معاً مِراراً دون جَدوى..

هُما لا يَهابَانِ الإصابة بالأذى جَراءَ السقوطِ في قاعٍ تَكَهُّفٍ لا يتجاوزُ عَمقُه بضعة أمتارٍ.. لكن السقوطَ يعني الاحتِجاز.. فلا سبيلَ بعدَهُ إلى العودة وبلوغ السَطح.. وهذا ما لم يَكُن بالحُسْبَان..

"اترُكني يا مروان.. يبدو أنَّ الأمرَ مُستحيل.. أشعرُ بأنَّني عالقٌ هنا في هذا الكهفِ لا مَحالة.. بدأتُ أتعب.. اطلبْ النجدَّة من أحد.. جوَّالي في جيب سُترَتي لكن لا أستطيع التقاطَه للاتصال.. حاول أنت الاتصال من جوَّالِك"..

"حسناً حسناً سأتصلُ بالعَم جابر الآن.. لن أتركَكَ تسقطُ أبداً.. اصمد يا سليم"..

بقيَ مروان مُتَشَبِّثَاً بذراع صديقِه بإحدى يَدَيه.. وأخرَج باليد الأخرى جوَّالَه ليُجرِّبَ الاتصال.. لكنَّهما في عَمقِ مَغارَة.. ولسوءِ الحظ.. لا تغطية للاتصالات أو للإنترنت مُتوَفِّرة في نطاقِهما الآن..

"يا إلهي.. لا تغطية لشبكاتِ الجوَّال هنا.. هذا ما كان ينقُصُنا".. قال مروان بِنَزَقٍ وقد تَمكَّنَ منه اليأس.. لكنَّه لا يريدُ إحباطَ عزيمة سليم سيَّما وأنَّ عضلاتُ ساعِدَيه كانت قد بدأت تَرتَخي وتعجزُ عن التَشَبُّثِ أكثر..

"اصمد يا سليم.. سنجدُ حلّا ولا بدّ.. اسمع سأحاولُ استخراج جوَّالك من جيبِ سترتك ولنجربْ الاتصال به.. قد يَلتقطُ الشبَكة".. كانَ كالغريقِ الذي يَتعلَّقُ بقشَّة..

"حسناً.. أسرِعْ يا مروان.. هو في جيبي الأيسر.. خارَت قواي.. وتخدَّرت يَدَاي ولا يسَعُني الاستمرار في التَّشبُّثِ هكذا أكثر"..

مَدَّ مروان يدَهُ نحوَ الأسفل لِيَطالَ جَيبَ السُترة وما إن التقطَ الجوَّال وهمَّ بسحبِهِ حتى باغَتَه استسلامٌ مُفاجئٌ لا إراديٌّ من سليم وقد أسبَلَ ذراعَه اليُمنى قسراً من شدَّة الإرهاق وتَفَلَّتَتْ كِلتا يَدَاهُ في الهواء..

سارعَ مروان لالتقاطِ ذراعِ صديقِه وإعادةِ جذبِها لأعلى.. لكن الجُهد يَفُوقُ طاقتَه.. وقد خرَجتْ الأمورُ عن السيطرة فتَهَاوى جسدُ سليم إلى الأسفل وبدأ السقوطَ بعد إفلاتِ الذراعِ الثاني أيضاً وإسبَالِه تحتَ وطأةِ الإجهاد الشديد..

وبشكلٍ عفويٍّ وحركةٍ لا إراديَّة ودون تفكيرٍ كالعادة.. ارتمى مروان خلفَ صديقِه نحوَ الأمام ونصف جسَدِهِ مُعلَّقٌ في الهواء في مُحاولةٍ لإنقاذه والإمساكِ به والحَيلولة دون خروجِ الأمر عن السيطرة.. ما أدَّى إلى تَأرجُحِه على الحافَّة فاختلَّ توازنُه وسقطَ هو الآخر في قاعِ الكهفِ السفليِّ ليتَشَاركا المَصيرَ فيه معاً.....

مخاضٌ فى رَحِم الأَرض

شعاعٌ نَحيلٌ من الضوء انسَلَّ من فتحةٍ عُلويَّةٍ في السَقف ليجدَ سبيلاً إلى فضاء هذا التجويف المُعتِمِ الذي ابتلَعَهُما..

ضوءٌ خافتٌ بالكادِ يَسمَحُ بتمييز مَلامح المَكان.. استطاعا بمُساعدَتِهِ أن يَتفقَّدَا الإصاباتِ والكدَمَاتِ التي توَزَّعَتْ على جَسَدَيهِما جرَّاءَ الارتطامِ بهذا القاع الصلب..

"آآآخ أشعرُ بأنَّني أُصِبْتُ بشَلَلٍ في ساقي يا سليم.. ظهري أيضاً يؤلمُني بشدَّة ولا أقوى على الحِرَاك"..

زحَفَ سليم بصعوبة وقد غَطَّتْ السَحَجَاتُ ذراعَيه وتوَرَّمَ كفَّاهُ وتَأذَّتْ أظافِرُه نتيجة تَشبُّثِهِ مُطوَّلاً بصخورِ حافَّةِ الفجوة قبل انزلاقِه عنها..

كوعُه الأيمن وكتفُه أيضاً أُصِيبَا بكَدمَاتٍ عِدَّة.. فاستندَ إلى ذراعه اليسرى مُحاولاً النهوضَ بصعوبةٍ بالغة.. وهو يُكابِرُ على ألمِ جذعِه الذي ارتضَّ إثرَ الاصطدام..

دَنا ببُطءٍ من مروان الذي انبطحَ أرضاً ولا يَبدو أنَّه بخير.. مُتَفقِّداً إصابَاتِه..

"كيف حالك يا مروان؟ أخبرني هل تستطيعُ أن تنهضَ قليلاً؟ هيَّا سأسَاعدك لتستلقيَ على ظهرك وتستندَ إلى الجدار"..

"لا لا.. تمهَّلْ يا سليم.. لن أستطيعَ النهوضَ بسهولة.. أخشى أنَّ كسراً ما قد أصابَ إحدى فقراتِ ظهري.. أو أنَّه تَمزُّقٌ في أحدِ الغضاريف.. لا تُحرِّكني قَسراً أرجوك.. أشعر بألمٍ شديدٍ أسفلَ ظهري"..

"لا قدَّر الله يا رجل.. ما من خُطورةٍ إن شاء الله.. لكنَّها صدمة السقوط..

ربَّما هي بضعُ كدماتٍ أو رضوضٍ وستخفُّ وطأتُها مع الوقت.. لكن حسناً لن أجبرَك على الحركة.. خذ وقتك"..

أجابَ سليم وهو يحاولُ البحثَ عن جوّالِه ليستعينَ بضوءِ الفلاش في تَحرِّي إصاباتِ صديقِهِ بوضوح.. ثم استطردَ:

"آآه.. لا أرَى جوّالي هُنا.. يجب أن أعثُرَ عليه كي لا تسبِقَنا عَتمةُ المكان.. قد تغيبُ الشمس قريباً ونفقدُ حتى ضوءَ هذا الشعاع الهزيل.. وهذا ليس بالأمر المُطَمْئِن"..

"ما أدرَاني؟ في اللحظة التي تمكَّنتُ فيها من استخراجِه من جيب سترتِكَ وأنت تتأرجَحُ في الهواء.. قرَّرتَ الاستسلام وأفلتَتْ يداكَ الحَافّةَ وحدثَ ما حدثَ.. مؤكدٌ أنَّهُ سقطَ في الأرجاء هُنا أو هناك مع سقوطِنا"... أجابَ مروان وهو يحاول رفَعَ جسدِه قليلاً عن الأرض والاستدارة بحذرٍ مُتَّكئاً على كفَّيه..

"انتظر انتظر سأُسَاعدُك.. رُوَيدك.. على راحتك.. لا تستعجل.. سَأجذِبكَ قليلاً تجاه الجدار لتستندَ إليه".. سارعَ سليم لسحبِ مروان من خلف كتِفَيه وصولاً إلى جدارٍ قريب..

"ما هذا؟ ما هذه الدماء؟ هل أصبتَ بجرحٍ ما يا مروان؟".. تساءَلَ سليم مُتفاجئاً وهو يَبسطُ راحةَ كفِّهِ مُتفحِّصَاً إيَّاها بعد أن شعرَ بلزوجةِ دمٍ عليها إثرَ مُحاولته تجليسَ صديقه..

"لا أعلم.. أشعر ببرودةٍ وتنتابني رجفةٌ غريبةٌ الآن.. لا أشعرُ برجلي يا سليم.. لكنَّ جرح ساقِيَ الذي أصِبتُ به حين قفزتُ من نافذة القصر في تلك الليلة حديثُ الالتِئام.. ولا استبعدُ أنَّه انفتقَ الآن"...

"هو كذلك.. نعَم.. ينزِفُ قليلاً.. وعلينا إيقاف النزيف.. خذْ ارتدِ سُترتي كي تُخفِّفَ من رجفتك.. من الواضحِ أنَّها أعراض صدمةٍ انتابتك الآن بعد الذي حدث".. قال سليم وهوَ يُغطّي مروان.. مُتابِعاً بحثَه عن الجوّال.. فلا غِنى لهما عن مَصدر إضاءةٍ ولو لوقتٍ قصير.. في حال استمرَ احتجازُهما في هذا المكان لبعد المَغيب.. (على أحسنِ تقدير)!

يَبدُو هذا الكهفُ الصَخريُّ بجِيوبِه الصَغيرة المُكوَّرة كغرفة المَؤونةِ القدَيمة التي كانت في القصر.. صغيرة.. باردة.. مُعتمة.. ويَتقدَّمُها دهليزٌ ضيِّقٌ..

المكان يزدادُ برودةً مع انتصافِ النهار.. والرطوبة تَطغَى كلما ازداد الانخفاض والاقترابُ من مُستوى المَجرى المائيِّ السفليِّ..

ومروان.. يَسوءُ حالُهُ!

"علينا أن نجدَ طريقةً للخروج من هذا المأزق.. شبكةُ الاتصالات لا تعمَل.. وحتى الإضاءة ستضعُف مع حلولِ المساء.. لا أتخيَّلُ أن نبقى عالقَينِ هنا على هذه الحال.. أشعرُ بالدُوار.. ما العَمل يا سليم؟"...

"نسألُ اللهَ أن يُلهِمَ أهلَنا والعَم جابر البحث عنَّا هُنا.. أو إبلاغ الجهاتِ المُختصَّة.. قد يتنبَّهون إلى غيابِنا وعدمِ عودَتِنا من المدرسة فيبدؤون البحث"..

كانت هذه أمنيةَ سليم قبل أن يُفاجِئَه مروان مُقاطعاً:

"لا أعتقدُ أن الأمرَ سيكونُ بهذه البساطة.. أخبرتُ جدَّتي أنَّنا ذاهِبان عَقِبَ انتهاءِ دوام المدرسة إلى المُجَمَّعِ التجاريِّ القريبِ من العاصمة في رحلةٍ قد تمتَّدُ حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل وقد نَبيتُ ليلَتَنا هناك إذا اقتضَتْ الحَاجة.. ولا بُدَّ أنَّها ستُطَمْئِنُ أهلَكَ ولن ينشغلَ لهم بال حتى وإن حلَّ الظلام..

أخشى أنَّ ساعات إقامَتنا هنا ستَطول!!

يا إلهي.. عادَ شكلُ المَسْخِ الذي رأيناه اليوم ليغزوَ أفكاري بعدَ أن شغلني جمالُ المَغارَة عنه.. لكنَّ الفرحَةَ لم تكتملْ.. ماذا لو هاجَمَنا ليلاً؟"...

"هيَّا وأطرِبْنِي أكثرَ بأخبارِكَ يا مروان.. حتى وأنتَ طريحُ الأرضِ بهذه الحال.. قادرٌ على استفزازي.. لماذا تكذبُ يا رجل؟

من طلبَ مِنكَ أن تَتَبَرَّعَ وتَحِيكَ حجَجاً لغِيابِنا.. ها قد ارتَدَّتْ تَبِعَاتُ كذبَتِك علينا.. لو تركتَ الأمورَ بلا تَصريحاتِك المَجَّانيَّة العظيمة.. لكانوا الآن في طريقهم للبحث عنَّا.. آآآخ ماذا عَسانا نفعل الآن؟"....

"أعلمُ أنَّها إحدى حمَاقاتي التي لا تنتهي.. وقد مّلّْتُ أنا الاعتذار بالقدرِ الذي مّلّْتَ أنتَ قبولَه.. لكن عليك أن تعلم أن مِحنَتَنا هذه ستُغيِّرني..

الخمسُ دقائق التي بقيتَ فيها مُعلقاً كادَت تقتلني من الخوفِ عليك.. جَعَلَتْني أدرِكُ غلاوَتك وأهميَّتك عندي يا سليم.. أنت مُهمٌ بالنسبة لي.. لا لأنَّنا تَرَعْرَعْنَا معاً فحسب.. بل لأنَّني أرى فيكَ النموذج الذي يُبهِرُني وأحلمُ أن أصبحَ مثله..

صديقٌ رائعٌ مُتَّزِنٌ يعرفُ كيف يَحتَويني ويتحمَّلُ غبائي وفظاظتي ويعطيني من وقتِه ونصحِه أكثر مما أستحقُّ..

صدِّقْ أو لا تصدِّق.. أشعر أنَّ هذا السقوط قد رَفَعَني.. رُبَّ مِنحَةٍ في مِحْنَة!!

سأتغيَّرُ إن شاء الله.. ولن أخرجَ من هذه المَغارَة كما دَخلت.. (هذا إن خَرَجْنَا)"....

عَلَّقَ مروان بصوتٍ مُنهَكٍ..

تَنَهَّدَ سليم لدى سماعِه لغة الحوار الجديدة التي يستخدِمُها صديقُه.. وجلس مُستنداً إلى الجدار رافعاً رأسه يُحدِّقُ بثباتٍ في فتحة الفَجوة التي اصطادَتْهُم.. شارداً يُفكِّرُ بقلَّةِ حيلتِهم تجاهَ الوضعِ الراهن..

وما هيَ إلا لحظات حتى قاطَع شرودَه رأسٌ أطلَّ فجأةً من الفتحة وقد أخفَتْ عتمةُ المكانِ ملامحَ وجهِه.. أغلبُ الظنِّ أنَّه الكائنِ ذاته الذي صادَفَهُما في الخارج!!

توَسَّعَتْ حدَقَتا عَينَيهِ ودَبَّ فيه النشاطُ وارتفعَ أدْرينَالينُهُ كما لم يرتفع لدى سقوطِهِما.. لكنَّه تَسَمَّرَ في مكانه ولم يَنْبَتْ ببنتِ شَفة كي لا ينتَبِهَ مروان فيُصابَ بهِسْتيريا ذُعرٍ تُفاقِمُ صَدمَتَهُ وسوءَ وضعِه وتزيد الطينَ بِلَّة..

جَمُدَ سليم في مَكانِه وتَيبَّسَتْ رقبَتُه نحو الأعلى يُراقبُ المَسْخَ المَزعُوم وهو يُرابِطُ فوقهم ويتحرَّكُ على حافَّة الفتحة كذئبٍ يَحومُ حولَ فريسَتِه..

بينما غَفَا مروان قليلاً تحتَ وطأةِ التعبِ وألمِ الرضوضِ.. ولم يشعرْ بشيء..

مع حلولِ المَساء واشتِدَادِ الظلام في الداخل والخارج اختفى المَسْخُ ولم يَعُدْ يُطِلُّ برأسِهِ من الأعلى.. وهو أمرٌ يثيرُ الريبةَ والقلق.. فبقاؤُه تحتَ ناظِرَيِّ سليم أو بالأحرى (فوقَ ناظِرَيْهِ) جَعَلَه مُطْمَئِنّاً أنَّه لن يُباغِتَهُما من حيث لا يَدرِيَان.. سيَّما وأنَّه مَبدئياً لم يُبدِ وحشيَّةً أو يُوحي بالاستشراس والعدائِيَّة..

كانَ مُتلَصِّصَاً فحسب! يُراقبُ زوَّارَ المَغارَةِ التي لا شكَّ بأنَّه يحفظُ كلَّ شبرٍ فيها.. وهُنا تَكمنُ المُشكلة!!

يَخشَى سليم أن يكونَ المَسْخُ قد اتَّخَذَ طريقاً ما إليهما مع حلولِ الظلام في غَيَابَاتِ أمِّ المَغَارَات.. لذا فقد فكَّرَ أن يجدَ طريقةً يُخبِرُ فيها مروان تَجَنُّباً لصدمةٍ جديدةٍ أكبر..

"كيف أصبحتَ الآنَ يا مروان؟ استيقظ يا صديقي.. أريدُ أن أطْمَئِّنَ إلى سلامة ظهرك.. هل تشعرُ ولو بتَحَسُّنٍ طفيف؟"..

"آه.. هل غَفَوتُ مُطَوَّلاً؟ لا أعرفُ ما الذي أصَابَني.. ربما هو انخفاضٌ في الضغط جعَلَني أصابُ بالدُّوار وأغفو..

نعَم أشعرُ بقليلٍ من التَحَسُّنِ في ظهري.. لكن ما زِلتُ عاجِزاً عن النهوضِ بِمُفردي.. كيف سنوقف نزيفَ جرحِ ساقي؟ أخشى أن يتلوَّثَ ويَلتَهِبَ ما لم نُعَقِّمه يا سليم"..

"لا تقلق.. سنجدُ وسيلةً ما.. دعني فقط أبحثُ عن جوَّالي لنحصل على ضوءٍ من الفلاش ثم نرى ما يُمكنُ عَمله.. مُؤكدٌ أنَّه سقطَ في مُحيطِنا هُنا"..

تَحرَّكَ مروان جَاثياً في المكان وهو يَتَحَسَّسُ الأرض بِكِلتَيّ يدَيه هنا وهناك دونَ جَدوى.. غلبَتْهُ العَتمة.. وما من بارقةِ أملٍ في العثورِ على شيءٍ.. ولا داعي لإهدارِ المَزيدِ من الجُهد..

يبدو أنَّ ليلةً باردةً مُظلِمَةً في انتظارهما هُنا!!

اعترافاتُ المَغارَة

جلسَ الصديقان مُحبَطَين وقد استندا إلى إحدى جدران الكهف بعد أن ضاقتْ بهما السُبُلُ في انتظار حدوثِ مُعجزةٍ ما..

لا إضاءةَ الآن.. لا وسيلةَ اتصال.. والبرودةُ تَلُّفُ المكان..

"أشعر بالجوع يا سليم.. هل سنبقى حَبيسَينِ هنا إلى أن نموتَ من الجوع والعطش؟ ما العَمل الآن؟"..

"لا أدري.. ربما سيكون علينا انتظار الفجر كي نستغلَّ على الأقل حزمة الضوء التي تنسلُّ معه للداخل فنتحرك في أرجاءِ المكان بسلامةٍ ونجد لنا سَبيلاً يعودُ بنا إلى المَدخل..

التجاويف والسراديب هنا كثيرة إلى أعلى وأسفل.. وهناك نفقٌ لا نعلم إلى أين يُفضي.. لكنَّني أعتقدُ أنَّ بقاع المغارة مُتَّصِلٌ بعضُها ببعضٍ..

صحيحٌ أنَّها كالمَتاهة.. لكن سنجدُ طريقاً ما تكون نهايَتُهُ سعيدة.. إن شاءَ الله..

المُشكلة أنَّني اعتمدُ غالِباً على بوصلة خرائط جوجل وGPS لاستكشاف واختيار المَسارات الأصَحِّ والأفضل.. لكن حتى هذا الأمر لم يَعُدْ مُتاحاً الآن مع غيابِ الشبكة.. وفقدانِ الجوَّال..

وأنتَ ما تزالُ مُتعَباً وغير قادرٍ على المشي.. ناهيكَ عن أن عَتمةَ المكان قد تجرُّ علينا المزيدَ من المَخاطر.. أسلَمُ تَصَرُّفٍ لنا الآن هو ألا نَتَصَرَّف.. ليس أمامنا إلا الانتظار حتى الصباح..

حقاً.. (الصدقُ مَنْجَاة)..

لولا التضليلُ الإعلاميُّ الذي قُمتَ به.. لكان أهلنا الآن في طريقهم للبحث عنَّا.. أمَّا وقد صَرَفْتَ أنظارَهم تجاهَ المُجَمَّعِ التجاريِّ للعاصمة فمؤكَّدٌ أنَّهم سيبحثونَ هناك.. ولا أعلمُ كم سَيَطولُ بهمُ الوقت حتى يَصِلَ الأمرُ إلى الشرطة والجِهات المُختصَّة ويلتقطونَ إحداثياتنا من الجوَّالات!"...

"آآآه.. لا أتَخيَّلُ البقاءَ هُنا طِيلةَ الليل.. هل نَسيتَ أمرَ المَسْخِ الذي رأينَاهُ يَحومُ حَولَ المَغارَة؟ ماذا لو كانَ يَبِيتُ فيها؟ ماذا لو كانتْ مَسكونةً يا سليم؟"..

التَفَتَ سليم تِجاهَ مروان وقد اسنَدَ رأسَهُ للجدار مع نصفِ ابتسامةٍ ماكرة..

"هي مَسكونةٌ فِعلاً.. كنتُ على وشكِ إخبارِك.. المَسْخُ الذي رأينَاهُ صَبَاحاً عادَ لِيَحُومَ حولَنا أثناءَ غَفْوَتِكَ.. لكن رويدَك قليلاً.. وقبلَ أنْ تَجْزَعَ..

اعترفُ لكَ بأنَّ الخَوفَ تَمَلَّكَني في البدء وتَسَمَّرتُ وكَأنَّما نَشِفَ الدمُ في عروقي.. لكنَّه وبعد أن اكتَفى بالتَحديقِ فقط كمَن يتفحَّصُ آدَميِيَنِ للمرَّةِ الأولى.. ولم يبدِ عَلاماتٍ عدائيَّةً أو يُصدر أصواتاً وحشيَّة غريبة.. بدأتُ ائتلافَهُ.. حتى أنَّني كنتُ أنظرُ إليه بشكلٍ مُباشرٍ وهو يُراقِبُنا من تلكَ الفتحة..

بقيَ إلى أن حلَّ الظلامُ تماماً ثم اختفى.. وقد لا يَكونُ اختَفى!

ربَّما اخْفَتْ العتمةُ وجودَه ولم يَعُدْ بإمكاني أنا رؤيتَهُ.. لكن لا أعلم لماذا انتابَني شعورٌ بأنَّه ليسَ شريراً أو مُؤذياً إلى الحدِّ الذي في مُخَيِّلتنا!!

لا أعرف.. هو مُجرَّدُ إحساسٍ.. وقد أكونُ مُخطئاً!!"...

"بسمِ اللهِ الرَحمنِ الرَحيم.. هلْ تَعِي ما قلتَه الآن يا سليم؟

ظهرَ هذا المَسْخُ مُجدَّداً وما زِلتَ تستطيعُ الجلوسَ والحديث هكذا بكلِّ هدوءٍ وبرودةِ أعصاب؟ أكادُ أُصابُ بسكتةٍ قلبيَّة..

لم يبقَ إلا أن تُقنعَني بأنَّكُما أصبحتُما صديقَين في نصفِ الساعةِ التي غَفَوتُ فيها.. يا إلهي"..

"أعلمُ أن الأمرَ مُضحِكٌ.. لكن سُبحانَ الله.. كيف أنزَلَ اللهُ السَكينَة على قلبي ولم أصرخْ أو أجزَعْ كما يُفتَرَض!

في البدايةِ تفاجَأتُ.. نعَم.. لكن بعد لحظاتٍ أصبحَ أمرُ وجودِهِ من عدمِه سِيَّان..

لكن ما أن اختفى مع حلولِ الظلام حتى بدأتُ أهْدسُ من جديد.. مَخافة أن يُبَاغِتَنا ويدخلَ علينا من جهةٍ ما هُنا.. لا شكَّ أنَّه ضَليعٌ بمتاهاتِ هذا المكان.. هذا إن لم يكنْ يقطنُ فيه مع مخلوقاتٍ أخرى"..

"حسناً.. أنتَ الآن تُحاوِلُ طَمأنَتي بأنَّه كائنٌ أليف؟

أم تحاولُ تَرويعي بإمكانيَّةِ اقتحامِه المكان والانقضاض علينا هُنا والتِهامنا في أيَّة لحظة؟ هل سنصبحُ أصدقاءَه أم أنَّنا سنكونُ وَجبَةَ عشائِهِ الفاخِرة؟

آآه سليم.. رأسي سينفجرُ من التفكير.. لم أختبر هكذا شعور طِيلةَ حياتي".. قالَ مروان مُحاولاً استيعابَ ما سَمِعَهُ للتوّ..

"طبعاً لم تَختَبر أن يَضجَّ رأسُك بالتفكير.. الأمرُ صعبٌ عليك".. عَقَّبَ سليم مَازحاً لامتصاصِ قلقِ صديقِه..

وفجأةً حدثَ شيءٌ قاطعَ حديثَهما!!

صوتٌ قويٌ تردَّدَ صَداهُ بين جدرانِ وتضاريسِ المكان المُتعَرِّجَة..

شيءٌ ما هبطَ فجأةً من أعلى وأثارَ جَلَبَةً مع ارتطامِه بالأرض بالقربِ منهُما.. لكنَّ عتمَةَ المكان مَنعتهُما من التعرُّفِ إليه..

"ما هذا أهيَ صخرةٌ انزلَقَتْ من أعلى أم ماذا؟".. صَرَخَ مروان مَذعُوراً..

"لا أعرف.. هاتِ جوَّالك يا مروان سأستعينُ بضوءِ شاشَته وإن كان خَافِتاً لأستطلِعَ ما جَرَى"..

نهضَ سليم بتثَاقُلٍ وبِخُطىً حذِرة صوبَ مكانِ الصوت ليتَحَرَّى الأمر.. واعتَرَتْهُ الدهشَةُ لِمَا رأى..

"مروااااان.. أبشِرْ يا صاح.. إنَّها حقيبة الزوَّادة!!

سنتَعشَّى ونشربُ العَصائر.. لن تموتَ من الجُوعِ والعطش"... هتفَ سليم بصوتٍ عالٍ مُبتَهجاً كمَن عثرَ على كنزٍ ثمين..

انفرَجَتْ أساريرُ الصَديقَين.. واستبشرا خيراً.. إلى أن قفزَ في رأسَيهِما سؤالٌ بَديهيٌّ.. مَن الذي رَمى هذه الحقيبةَ الآن.. وقد كانت بعيدةً عن الحافَّة بأمتار؟

"هل تفكِّرُ بما أفكِّرُ فيه يا سليم؟ يُحيِّرُني أمرُ هذه الحقيبة الآن ويُقلقُني بقدرِ فرحتي باستعادتِها بما فيها مِن طعامٍ.. من رَمَاها من أعلى يا رجل؟

هل يُعقَلُ أنَّه صديقُنا.. أعني.. صَديقُكَ المَسْخ؟"...

"وما أدرَاني يا مروان؟ المُهم الآن أنَّنا سنأكلُ ونشربُ لنستَرِدَّ عافيَتَنا وطاقَتَنا ونتَمكَّنَ من مُتابعةِ المَسيرِ للخروجِ من هُنا..

أيَّاً كانَ (ما) أو (مَن) رَمَاها.. دَعْنا نُخرِجُ الزوّادةَ ونأكلُ شيئاً.. نحنُ (على لحمِ بَطنِنا منذُ الصَباح)"...

جلسَ الصديقَان إلى الجدار وبَسَطا مُحتويات الحقيبة أمامَهُما.. وبَدَأا تناولَ الطعام بِنَهَمٍ..

مرَّتْ ساعاتُ الليل بهدوءٍ.. وغَطَّا دون أن يَشعُرا في نومٍ عَميق.. فطعام العشاء وما سبقَه من توترٍ وتعبٍ كانا كفيلَين في جعلِهِما يرقُدان بلا حرَاك كَكيسَيِّ إسمنت.. حتى ساعاتِ الفجرِ الأولى..

عادَ الضوءُ لِينسَلَّ إلى جوفِ المكان مُعلِناً بداية نهارٍ جديدٍ.. واستيقظَ الصديقان فجراً على صوتِ ضجيجِ الحياة بين الداخل والخارج والذي تسلَّلَ بعضُه إلى مَسامعهما..

أصواتٌ مختلطة بين زقزقةِ عصافير.. وَطوَطَةِ خفافيش.. وثَباتِ أرانب.. نقيق ضفادع.. وما إلى ذلك من مُواطِنِي المكان..

"آآآه.. حقَّاً (الصباحُ رَبَاح) كما تقولُ جدَّتي عَواطِف..

يا أخي.. ضوءُ النهار يحمِلُ في طيَّاتِه نشاطاً وتفاؤلاً وحيويَّةً مُختلفة..

أشعرُ أنَّني بحالٍ أفضل.. وقد أستطيعُ المَشيَ لولا أن جرح ساقي يُشاغبُ قليلاً".. هَمَسَ مَروان وهو يَستَفتِحُ صباحَه..

"بل حَقَّاً.. **{وَجَعَلنَا النَهارَ مَعَاشَاً}**..

هيَّا إذاً ولنَنْتَهِزْ بَرَكَةَ الصباح ونبدأ مَسيرَنا بَحثاً عن سبيلٍ للخروج من هُنا طالما أنَّكَ تستطيعُ المَشيَ.. لكنَّني أخشى من التهابٍ ما في جُرحك..

ليتَنا وضعْنا مع الزوَّادة القليلَ من المِلح لاستفَدْنا منه في تعقيمِ الجرح ولو مُؤقتاً وبشكلٍ أوَّليٍّ".. أجابَ سليم وهو يهمُّ بلَمْلَمَةِ ما تَبَقَّى مُفترِشاً الأرض من مُحتويات الحقيبة..

"حسناً.. أعتقدُ أنَّ بإمكاني التحمُّل قليلاً.. لكن أيّ طريقٍ سنسلك؟

انظر يا سليم.. أمامنا مفارقُ وفجواتٌ ودهاليزُ متشعِّبَة.. أيُّها ستَختار؟"..

"لن ندخلَ ذلك النفقَ المُعتم هناك.. أشعرُ أنَّه يؤدي إلى الطبقات السُفلى.. لم أعُدْ أريدُ إلا الخروج من هُنا.. لا أرغبُ باستكشاف إيِّ شيءٍ بعد.. دعنا نسلك طريقَ هذا الدهليز القريب من الجدار.. فلتستَند إليَّ.. هيَّا يا مروان"..

شرَعَ الصديقان بدخولِ الدهليز والمَسيرِ خلالَه ببطءٍ خوفاً من انزلاقٍ جديد.. أو تساقطٍ للحجارة.. ومع التَوَغُّل فيه أصبحَ المكان مُعتماً لا يصل إليه حتى بصيصُ شعاعٍ نحيلٍ من ضوءِ النهار..

"ما هذا الظلام الدامسُ.. لا يمكن للمرء أن يُبصرَ إصبعَهُ.. أشعر أن صَدري يضيقُ يا سليم.. هناك ولا بدّ نقصٌ في الأكسجين"..

"اصمد قليلاً وتمسَّك بي يا مروان.. ربما أزعَجَكَ ضِيقُ المَمَرِّ.. اصمد فقد يأتي الفَرَجُ فجأةً.. ونُبصِرُ مَخرجاً قريباً في النهاية"..

واصَلا المَشيَ حتى بلغا نقطةً يتفرَّعُ فيها الدهليز إلى فتحَتَين.. إحداهُما تشكِّلُ بداية سردابٍ والأخرى يبدو أنَّها تُفضي إلى جيبٍ جانبيٍّ فيما يُشبِهُ الغرفة المُكوَّرَة وثمَّةَ ضوء نهارٍ خافت قادم من داخلها..

"فلنَرَ ما في هذا التجويف أولاً.. على الأقل هو أوسَعُ من فتحة السرداب.. وهناك ضوءٌ خفيف يدلُّ على وجودِ فتحاتٍ أو تشَقُّقاتٍ سَقفيَّةٍ فيه..

أنا أيضاً بدأتُ أشعرُ بالضِّيق.. وأحتاجُ للاستراحةِ في مكانٍ أوسَع"... قال سليم وهو يُساعِدُ مروان في اجتياز قَنطرةِ المَدخَلِ المقوَّسِ للجَيبِ الحجريِّ.. لكنَّ دخولَهما لم يجلبْ معه انشراح الصدر!!

فما أن وَطَأا المكان حتى وقعَ بصرُهما على كومةٍ من العظامِ المُبعثَرة تَعلُوها جمجمةٌ مُهَشَّمَة فيما يُشبِهُ هيكلاً عظميَّاً في إحدى الزوايا!

يبدو أنَّ أحداً قدْ فارقَ الحياةَ هنا..

وعُدْنَا إلى نُقطَةِ الصِفر!

مِلحُ الحَياةِ

"ما هذا يا سليم؟ أترَى ما أرى؟ ما هذه الورطة التي أقحَمْنا أنفسَنا فيها؟

يا أخي.. (التووووبة).. لم أعُدْ أريدُ أن أنبشَ في الماضي.. ولا أن أبحثَ عن قلادةٍ ولا عن كنزِ قارون.. أخرجني فقط من هُنا قبل أن أصابَ بانهيارٍ عصبيٍّ".. صَرَخَ مروان مَذعوراً..

"ربَّما من الأفضلِ أن نعودَ إلى حيثُ سَقَطْنَا.. وننتظر الفَرَجَ..

على الأقل نحن نعلم أنَّ المكان هناك قريبٌ من المَدخل ونعلمُ ما يوجد على السطح فوقَه.. كما أنَّه أوسَعُ من هذه التضَايُقاتِ هنا.. وقد أجدُ جوَّالي ونلتقطُ شبكةً ما في وقتٍ ما.. هيَّا ولنعُدْ أدراجنا"..

قال سليم قبل أن يُديرَا ظَهرَيهِما للهيكلِ العظميِّ ويَعُودَا بسرعة إلى حيثُ كانَا..

"هل يُعقَلُ أن يكونَ هذا الهيكلُ لتَيْمُور؟؟".. سألَ مروان وهو يلهثُ مُنهَكاً..

"العلمُ عند الله.. هناك الكثير ممَّن فُقِدُوا في بطنِ هذه المَغارَة بعد أن ابتلَعَتْهم متاهاتُها.. أترَى حالنا هذه؟ أصبحنا نصدِّقُ أنَّه من المُمكنِ أن يموتَ أحدُهم هُنا من الجوعِ إذا طالَ به الأمَدُ تائِهاً يَهيمُ على وجهِهِ في جوفِها..

اللهُ وحده يعلمُ حجم القصصِ الغريبة التي تحتفظُ بها ذاكرةُ جدران هذا المَغارَة..

دعنا فقط ندعو اللهَ أن يَسوُقَ لنا العونَ والنجدَةَ بعجائِب قدرَتِه..

سأصَلِّي رُكعَتَي حَاجة.. لَعلَّها تكونُ المُنَجِّيَة"...

أجابَ سليم وقد بدأ الخوفُ يتمَكَّنُ منه..

ما هيَ إلى دقائق حتى فُوجِئَ الصديقان بضوضاء صدرَتْ من أعلى..

مرَّةً أخرى عادَ وتساقَطَ شيءٌ ما مِن حافَّةِ الفتحةِ العُلويَّة..

ثم تدَحْرَجَ صوبَهما!!

"انظر يا سليم.. تُفَّاح!!!"

"يا إلهي.. ما الذي يحدُثُ هُنا؟

جاءَ في وقته.. فطعامُ الأمسِ لم يَكْفِنا حتى للعشاء.. لكن من تُراه يَرمي لنا الأشياء هكذا؟ ولماذا؟"...

تساءَل سليم ثم التفتَ نحوَ الأعلى تجاهَ الفتحة واستطردَ ينادي بِشكلٍ عفويٍّ بأعلى صوته:

"هل مِن أحدٍ هناك؟

أرجوك أجِبْنا.. نحن مُجرَّد تائِهَينِ مُسالِمَين هُنا..

أرجوك ساعِدنا وخذْ ما تَشاء.. نريد أيَّ وسيلةٍ للصعود والخروج من هُنا..

نريد أن نتَّصِلَ بأهلنا.. لم نأتِ لنُؤذي أحداً..

هل تسمعني؟ هل تفهمني؟ كائناً من كُنت.. أرجوك أجبني"...

تردَّدَ صَدى صراخ سليم في أرجاءِ المَغارَة لِيَكسِرَ صمتَها وسُكُونَها..

وما أن أنهى كلامَه حتى أطلَّ المَسْخُ بِرَأسِهِ من جديد ليُراقِبَهُما من على عُلُوٍّ..

"يا إلهي.. ها هوَ مُجَدَّداً.. ما هذا الوجهُ المُشوَّه؟؟؟ لطفكَ يا الله"...

هَمَسَ مروان وقد فَضَحَتْ إضاءةُ النهارِ هذه المرَّة ملامحَ وجهِ المَسْخِ المُغَطَّى بالتشوّهاتِ فيما يَبدو أنَّ حروقاً ما التهمَتْهُ ولم تترك إلا مساحة العينين وجزءاً من وجنتِه اليُسرى وقد نَبَتَتْ على ما تَيَسَّرَ من بقاع جلدها المُعَافى لحيةٌ شعثاءُ مُغبَرَّة..

"اخفضْ صوتَك يا مروان لا نريدُ إثارةَ غضبِه.. ألا تَرَى؟

رَمى لَنَا بالأمسِ حقيبةَ الطَعام.. واليوم هذا التفاح!

ألم تلحظْ أنَّها رسالةُ تعاطُفٍ منه؟ هوَ لم يُبقِنا جَوعَى.. وساعَدَنا في الحصولِ على الطعام.. أظنُّ أنَّه عكسُ ما تُوحي ملامِحُه.. ثم أنَّ وجهه وإن كان مُشوَّهاً يبدو أنَّه لإنسانٍ وليس شَبَحاً أو مَسْخاً كما اعتقدنا..

ربما هو رجلٌ مُصَابٌ بِتَشَوٍّهٍ أو مرضٍ ما ويَعيشُ في الغابةِ أو في المَغارَة"..

"نعَم.. يعيشُ في الغابةِ.. مَاوكلي فتى الأدغال.. أو طرَزان..

ثم لماذا تَعتَبرُها بادرةَ تعاطُفٍ؟

قد يرغبُ بإطعامِنا ليُسمِنَنَا ويأكلنا فيما بَعد.. وقد يكونُ هو من التَهَمَ تَيْمُور ورمى بعظامِه في المَغارَة.. وجهُهُ مُرعبٌ للغَايةِ يا رجل.. ألا ترَى أنَّهُ مَخبُول؟"...

"كُفَّ عن الاستهزاءِ يا مروان.. على الأقل لا تُعِبْ في خَلقِ الله".. قال سليم بحدَّة.. ثم استطرد:

"خطرَتْ لي فكرة.. سأحاولُ استجداءَه ومحاوَرَتَه لنعرفَ ما إذا كان طبيعياً ويفهمُنا أم أنَّ صُراخي قبلَ قليلٍ كان بِلا جَدوى"..

عادَ سليم ليصرُخَ بأعلى صوتِه مُخاطباً المَسْخَ المَزعُوم وهو يُحَدِّقُ به بشكلٍ مباشرٍ..

"اسمع يا صديقي.. إن كنتَ تفهمُني.. فنحنُ نشكرُكَ على مساعدتنا في توفير الطعام.. لكن أرجوك نحن نحتاج القليلَ من المِلح لنضعَهُ على جرحِ ساقِ صديقي هذا..

لا أعلمُ إن كنتَ من مكانك في الأعلى تستطيعُ رؤية الدمِ المُسوَدِّ بوضوح! نخشى أن يتلوَّثَ الجرحُ.. ونريدُ تعقيمَه"...

ثم تابعَ سليم بصوتٍ أعلى مًخاطباً المَسْخَ وكأنَّه أجنبيٌّ لا يفقَهُ لغتَهُ..

فيُهجِئ له الطلبَ ببطءٍ وبنبرةٍ مُتقَطِّعَة:

"نريدُ مِلحاً..

نُـ .. رِ .. يـ .. دُ..

مـ .. لـ .. ح..

مِلح ح ح ح ح ح ح ح"..

اختفى المَسْخُ لدى سماعِه صراخَ سليم.. وسادَ الصمتُ.. بعد أن أحدث صَدى صراخِه جَلبةً عَمَّت المَكان..

"حسناً.. ماذا بعدُ يا سليم؟ هل تنتظرُ الملحَ (من كلِّ عقلك)؟"...

"وهل عندكَ خياراتٌ أخرى يا مروان؟ أتْحِفنَا بحلولِكَ يا (أبا العُرّيف)"...

"أتعلم؟ صِدقاً وبدونِ مزاح.. أنت تُفاجئني دائماً بحِكمَتِكَ مثلما أفاجئُكَ أنا بحماقاتي يا سليم.. وجودُ صديقٍ مثلك هو نعَمةٌ في حياة أيِّ شخص.. لكن ما يُحزنُني أنَّني لا أستطيعُ استغلالَ هذه النعَمةَ كما يَجب.. لا أستطيعُ أن أُجاريكَ.. أريد أن أتعلمَ منك وأقلدَّك لكنَّني أعجزُ عن ذلك.. أعطني وصفةً أتمكَّن بواسطتها من التشبُّه بكَ ولو قليلاً"...

"هل هيَ اعترافاتُ ما قبل الوداع أم ماذا؟"... تبسَّمَ سليم مُمازحاً..

"لا يا رجل.. لا سَمَحَ الله بالوداع.. سنعيشُ ويُكتَبُ لنا عُمُرٌ إن شاءَ الله.. لكنَّها المِحنة.. تأتي وتحملُ معها الكثيرَ من العِبَر والعَبَرَات..

هذا المأزق الذي اختبرناه علَّمَني الكثير.. علَّمني أنَّ الحياة أرقى وأثمنُ من أن نهدرها بتفاهات.. وأنَّ العُمرَ قد ينتهي بلحظة.. حتى وإن كنتَ شاباً مُختالاً مَزهُوَّاً.. قد تقوم قيامَتُك بموتِكَ فجأة.. (ولا أحدَ على رأسِه ريشة)..

في النهاية.. ومَهما بلغنا مِن علوٍّ.. هناك مكانٌ قد يَضيقُ أو يتَّسِعُ مَحجوزٌ لنا تحتَ التُراب.. وها هو تَيْمُور.. أكبر مثالٍ على ذلك.. ربَّما تكون تلك التي رأيناها عظامه.. ولا أحد يعلم إن كان مالُ أبيه سينفعه تحت التراب كما نفعه فوقها.. أشعرُ أنَّني أرى الحياة بمنظارٍ جديدٍ يا سليم"...

"أووووه.. وكأنَّها فلسفةٌ جديدةٌ غَزَتْ رأسَك يا رجل!! هل أضاءَ ظلامُ المَغارَةِ قلبَكَ؟

صَدَقْتَ عندما قلتَ بالأمس أنَّكَ لن تخرجَ من هذه المَغارَةِ كما دخلتْ..

دعني أخبرُك بسِرٍّ!

أنا أيضاً لمستُ فيك سماتٍ جديدة في هذه الرحلة يا صديقي..

عندما تَمَسَّكْتَ بي قبل أن نَسقُطَ وعيناكَ تقدحانِ خوفاً عليَّ.. شعرتُ بحجم الشهامةِ الذي تخفِيهِ بداخلك.. أحسَسْتُ للمرة الأولى بأنَّكَ أهلٌ للثقة..

أنا سقطّتُ قَسراً لأنَّني كُنتُ مُنفعِلاً ولم أنتبه فَزلَّتْ قدَمي..

أما أنتَ... فقد اخترْتَ طَوَعاً السقوطَ معيَ عندما لم تُفلِحْ في إنقاذي.. ويكفيكَ شرفُ استمرارِ المُحاولة..

كان بإمكانكَ التَنَحِّي جانباً.. وقد طلبتُ منك أن تتركني.. لكنَّك لم تفعل.. ظهر فجأةً أمامي حينها مروان الشهمُ الصادقُ الشجاعُ الذي تتعَمَّدُ إخفاءَه داخِلَكَ وكأنَّك تَسْتَحي بهِ.. الحياةُ قصيرةٌ كما قلتَ يا صديقي.. فَلنُرِها أجملَ ما في داخلِنا ولا نهدر العُمرَ بالقبيحِ منه..

ثم أنَّ الأهمَّ.. أنَّك لم تَعُدْ تذكر التدخين والسجائر.. وهذا أكبرُ تحدٍّ لنفسِك إن نجحتَ بالاستمرارِ فيه.. فلتستغلّ انقطاعَك القسريّ عنها هُنا.. وحاول أن تستمِرَّ طَوعاً بعد ذلك إن خَرَجْنا ولا تضع هذه المَلعونة مرَّةً أخرى في فمِك.. سيكون هذا أكبرَ نصرٍ تحقِّقُهُ إن خَرجنا بسلام"..

"نعَم.. نعَم.. نسألُ اللهَ السلامة.. وسأُعيدُ ترتيبَ حياتي من جديد".. أجابَ مروان قبلَ أن يسندا رأسيهما جالسَين إلى الجدار مُجدَّدا في انتظار الفَرَج..

استسلما لقلّةِ الحيلة بعد أن بدأ الوقت يمرُّ آخذاً معه ضوءَ النهار من جديد.. ولم يتمكَّن سليم من العثورِ على جوَّاله.. لكن إشارةَ أملٍ لاحَتْ في الأفقِ فجأة!!

سَقَطَ مُجَدَّداً شيءٌ آخر من الفتحة! يبدو أنَّ المَسْخَ لن يكفَّ عن إرسالِ الهَدايا اليوم!

عدَّل كلاهُما من جلستِه وقد اعتراهُما الفضولُ لاستطلاعِ هذا الشيء بعد سماعِهما صوتَ سقوطِه وارتطامِهِ بالأرض على مَقرُبةٍ منهُما..

ثم فزَّ سليم في عُجالةٍ ليتفقَّدَ الأمر قبل أن يهتِفَ مُبتهجاً وعلاماتُ الاستبشارِ باديةٌ على وجهِهِ المُتعَب.. رَافعاً يدَهُ ومُلوِّحاً لمروان بالشيء الذي التقطَهُ لتَوِّهِ من الأرض..

"أرَأيت؟

انظر يا مرواااان..

ملح!!!
إنَّهُ كيسُ مِلح!!!!!"..

زائرُ المَسَاء

كان كيسُ الملحِ كافٍ لا لرَفعِ ضغطِ الدمِ فحسب..

بل لرفع مُعدَّل السِيرُوتونين (هرمون السعادة) للمَغارَةِ بأسرِها..

استبشرَ الصديقان به.. وعلِما يَقيناً الآن بأنَّ المَسْخَ المَزعوم آدميٌّ مُشَوَّهُ الخلقةِ.. أجَل.. لكنَّهُ يسمعُ ويفهمُ.. بل ويتعاطفُ أيضاً.. وربَّما يكون هو طوقَ النجاةِ الوحيدِ لهما..

"أنا لا أصدِّقُ ما أرى يا سليم!!

كان إحساسُك بمحله.. هو ليسَ مَسْخاً.. ربما يكون رجلاً مُشوَّهاً يعيش على مَقرُبةٍ من هُنا.. لم أتصوَّر أن يُسعدَني وجودُه الآن بعد أن كان يُفزِعُني..

شكراً أيُّها المَسْخ.. أعني شكراً أيُّها الصديقُ الغامِض"... هَتَفَ مروان بسعادةٍ عارِمَة..

"هيَّا هيَّا.. دعني أضعُ لكَ القليل من الملح على هذا الجرح قبل أن يلتهب"..

تحرَّك سليم بسرعة لتعقيمِ جرحِ ساقِ مروان الذي هَمَسَ في أذنه لئلا يصلَ صوتُه إلى أعلى..

"اسمع يا سليم.. أنا أثقُ ببلاغَتِك ومهارَتِك في الإقناع.. عليك ألا تضيِّعَ الفرصة.. تحدَّثْ معه.. طالما أنَّه يسمعُ ويفهمُنا.. تحدَّث معه بسرعة.. حاول استعطافه لعلَّه يفعلُ شيئاً لانتشالِنا من هُنا"...

فكَّرَ سليم باقتراحِ مروان.. نعَم هو مُحِقٌّ.. هناك فرصٌ لا يحتاج اقتناصُها لتفكير.. ولا تحتَمِلَ التأجيل.. نهضَ رافعاً بصرَهُ صوبَ الفتحة.. ونادى بصوتٍ مرتفعٍ:

"شكراً لكَ يا صديق.. أعرفُ أنَّك تسمعني الآن.. بل وتفهمني.. اعذرنا لأنَّنا أسَأنا الحكمَ عليك في البداية.. تمَلَّكَنا الخوفُ وقتَها ولم نُحسن التصرف..

أرجوك.. امنحنا فرصةً الحديثِ معكَ والتعرُّفِ إليك"...

أطلَّ الرجلُ برأسِهِ من جديد بعدَ سماعِ ما قاله سليم وظلَّ ينصِتُ من أعلى بانتباه دونَ أن يُبديَ أيَّ ردّ فعل.. وهذا ما شجعَ سليم على الاستمرار في مُخاطبته.. شعرَ بأنَّه استطاعَ جذبَ اهتمامِه.. فاستمرَّ باستدراجِه:

"أرى أنَّك تسمعني وتراني بوضوحٍ يا صديقي.. لكنَّني أراكَ ولم أسمع صوتك.. دعنا نتحدَّثُ قليلاً.. لا تخجل من مُصابِ وجهك هذا واقترب لنتعارف.. يكفينا جمالُك الداخليّ.. يكفينا أنَّك أطعَمتَنا هُنا وأسعفتَ جرح صديقي هذا.. فلنختصر المسافة بيننا ولتنزل لنتعارف عن قُرب.. مُؤكدٌ أنَّك ستجدُ السبيلَ وتستطيع أن تصل إلينا بسهولة إن أردتَ.. أرجوك إقبَلْ دعوتَنا ولتشاركنا غداءَ التفاحِ اليوم"... قال سليم مُحاوِلاً ترطيبَ الأجواء وقد رسَمَ ابتسامَةً حذِرة على وجهِهِ..

لم يَصدرْ عن الرجلِ الغامضِ أيُّ ردِّ فعلٍ.. عدا عن أنَّه انسحب مُتراجِعاً واختفى عن الأنظار...

"لا بأس.. كانتْ محاولةً جيِّدة.. مَن يدري؟ قد يعودُ لاحقاً ويرمي لنا وجبة كبابٍ بعد إطرائِك وثنائِك الذكيّ عليه".. قال مروان مُواسِياً..

"وهل تعتقدُ بأنَّي كنتُ أتَمَلَّقُ؟ أنا فعلاً عَنَيتُ كلَّ كلمةٍ قلتُها..

هذا المَسْخ.. أقصد هذا الرجل الغامض مع تشوُّهاتِ وجهِه يُوحي الآن بالأمان أكثر من العديدِ من مَعارِفنا الوُسَمَاء..

حقاً.. من الخطأ ومن غير المُنصِفِ أن نحكُمَ على الأشخاص من مظهرهم..

ثم دعنا نكفُّ عن تسميته بالمَسْخ.. تلك التسميَّة غرسَتْها خرافاتُ أهل القرية في ذِهنِنا.. والحقيقة أن لا وجودَ لها البتَّة.. لكنَّ الوهم يبدأ بنواةٍ صغيرة ليكبُر ككرةِ الثلجِ التي سُرعانَ ما تذوبُ عندما تسطعُ شمسُ الحقيقة بقوَّة..

تعالَ ولنأكل تفاحاتِنا وننتظر ما سيفعل صديقنا.. وقد أصبحت الكرةُ في ملعبِه الآن"..

"أيُّ كُرة؟ كُرة الثلج؟".. أجابَ مروان مَازحاً ثم لاحظَ امتِعاضَ سليم فتَدَارَكَ المَوقف..

"حَسناً حَسناً.. دُعابَة سَخيفة كالعادة.. وذَهَبَتْ في حالِ سبيلِها.. آسف.. صدِّقني لا أقصدُ السخرية من كلامك.. كلُّ ما قلتَه صحيح.. لكنَّني لم أتمَكَّن بعد من التخلصِ من سَخافة تعليقاتي وهَفَواتي اللا إرادية"..

عاوَدَ الصديقان جلوسَهما لتناولِ التفاح وأخذِ قِسْطٍ من الراحة.. وتنفَّسَا الصُعَداء في انتظارِ ما قد يَحدُث!!

مرَّتْ ساعتان دونَ أيِّ تغييرٍ في المَشهَد.. إلى أن صَدَرَ صوتٌ من أحدِ الدهاليزِ المُحيطة..

فزَّ سليم بسرعة وتأهَّبَ مُحدِّقاً تجاهَ مصدرِ الصوت..

وكانَ ما هوَ مُتوقعٌ!!!

طويلُ القامَة.. عريضُ المَنكبَين.. قَويُّ البُنية.. يَمشي ببطءٍ ويَعرجُ على قدمِه اليُسرى وكأنَّ بِها علَّة... و .... مُشوَّهُ الوجه!!!

الرجلُ الغامِضُ.. أو المَسْخ (سابقاً)... بشحمِه ولحمِه!!

ثمَّة غرابة فيما تبقَّى من ملامح وجه هذا الرجل.. عينان دعجَاوان كَحيلَتان يعلوهُما حاجبان عريضان يَشدَّانك بقوتِهما ليَصرِفا انتباهَك عن دمامِل وتشوهات وجهه الذي يبدو أنَّ حادثاً ما أطاحَ بسلامَتِه..

لكن وجنَتَه اليُسرى نجَتْ لينموَ فوقها ما أمكن من لحيَةٍ شعثاءَ مُغبَرَّة..

أمَّا شعره الأجعد الخشن الفاحِم الكثيف.. فقد بدا مُنسجِماً بسوادِهِ مع ظلام الدهليز الذي خرجَ منه..

كانت ثيابُه أيضاً غريبة.. تحملُ طابعاً تقليدياً لكنها عريضة ومُهَلهَلة.. مع خفٍّ قديمٍ مُهترئٍ يشحذُ صوتُ احتكاكِه بالأرض طبلةَ أذنِك..

وقفَ قبالَةَ سليم ينظرُ في عينيهِ بحدَّة وبشكلٍ مُباشرٍ..

ثم... ابتسم!!!

كانت هذه الابتسامة بمثابة تأشيرةِ دخولٍ إلى قلبِ سليم..

جعلتْه يُسارِع ويبسطُ كفَّهُ ليُصافحَ الرجل بنظرةِ رضا وامتنان..

بدورِه.. لم يتأخر هو الآخر.. في التجاوب والمُصافحة.. بكَفِّه الخشن الكبير.. وقبضتِه التي شدَّتْ بقوَّة على أصابع كفِّ سليم..

"لا أعرفُ كيف أشكرك على تلبية استغاثَتنا يا صديقي.. جزاكَ اللهُ عنَّا خيراً.. سامِحنا لفظاظتِنا مَعكَ بالأمس عندما رأيناك عند مَدخل المَغارَة..

جئنا من القرية للاستكشاف وتمضيةِ بعض الوقت في هذه الربوع الجميلة.. لكننا نجهل مَخاطر المكان.. وعلِقنا هنا بعد أن تسبَّبَ السقوط لنا بكدماتٍ وإصابات..

اسمي سليم وهذا صديقي مروان"...

فزَّ مروان مُحاولاً النهوض بسرعة بالتزامن مع الإشارة إليه ليقدِّم واجب الشكر للصديق الجديد.. لكنَّه وبسبب اضطرابه وإصابة ساقه تعثَّرَ أمامَهُ.. فهرَعَ الرجل وبحركةٍ عفويَّة لمساعدَته وأمسَكَ بساعِدِه لتفادي سقوطِه..

"شكـ كـ.. رراً... أنا.. أنا.. آآآه.. لستُ بارعاً بالكلام كسليم..

لكن مَرحباً.. اسمي مروان"... تلعثَمَ مروان وهو يمُدُّ يدَه للمُصافحة..

هزَّ الرجلُ برأسه دونَ أن ينطقَ.. في إيماءَةٍ تعني "تشرَّفنا"..

عادَ سليم ومروان ليأخُذا موقعيهما بالجلوس في حين جلس ضيفُهما على صخرةٍ مَصقولة على مَقربةٍ منهما..

"في الحقيقة لا نعرفُ إن كنتَ أنتَ ضيفنا.. أم أنَّنا نحن هنا في استضافتك..

هل تعيشُ في الأرجاء؟ ما اسمك؟

كيفَ وصلتَ إلينا من الأعلى عبرَ متاهاتِ وسراديبِ هذه المَغارة المُتشَعِّبَة؟".. حاول سليم تحريك المياه الراكدة.. في حين ظلَّ الرجلُ صَامِتاً يُحدِّقُ بهما ويتفحَّصُ تفاصيلَهما دونَ أن تَشيَ تعابيرُهُ بأيِّ انطباع..

"حسناً.. سامِحني إن كان فُضولي يزعِجُكَ..

لكن كما تَعلم.. الغريقُ يتعلَّقُ بقشَّة.. ونحن هنا كالغَرقَى.. ولا نعلمُ كيف نتصَرَّف.. تفضَّل هاكِ إحدى تفاحَاتِك.. شاركنا غداءَنا وليكُن بينَنا خبزٌ وملح.. أعني تفاحٌ وملح".. قال سليم باسِماً مُحاولاً كسْرَ جديَّةِ المَوقف.. في إشارةٍ إلى

التفاح والملح اللذَين كانا بمثابةِ عربونِ سلامٍ مع الرجل الذي لم يُحرِّك سَاكناً ليتناوَل التفاحة من يدِ سليم.. لكنَّه عدَّل من جلستِه ونظرَ إليهما لينطِقَ أخيراً:

"اسمي جَمال"...

كان وقع صَدى صوتِه الأجشّ ببحَّتِه الغريبة كوقعِ الرعد!

لا لِرَصانَةِ نبرَتِهِ فحسب.. بل لأنَّها أيضاً لم تكن المرَّةَ الأولى التي يُذكرُ فيها هذا الاسم أمامَهما..

(جَمَال)...

لُغَةُ القَلبِ وَالجَسَدِ

نَطَقَ الرجلُ أخيراً.. واستحالَ المَسْخُ الذي ذاعَ صِيتُهُ ليرُعبَ القرية بأسرِها استحالَ صديقاً وَدُوداً يتجاذبان معه أطرافَ الحديث بعد أن أطرَبَهُما بصوته ونطقَ أخيراً..

"(عاشتْ الأسامي) يا جمال..

حسناً هل أبدو ثرثاراً وشديدَ الفضول إن سألتُكَ عن حكايتك؟

سأكون صريحاً معك ولا أُخفيكَ أنَّنا تَوَجَّسْنَا في البداية من ظهوركَ المُريب في الأرجاء.. أعني.. لا أحد قد يقطن هُنا ولا مَعالم لحياة بشرٍ في المحيط القريب من المكان.. ما الذي قد يأتي بكَ وحيداً إلى هنا؟"... سأل سليم مُحاولاً التَودُّدَ إلى جمال وإذابَة جليد ردُودِ فِعلِه..

"هل وضعتَ المِلحَ جيداً على جرحِ صديقِك وضمَّدتَها؟

حذارِ من تلوثه.. قد يسبِّب التهاباً ويَطالُ عظمَ الساق إن تفَاقَمَ وضعُه"..

أجاب جمال برصَانةٍ مُتجاهلاً سؤالَ سليم وكأنَّه لم يسمَعْه.. وأومَئَ برأسِهِ مُشيراً إلى ساقِ مروان..

كانت ثقته وطريقته في الكلام تَشِي بأنَّ هناك سِرَّاً يلفُّ غموضَ شَخصِيَّته..

لا يعكسُ هدوؤُه وأسلوبُ تعاطِيه معهم صورةَ آدمِيٍّ بدائيٍّ أبلَه يَفترشُ الأدغال ويتسكَّعُ في غَيابَاتِ المَغارَة.. بالرغم من ثيابِه الفَضْفاضَة البَالية..

كان ينضحُ رجولةً واتزاناً.. تحيط به هَالةٌ من الهَيبة.. وفي نظراتِه ألفُ حكايةٍ وحكاية.. لكنَّها تحتاج لحِنكةِ ومَهارةِ مُحاورٍ مُحترفٍ يستطيعُ تحويلها من نظراتِ عينٍ إلى كلماتِ لسان.. وسليمٌ لها ولا شكّ..

"طيِّب هل معكَ جوَّال يا (أخي جمال)؟

نريدُ أن نطلبَ النجدَة من أهلنا في القرية.. أنا أضعتُ جوَّالي.. ومروان نفدَ شحنُ جوَّالِه.. وأساساً لا شبكة اتصالات هُنا في القاع..

هل تُسدي لنا خدمةً وتُكملُ معروفَكَ معنا وتتَّصِلُ بهم من خارج المَغارَة؟ أنا أحفظُ رقمَ أبي وسأُلقِّنكَ إيَّاه"...

انتقلَ سليم إلى الخطة باء (ب) في التَودُّد لجمال.. وخاطَبه بـ (أخي جمال) عوضاً عن (جمال) كمَن يَرفَعُ مُستوى العلاقات الدبلوماسية بين دولتين إلى أرقَى درجَاته.. كما سأله سؤالاً لا يستطيعُ تجاهُلَه أو تجنُّبَ الإجابةِ عنه.. فقد يَتمنَّعُ المَرء عن الإجابة عن الأسئلة الشخصيّة دون أن يُلام.. لكنَّ مروءَتَه تُحتِّمُ عليه التفاعل.. ولا تسمح له بالإحجامِ عن الإجابة عن سؤالِ مُساعدة أكانَ الردُّ بالرفض أو الإيجاب..

"لا.. ليس معي جوَّال.. بل لا أملكُ جوَّال".. أجابَ جمال باقتِضَاب..

أحسَّ مروان بأنَّ أبوابَ التفاعلِ مُوصَدةٌ أمامَ سليم.. فأراد أن يساعدَه وتدخَّلَ بدوره لاستدراجِ جَمال وحضِّهِ على ائتلافِهما.. فتظاهرَ بأنَّ جرحَ ساقِه آلمَه فجأةً وبشدَّة..

خطرتْ له هذه الفكرة بعد أن استشعرَ اهتماماً خاصاً من جمال بحالةِ جُرحِهِ.. وأيقنَ أنَّ هكذا وسيلة ستستفِزُّ حميَّة الرجلِ فورَاً..

"آآآه.. ما هذا الألم المُفاجئ الذي لا يُطاق.. جرحي يؤلمني جداً.. ماذا وضعتَ له يا سليم؟ أنا لا أتحمَّلُ هذا الألم"... صرخَ مروان مُمسِكاً بساقِه.. بعد أن غمزَ سليم بعينِه في غفلةٍ من جمال الذي انتفضَ من مَجلسِه وجَثا على رُكبَتَيهِ فجأةً أمام مروان وفضَّ عُقدةَ قطعةِ القماش التي لُفَّ بها الجُرح قائلاً:

"ألم تَجِدْ ما هوَ أكثر اتِّسَاخَاً من هذه القماشة لتُضَمِّدَ لهُ الجرح يا حكيم زمانِك؟".. قال جمال مُوَبِّخاً سليم.. وهو ينزعُ الضِمادَ القديم عن ساقِ مروان باستياء..

كانت بالفعل قطعة القماش التي استخدمها سليم في تضميدِ الجرح شديدةَ الاتساخ بالتراب والغبار.. لكنَّه لم يجدْ بديلاً عنها عندما أراد إيقاف نزيف الجرح في عُجالة..

"وما هذا؟ هل فرَكْتَ الجرحَ بالملح الجافّ؟ لا عجبَ أنَّ ساقَه تؤلِمه! أعطني قنينة الماء تلك"..

أشارَ جمال إلى قنينة ماءٍ فارغة كانتْ ملقاةً فوقَ حقيبة الزوَّادة مُخاطباً سليم الذي سارَعَ لتلبية طلبه..

"إنَّها فارغة.. هل لديكم القليل من المَاء؟"..

"لا.. لقد نفدَ بالأمس.. لم نتوقَّع أن تَطولَ رحلتُنا.. ولم نجلب الكثير من الماء والطعام معنا".. أجابَ سليم بِحَرَج..

"حسناً.. انتظِراني قليلا"..

نهضَ جمال حاملاً معه القنينة وتوجَّهَ صوب مَدخل نفقٍ قريبٍ ثم غابَ فيه..

ما إن اختفى عن ناظِرَيّهِما حتى فزَّ مروان من مَضجَعِه كالحصان مُمازحاً سليم بصوتٍ خافت ومُقلداً جمال:

"مِلحاً جَافاً؟ تضعُ على جرحي مِلحاً جافاً يا حكيم زمانك؟ أليس في قلبك رحمة؟"...

"ألمْ تقلْ جدَّتُك عَواطِف أن (المِلح على الجرح) مُفيد؟ ثم ماذا عسايَ أن أفعلَ بدون ماءٍ كافٍ في مُتناولِ يدنا"... ضحك سليم عفويَّاً وهو ينَقِّلُ ناظِرَيه ما بين مروان والنفق.. في انتظار عودة جمال.. واستطرَدَ هامِساً:

"لكن أخبرني.. هل فعلاً يؤلمك جرحك إلى هذا الحدّ؟

كانت فكرةً صائبةً أن تحاول إجباره على الاندماج معنا عبر استعطافه واستمالتِه بطلبِ المُساعدة الإسعافيَّة.. يَبدو أنَّه يسعى جاهداً إلى تركِ مسافةِ أمانٍ بيننا وبينه.. لكنَّه يفشلُ في إخفاءِ شهامَتِه.. أشعرُ أن وراءَ هذا الـ (جَمال) حكاية ما"..

"ارحمنا من تسُونامي فضولك أرجوكَ يا سليم.. ولتُعطِّلْ حدسَكَ حتى إشعارٍ آخر..

ما سَاقَني إلى هنا هو الطمع بمكافأةِ القلادَة التي لم أعدْ أرغب بها.. أمَّا أنت ففضولك الذي لا ينتهي هو الذي أتى بك.. وقد أصبَح مُخيفاً.. ولا تُحمَدُ عُقبَاه أحياناً كما ترى"..

"ليس الفضول وحده.. أنا فعلاً أردتُ أن أفعل شيئاً يخدمُ السيِّد في هذه القضية.. كنت أريد أن أحصلَ ولو على رأسِ خيط يقودُنا إلى أيِّ معلومةٍ إضافية تثلجُ

صدرَه.. لكن يبدو أنَّ الأمر صعب".. أجابَ سليم قبلَ أن تُقاطِعَه عودةُ جمال وهو يعرجُ على رجلِه اليُسرى عبر النفق وفي يدِهِ قنينةٌ مَملوءةٌ بالماء..

"من أين أتيتَ بالماء؟".. سألَ سليم بشكلٍ عَفويٍّ..

"مُدَّ ساقَك باستقامةٍ.. سأغسل جرحك بمحلولٍ ملحيٍّ لتعقيمِه ثم...."...

سَكَتَ قليلاً قبلَ أن يُتابعَ مُخاطِباً مروان.. ومُتجاهلاً سؤالَ سليم مرةً أخرى:

"أرَى أنَّ هذه اللفحَة التي حولَ عنقك هي أنظفُ الموجود من ثيابكم.. سأشطرها ونجدِّد بها ضمادَ الجرح.. قد يؤلمك الأمر قليلاً لكنَّك سترتاح لاحقاً ويلتئم جرحُك بسرعة إن شاء الله"...

أضافَ بكَفِّهِ حفناتٍ من الملح إلى ماء القنينة ثم أغلَقها بإحكام ليَرُجَّها مِرَاراً فيكتمِلَ تحضيرُ المحلولِ الملحيِّ ويغسل به مكان الجرح جِيئةً وذهاباً..

"آآآآه.. هل هو مَحلولٌ كاوٍ.. أشعرُ أنَّه يحرقُني كما اللهيب"... صرخَ مروان مُتألماً بصدقٍ هذه المرَّة.. ليُكمل جمال إجراءَاته بحاجِبَين مُقَطَّبَين دون الاكتراث لشَكْوَاه..

مزَّقَ اللفحَة القماشيَّة وتحرَّى الجانبَ الأكثرَ نظافةً فيها ليضمِّدَ مكان الجرح بعدَ غسله..

لم يكُنْ بوسعِ سليم ومروان إلا أن يتَبَادَلا نظرات الدهشة فيما بينهما وهما يُراقبان ما يجري بذهول..

"حَسناً ارتَحْ الآن قليلاً ولا تحرِّكها.. عافَاكَ الله".. قال جمال وهو ينهضُ عائداً إلى حيث كان يجلس على الصخرة القريبة.. ثم أردَفَ مُخاطباً سليم:

"من البحيرة التي في قاعِ المَغارَة السُفليَّة"..

"عفواً؟ لم أفهم!!"... تمتمَ سليم وقد تفاجَئ أصلاً بأنَّ جمال يوجِّهُ له الكلامَ أخيراً..

"أتيتُ بالماء من بحيرة يُغَذِّيها نهرٌ جوفيٌّ في المَغارَة أسفل"... أجاب جمال..

"آآآه حسناً.. شكراً لك"... أحجَم سليم هذه المرَّة عن الاستفاضة في عباراته واكتفى بشكرِه باقتِضَاب.. فهو في غِنىً عن إحراجٍ جديدٍ يجرُّه تجاهلُ جمال له..

هو حقاً يشعرُ بالارتباك في التعاملِ مع هذا النموذج الغريب.. خاصّةً وأنَّ ثمَّة فرق في التوقيت بين استقبالِه السؤالَ وبثِّه الإجابةَ..

يسألُه فيتجاهل ثم يُجيب لاحقاً بدون مقدمات.. كأنَّه حوارُ كرٍّ وفرٍّ لم يَعْتَدْهُ سليم من قبل.. يبدو أنَّ تقلُّباته وطبيعته الفظَّة وخشونة تعاملِه تنبعُ من خلوته في الطبيعة واعتزاله البشر..

هو يفتقدُ الكياسَة نوعاً ما.. لكن لا مشكلة.. فالصدقُ والشهامةُ أهم..

ويكفي أنَّه لم يخسر إنسانيَّتَه حتى مع اعتزاله الناس وصبرِهِ على أذَاهم وتنمُّرهم..

هرَعَ وتدَخَّلَ بلهفةٍ لإسعاف مروان وبَذَلَ ما في وسعِهِ وكأنَّه يُداوي أخاهُ الصغير..

جَلْفُ الطباع.. أجل.. لكنَّه ليِّنُ القلب..

"وأنتُما كيفَ وصلتُما إلى هُنا؟"... سألَ جمال وقد بدا عليه الارتياح قليلاً..

يبدو أنَّه يَستجيبُ عندما لا يُضغَطُ عليه بالأسئلة.. ها قد أجدَتْ الخطة جيم (ج) نفعاً وحرَّضَتْ فيه العبارات المُقتَضَبة لسليم الرغبَة بالتعاطي والحديث..

بعضُ الأشخاص هكذا.. يتهرَّبُون حين تُلاحِقهم.. ويلاحقونَك حين تتهرَّب..

يُجيبونَك عندما لا تسأل.. ويتجاهَلون سؤالَك حين تُلِحُّ عليهم..

هو إذاً من النمط الذي يتكلَّمُ طوعاً عندما يرتاح ولا يشعر أنَّه مُحاصرٌ بالأسئلة.. عليَّ أن أتظاهر بالفتور واللامُبالاة وأن أخفيَ فضولي حِيَالَ حكايته..

عليَّ ألا أبادِرَ بسؤالِه عن أمورٍ تخصُّهُ.. وأن أكتفيَ بالإجابة فقط على قَدرِ سؤاله.. فكَّر سليم قبل أن يُجيبَ جمال:

"أنا وصديقي مروان أرَدْنا الخروج في رحلة استكشافٍ للمَغارَة.. كنَّا نظنُّ أن بإمكاننا خوض غمارِها.. لكنَّنا تَأخَّرنا في إدراكِ خطورة الأمر.. علِقنا هُنا كما ترى.. ويجهلُ أهلُنا مكانَنا"..

"هذا أمرٌ متوقعٌ وقد تكرَّر كثيراً من قبل.. مغارةٌ بهذا الحجم وهذه التشعُّبات تحتاج سنواتٍ لسَبْرِ أغوارِها وتتطلَّبُ كوادِرَ مَؤهَّلة تفوقُ تجهيزاتُها قدرات المُحاولات الفردية الطائِشة.. لحُسنِ حظِّكم أنَّني تعثَّرتُ بكم في بداية المشوار.. وإلا فلا أحدَ يعلمُ أين ستكون هياكلكم العظميَّة مُلقاة!"..

"نعَم نعَم أصدِّق ذلك.. فقد تعكَّر صباحُنا اليوم بهيكلٍ يرقُد في جَيبٍ حجريٍّ قريب - رحِمَهُ الله - كائِناً من كان".. أجابَ سليم واكتفى بالإشارةِ إلى رؤيتِهما الهيكلَ العظميَّ.. وتعَمَّدَ عدمَ الاستفسارِ عن هويَّةِ صاحبِه..

هو ينتهِجُ الآن سياسة رَمي الطُعْم..

إذا كنت تريد الإجابة فعليك رميَ الطُعْم بخبرٍ ما.. وتجنَّب السؤال المُباشر..

"هيكل واحدٌ فقط؟

في بطنِ هذه المَغارَة العديد من الهياكل.. هناك من تاهَ وماتَ من الجوع والعطش.. وهناك من تمَّ قتلُه وسَحْلُه ورميُه فيها.. وهناك من جلَبَته الضِباعُ بين فكيِّها".. أجابَ جمال ببرود ثم التفتَ إلى مروان..

"كيف حالُ جرحِكَ؟ ألم يَهدأ قليلاً؟ ليس من المُفيد بقاؤكَ هُنا مع هذه البرودة والرطوبة"..

أرادَ مروان انتهازَ الفرصة وتمهيدَ طريقٍ للخروجِ من المَغارَة بتقديمِ الدعَم لسليم (الذي يبدو أنَّ وسائِلَه تعطَّلتْ).. مُستغلاً تعاطُف جمال معه هوَ بالذَّات..

ربَّما رجله العرجاء كانت قاسِماً مُشتركاً لمعاناتِهما.. ما دفَعَه لمضاعفة الاهتمام به..

"طيِّب ماذا عسانا نفعل؟

أنا أشعرُ برجفةٍ تجتاحُ أضلاعي فعلاً.. هل يُعقل أنَّه انخفاضٌ في الضغط؟

ليتني أخرجُ من هنا بأسرعِ وقتٍ قبل أن يُصيبَني وساقي مَكروه"...

عزفَ مروان بمهارةٍ على الوَترِ الحسَّاس.. مُصِيباً الهدف..

"حسناً.. كيف أستطيعُ مساعدَتكما؟ بإمكاني مرافقتكما وإرشادكما إلى سبيلٍ للخروج من هُنا.. أنا أحفظُ عن ظهرِ قلبٍ كلَّ شبرٍ في هذه المَغارَة.. وقد تَرَعْرَعْتُ فيها.. لكن يفصِلُنا عن المَساء نصفُ ساعةٍ فقط.. وهي غيرُ كافيةٍ للخروجِ مع وضعِكَ الصحيِّ هذا..

ستُعِيقنا العَتمةُ.. عَلاوةً على أنَّ المَسير في الغابة مَحفوفٌ بالمخاطر عندما تشرِدُ فيها الضِباعُ قادمةً من الجبلِ ليلاً.. من الأفضل التريُّث حتى الفجر والانطلاق على نور.. لكن لن أدعَكَ تُمضي ليلَتَك هُنا.. سأنقلك إلى مكانٍ أفضل وأدفأ"..

ثم التفتَ إلى سليم قائلاً:

"وأنتَ أيضاً"..

"حسناً حصَلتُ على الأقل على جائزةِ تَرضية وباتتْ مَعِيَّةُ مروان كفيلةً بالتكَرُّمِ والسماحِ لي بمُرافقتِكُما".. فكَّرَ سليم في سِرِّه..

وَذابَ الجَليدُ

عَبْرَ مَمَرَّاتٍ ودَهاليز وتَجاويف صخريّة عدَّة يُفضي بعضُها إلى بعض.. اقتادَ جمال الصديقَين إلى أن وصل الجميعُ إلى جيبٍ حَجريٍّ مُكوَّرٍ يَتَّخِذهُ غرفةً له..

" تفضَّلا.. أهلاً وسَهلاً.. المكانُ مُتواضعٌ هُنا.. لكنَّه على الأقلّ.. دافئٌ.. ومُخدَّمٌ بإبريقٍ من الشاي على الحطب.. وبساطٍ ووسَادةٍ سيكونان من نصيبِكَ الليلة يا مروان"..

بدا مروان كالطفلِ المُدَلَّلِ الذي يَتبَختَرُ مُتأفِّفاً من الإطراءات بعد أن خَصَّه جمال بالمكان الأفضل ونادَاه باسمه..

جيبٌ حجريٌّ صغيرٌ جمَعَ فيه جمال بعضَ الحطبِ وحرصَ على إبقائه دافئاً بإضرامِ النار في موقدٍ بدائيٍّ يدويّ الصُنع يتوسَّطُ المكان.. يَعلوهُ إبريقُ شاي خفيف الوزن من الألمنيوم تركَت النيران بَصَمَاتِها على قاعدَته التي اتَّشَحَتْ بالسَواد بعد أن صَبَغَتْها ألسِنَةُ اللَّهَبِ وهيَ تلسَعُها مع كلِّ كوبِ شاي جديد..

تمَوضَعتْ حولَ المَوقد قطعَتا خشبٍ اسطوانيَّتان فيما يبدو أنَّها أجزاءٌ من جذعِ شجرةٍ خشبيٍّ غليظ تحوَّلت إلى كرسيٍّ للجلوسِ ومِنضَدةٍ صغيرة مُتعدّدة الاستعَمالات.. وبِمُحاذاةِ الجدار امتدَّ بساطٌ سميكٌ تعلُوه وسادَةٌ قديمة.. من الواضح أنَّهما مُخصَّصَتان لقيلولةِ جمال وأوقاتِ راحتِه في المَغارَة..

الوضعُ مُختلفٌ هنا في هذا المكان.. فبالقدرِ الذي كانتْ فيهِ المَغارَة باردةً ومُوحشةً قبل قليل.. غدَتْ الآن دافئةً وحميميَّة.. بعد أن أوقدَ جمال النار تحتَ إبريق الشاي وأضاءَ مصباح كازٍ كان مُعلقاً إلى الجدار فوقَ الوسادة.. وأخرج بعض الجَوز والتمر من (قفَّةِ القشِّ) التي اتخذَتْ مكاناً لها على صخرةٍ مُتطاولةٍ في صدرِ الغرفة لإكرامِ ضَيفَيه..

"لا يوجدُ إلا كوبٌ واحدٌ للشاي هُنا.. لم أعتَدْ استضافةَ أحدٍ.. بل لم يَسبق لي أبداً استضافةُ أحدٍ هُنا.. سَأقصُّ رأسَ قنينةِ المِياه البلاستيكية هذه واشحذها بالسكين ونحوِّلها لكوبٍ مُتطاولٍ لشربِ الشاي.. يُقال أنَّ الأكوابَ البلاستيكيَّةَ ضارَّةٌ وغيرُ صحيَّة.. لكن لا بأس بها الآن لمرَّةٍ واحدة وكوضعٍ طارئ..

آآآه.. لستُ مُضيفاً بارعاً.. لكن.. خُذا راحتكما"..

قال جَمال مُرتَبِكاً وهو يُحاولُ توضِيبَ المَكان وتهيئَتَه لتأمين الراحة لضَيفَيه..

حقاً.. الوضع مُختلف هُنا.. فحتى جمال تغيَّرَتْ طريقتُه في التعَاطي مَعهما..

كيفَ لا؟ وهما الآن في بيتِه.. ولهُما عليهِ حقوق إكرامِ الضيف بما فيها بشاشة الوجه.. وحُسن الترحيب..

لم يَعُدْ مَسمُوحاً لوجهه أن يَكفَهِرَّ قَطّ طالما أنَّه مُضيفُ هذا المكان..

استلقى مروان على البساط.. وضعَ رأسَه على المخدَّة وأرخى أطرافَه باستمتاعٍ بعد أن استشعرَ دِفءَ المَكان..

في حين ظلَّ سليم واقفاً عند مَدخلِ الغُرفة ينتظرُ إيعازات جمال الذي انشغلَ بإشعالِ المَوقد وإضاءة المصباح.. إلى أن لاحظَ انزِواءَ سليم..

"تفضَّل يا سليم.. دقائق ويجهزُ الشاي.. تفضَّل ولتتذوق بعض التمر والجوز"..

دفعَ جمال كرسيَّ جذعِ الشجرة صوبَ سليم ودعاه للجلوس بنبرةٍ يُغلِّفُها التودُّدُ..

للحظاتٍ..... غابَ عن ذهنِ كلٍّ من سليم ومروان أنَّ وجهَ جمال مُشَوَّهٌ..

وكأنَّ دمامِلَ وجهِهِ الغليظَة وتشوُّهاتِهِ استحَالت لتبدوَ أليفةً ومُعتادَة..

غريبٌ هو مَفعولُ الكلمةِ الطيِّبة والجمال الداخليّ الذي طَغى على قباحة تشوهَاتِهِ الخارجيَّة حتى كادَت تختفي وتتضاءَل..

على أيِّ حالٍ فوجهه وفي تناقضٍ عَجيبٍ هو توليفةٌ نادرة بين دمامةِ تشوُّهاتِه في الجزء المُصاب.. ووسامَتِه الفائِقة في الجزء الذي نَجا..

لغةُ جسدِهِ المُشوَّه مع نقاء روحه يبثان طاقةً إيجابيةً لا بدَّ أن يلتقطَها من كان فيه ذرَّة إنسانية..

عادَ سليم واستبشرَ خيراً بعد أن بادرَ جمال وأذابَ لوحَ الجليد الذي كان يفصِلهُما..

جلسَ إلى جوار المَوقد في انتظارِ حصَّتِه من الشاي..

"وطبعاً.. كوبُ الشاي الزجاجيِّ لمروان.. بينما أحظى أنا بكوب القنينة".. قال سليم مُمازحاً جمال في تلميحٍ إلى تفضِيلِه لمروان..

"أنتَ مُخطِئٌ يا سليم.. فصديقك المُدلَّل ما إن لامسَ الوسادة واستشعر الدفءَ حتى غفا"...

قدَّمَ جمال كوبَ الشاي الزجاجي الساخن لسليم مُشيراً بحاجِبَيه تجاهَ مروان الذي غطَّ بالفعل في نومٍ عَميقٍ دونَ أن يشعر..

"مِسكين.. جرحه عَميق وقد بدأ يلتهبُ بالفعل.. علاوةً على كدماتٍ أخرى على جسده.. من الطبيعي أن يُجبرَهُ الدفءُ على النوم الآن.. كانَ مُرهَقاً وبحاجةٍ ماسَّةٍ للراحة"... قالَ جمال وهو يرتَشِفُ الشاي ببطءٍ من الكوبِ البلاستيكيِّ جالساً قبالَة سليم.. يفصلُ بينهما الموقد..

"أنت أيضاً تبدو عليك إصاباتٌ وسحجاتٌ أعقبَتْ السقوط.. آملُ ألا تكونَ خطيرةً.. هل تشكو من ألمٍ ما؟"... تابعَ جمال مُظهراً اهتماماً بسليم لئلا يشعُرَ بالغُبْن..

"لا لا.. أنا بخير والحَمدُ لله.. هي بضعُ إصاباتٍ طفيفةٍ كانت مؤلمةً في البداية ثم نسيتُها.. لا شيءَ خطيرٌ البتَّة.. مروان إصاباته بليغة وقد زاد الطين بلَّة جرحٌ سابق حديث الالتئام على ساقِه انفتَح مُجدَّداً لدى سقوطِه.. لكنَّه يتعافى إن شاءَ الله".. أجابَ سليم وقد انشرحَ صدرُه بعد أن خفَّ الفُتور بينه وبين جمال..

صمتَ الاثنان لدقائق ولم يُسمَع إلا صوت حَسِيس النار تلتهمُ عِصيَّ الخشب في المَوقد..

سليم يحبُّ الكلام لكنَّه يُمسِكُ عليه لسانَه ويمنعُ نفسه من أن يسأل.. تطبيقاً للخطة جيم (ج) التي يبدو أنَّ صلاحيَّتها انتهت مع انفتاح جمال أكثر وتحسُّنِ مزاجه..

حتى بادرَ فجأةً بالإفصاحِ عن مَكنُوناتِ صدرِه..

"آتي وحيداً إلى هنا.. لأنَّني وحيدٌ عَموماً هُنا وهُناك".. قال جمال بصوتٍ هادئٍ وهو يُحدِّقُ في الأرض..

"عفواً؟ ماذا تقصد؟"... تساءَل سليم..

"ألم تسألني ما الذي يأتي بي وحيداً إلى هنا؟".. رفَعَ جمال رأسَه مُخاطباً سليم..

"أنا؟ آآآآآ نعَم نعَم تذكرت.. غريبٌ أمرُك يا رجل!

أسألك فتُجيبُني بعد ساعة ونصف.. أصبتَني بدوارِ الحِوار.. أصلحَكَ الله"..

أجابَ سليم باسِماً ثم استطردَ وكأنَّما التقطَ ضَوءاً أخضراً من جمال يأذن له باقتحام كواليس حكايته..

"أخبرُكَ أمراً؟؟؟

عندما رأيناك للمرَّة الأولى انتابَنا الخوفُ والتوجُّس.. لكن دخولنا المَغارَة وانبهارنا بجمالها أنسَانا خوفَنا.. إلى أن وقعَ حادثُ السقوطِ وكان ما كان..

ولدى ظهورِك مرةً أخرى في غفلةٍ من مروان.. تفاجأتُ للوهلة الأولى بإطلالتك من أعلى.. ثم لا أعلمُ لماذا غادَرني التوجُّس وشعرتُ بالاستِئناس!!!

أعلمُ أن كلامي هذا مُضحكٌ وغير منطقيّ.. لكن هيَ الحقيقة..

أنتَ - واعذرني إن قُلتُها - مع هذه التشوُّهات التي ابتُليتَ بها.. قادرٌ على بثِّ إشاراتِ طمأنينةٍ بشكلٍ أو بآخر.. التقطَها راداري الذي لا يُخطئ.. ومع تأكُّدي من أنَّني لم ألتقيكَ من قبل.. غير أنَّ لديَّ شعورٌ أنَّني أعرفك أو تشبِهُ أحداً أعرفه.. حتى بحَّة صوتِكَ ليست بالغريبة!!

ولأكونَ صريحاً معك.. أرغبُ وبشدَّة بسماعِ حكايتك..

ساعاتٌ طويلة تفصِلنا عن الفجر الذي ننتظره للخروج من هُنا.. وأفضِّلُ تمضيَتَها بسماعِ الحكاية عوضاً عن النوم.. ربما تستغربُ طلبي هذا.. لكن قد يبوحُ المرءُ للغرباء بما لا يستطيع البوحَ به للمعارف والمقرَّبين".. قال سليم واستفاضَ كمَن أفرغَ جعبَة كلامٍ غَصَّتْ بها حنجرته..

"وكأنَّ لي معارفَ أو مُقرَّبين! الكلُّ غرباء بالنسبة لي"... تبسَّم جمال بسخريَّةٍ.. ثم بدأ بسردِ الحكاية.. فيما يُشبِهُ سلسلة التداعي الحرّ..

"أعلمُ أنَّهم يطلقونَ عليَّ لقب مَسْخِ المَغارَةِ..

ولا أخفيكَ.. أزعجني.. بل أغضبني الأمرُ في البداية.. لكنَّني فيما بعد تقبَّلته.. طالما أنَّه سيصرِفُ عنِّي أناساً لم أنسجم معهم ومع ثرثرتِهم طيلةَ حياتي..

أسْدَتْ لي إشاعَةُ وجودِ مَسْخٍ يحومُ في أرجاء المَغارَة معروفاً.. وقطعتْ الطريق على أهل القرية أمام ارتيادِها..

أنا الآن أشعرُ أنَّني مَلِكُ هذه المَغارَة بكلِّ ما فيها.. عِشتُ هنا عُمراً وأوقِنُ تماماً أنَّها آمنة وغير مَسكونة..

باستثناء هجماتٍ موسميَّة للضباع القادمة من الجبل ليلاً بين الحين والآخر فلا خطورة أخرى حتى لأشباح أو مُسوخ كما تروِّجُ خرافاتُ أهل القرية"..

"وما الذي أصابَ وجهَكَ؟ أعني أهوَ عَرَضٌ خلقيٌّ أم أنَّه ناجمٌ عن حادثٍ ما؟"..

"أُصِبتُ في طفولتي بحُمَّىً شديدة كانت لها تبِعاتٌ على جلدي.. ونتيجة خطإٍ وإهمالٍ في تَطبيبي اسْتشْرَتْ في جلدي جرثومةٌ غريبة تآكَلَ معها قسمٌ وتورَّم قسمٌ آخر وغطَّتْهُ الدمامِلُ..

وللأسف كان لوجهي ورقبتي وساقي نصيبُ الأسد من شرِّ هذه الجرثومة.. حتى أن عظم ساقي اليسرى التهبَ.. مما جرَّ عليَّ إعاقتي التي لاحظتَ..

نجا جزءٌ من وجهي كما ترى وأحمَدُ اللهَ أنَّه حَفِظَ لي عينَيّ.. كي أرى الدنيا بوضوحٍ.. وابتعدَ عن مُعاشرةِ البشر غيرَ مأسوفٍ عليهم"...

"وأهلكَ؟ أليسَ عندكَ عائلة؟"..

"بالطبع عندي.. أقصد كان عندي - رحِمَهُمُ الله -

أنا وحيدُ أمي وأبي.. كنا نعيش في بيتٍ قريبٍ من تلة المَغارة..

توفي أبي وأنا طفلٌ صغير.. فربَّتني أمي وحيدةً.. كانت بطبعِها انطوائيّةً تحبُّ العزلة وتخافُ عليَّ من ألسِنةِ الناس.. خاصَّة بعد إصابتي بالتشوهات..

عشتُ وأمِّي في مَعزلٍ عن البشر.. باستثناء اثنين أو ثلاثة من المعارف المُقرَّبين جداً.. أحدهم جارنا.. العَم بشير.. راعي القرية.. لا بدَّ وأنَّك سمعتَ عنه..

هو رجلٌ طيِّبٌ وشهمٌ.. كانَ عوناً لنا بعدَ الله عزَّ وجلَّ.. قبل وفاة أبي وبعدها.. ولا أعلمُ كيف كانت ستُلبِّي أمي احتياجاتنا لولا مساعدته..

خوفاً عليَّ من الناس.. مَنَعَتْ عنِّي كلَّ ما من شأنه التواصل مع الآخرين..

من يتعرَّفُ إلى نمط حياتنا يعتقد أنَّنا نعيش في العصور الوسطى.. لا كهرباء.. لا هواتف.. لا تِلفاز.. لكنَّها بالمقابل بذلتْ الغالي والنفيس في تعليمي.. استجلبتْ ليَ الكثيرَ من الكتب.. وحثَّتني على القراءة.. كي أجدَ لنفسي عوالمَ بديلة تُغنيني عن العالم الحقيقي.. وهذا ما كان"..

"خَمَّنتُ أنَّكَ قارئٌ عتيدٌ.. لغةُ حوارِك تنمُّ عن غِنى مفرداتك.. ومصباح الكاز الذي أخذَ مكانه فوق تلك الوسادة يَشي بأنَّك تُمضي وقتك بالقراءة هُنا.. صحيح؟"..

"صحيح.. وأنت أيضاً قارئٌ مُتمَرِّسٌ.. للكتب.. وللأفكار.. على حدٍّ سواء..

سُبحانَ الله.. حقَّاً..

((الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعارف منها ائتلَف وما تناكرَ مِنها اختلف))"..

"وماذا عن أمِّكَ؟ توفيَتْ هي أيضاً؟"..

"في العام الماضي وبعد انتشار جائحةِ فَيروس كورونا.. توفيت إثر إصابتها بالمرض.. ويحدِّثونَك عن التباعد الاجتماعي!!!

لا أبْعَدَ من أمِّي عن الناس.. وها هيَ قد التقطتْ الفَيروس وأودَى بحياتِها..

كيف؟ لا أحدَ يعلم!!

تَرَعْرَعْتُ منذ نعومةِ أظفاري بين بيتِنا والمَغارَة.. لكن بعد وفاة أمي بتُّ لا أطيقُ المكوثَ هناك.. أمضي معظم وقتي هُنا.. حتى الطعام أتناوله كي يشتَّد عزمي فقط..

نَقُصَ وزني كثيراً في السنةِ الأخيرة.. وكما ترى.. وسِعَت ثيابي عليَّ مَقاسين.. وباتت فضفاضة.. لكنَّه أمرٌ أعانَني على تقمُّصِ شخصيَّة الشبحِ المَسْخ".. ضحكَ جمال ساخراً..

"- رحمَة الله عليها - وما أخبارُ العَم بشير.. ألا تأنسُ به؟"..

"هو الآخر أصابَه ما أصابه.. وكأنَّها سَنةُ المَصائب يا رجل..

أصيبَ بداء الزهايمر مُؤخَّراً.. هو أرملٌ ووحيد.. ويرفض أن يغادر بيته ليكون في رعاية ابنه عزَّام.. مما اضطر ابنه للانتقال وأسرته للعيش معه في بيتِ التلَّة.. لكلٍّ همُّه ومُصابه لكن بدرجاتٍ متفاوتة.. نسألُ اللهَ العافية"..

"ألا تشعرُ بالوحدة هنا؟ المكانُ على جمالِه مُوحِشٌ.. خاصّةً بحلولِ المَساء..

نعَم قد يستمتع المرءُ بزيارةٍ سريعة.. لكن أن تعيشَ هُنا!!"...

"هو الاعتياد يا صديقي.. أنا مُعتادٌ منذ الصغر على المكان.. ربما لذلك لا أراه مُوحشاً.. لكن لا يخلو الأمر من مُنغِّصَاتٍ تعكِّرُ صفوَ المُقام هنا..

رأيتَ بعينكَ الهيكل العظميَّ الذي في أحدِ جيوب المَغارَةِ..

صادفتُ لأكثر من مرَّةٍ محاولات استكشافٍ باءت بالفشل لرحَّالةٍ أغرار قَليلي الخبرة.. دفَعوا حياتَهم ثمنَ جهلِهم.. وكدتَّ ومروان أن تكونا منهم..

أتى البعض وتاهوا هنا.. منهم من ماتَ جوعاً.. ومنهم من ماتَ بسكتةٍ قلبية نتيجة الخوف.. وقد يأتي أحدهم إلى هنا لارتكاب جريمة أو لإخفاء معالِمِها..

هو على أيِّ حالٍ مكانٌ معزولٌ.. تَسهُلُ استباحَتَه كمسرحٍ للجرائم..

كنتُ شاهداً على أكثر من واقعةٍ هنا.. ودفنتُ أكثرَ من جثَّةٍ إكراماً لصاحبها ومخافةَ أن تأكلها الضِباعُ..

لكنَّني لم أحزنْ ويضيق صدري بالقدر الذي اختبرتُهُ لدى دفنِ شابٍّ وسيمٍ في عُمرِ الورد كان مُسجَّىً بين المَغارة والنهر..

اقتربَتْ الضباعُ منه وبدأتْ تنهشُ لحمَه.. فلم أحتمل المَشهد..

أشعلتُ ناراً في المكان لترويعِها وإبعادِها عنه..

سحبتُهُ بقوةٍ إلى الضفَّة المُقابلة من النهر في محيط بيتنا.. ودفنتُهُ هناك..

بقيتُ بعدَها يومَين طريحَ الفراش لاجتيازي النهر بمياهِهِ الباردة وبقائي ليلتها حتى الفجر في العَراء أتمُّ إجراءاتِ دفنِهِ بثيابي المُبتلَّة..

- رحِمَهُ الله - كانَ عليه أن يتوخَّى الحذرَ وهو يقودُ دراجَتَهُ الناريَّة وسطَ وعورةِ هذا المكان"...

سَقطَ كوبُ الشاي من يدِ سليم وأحدَثَ جَلبَةً كادَتْ أن تُوقظَ مروان..

فزَّ من مكانِه بعينَينِ شاخِصَتَين مُنتفِضاً كَمَن تلقَّى صَعقةً كهربائيَّةً..

" درَّاجَتُهُ الناريَّة؟

قلتَ درَّاجَتَهُ الناريَّة؟

تَيْمُور!!!

هو تَيْمُور حَتماً".....

سَهرةُ المُفاجَآت

كان الأمرُ كالصاعقة.. بعد كلِّ هذه التحرِّيات.. وسنوات البحث المُضني والتدقيق والتَمحيص التي لم تُجدِ نفعاً.. جلسةٌ بسيطةٌ كهذه تكشف خبايا ما عجزتْ عنه كوادرُ وفرقُ تحقيقٍ مُتمرِّسَة..

سبحانَ الله.. كلُّ شيءٍ بأوان.. لِحكمةٍ ما كان فكُّ طلاسمِ غموضِ قضية تَيْمُور على أهوَنِ سبَبٍ..

"دردشةٌ بسيطةٌ عفويةٌ مع شخصٍ ألتَقيهِ للمرَّةِ الأولى..

وفي أولى جلساتِ حديثِنا تنضحُ الحقيقة التي لطالما انتظرها السيِّد بحُرقةِ قلبٍ".. فكَّرَ سليم وقد اعترتْه الدهشةُ وجَمُدَ في مكانه قبالة جمال..

"ما بكَ؟ لماذا انتفضتَ هكذا كمَن لدَغَهُ عقرب؟".. سألَ جمال مُستغرباً..

"سأخبرُك يا صديقي.. سأخبرُكَ بكلِّ شيءٍ.. فأنتَ لا تعلم قيمة ما بُحْتَ به الآن"..

أمضى سليم سهرَتَه وهو يحكي لجمال حكايةَ عائلة السيِّد فيَّاض وما ألمَّ بها من فواجِع..

"إذاً قد يكون هوَ؟ تَيْمُور.. ابنُ السيِّد رستُم؟"..

"أنا متأكدٌ أنَّه هوَ.. ومن عساهُ يكون؟ متى حدثَ هذا؟ أعني متى عثَرْتَ عليه ودفنتَه؟"..

"منذُ قرابةِ الخمسِ سنين.. كان نهاياتُ الصَيف وبداياتُ الخريف.. والطقس بين هذا وذاك"..

"حسناً إذاً.. لا مجالَ للشكّ.. هو تَيْمُور يَقيناً.. علينا أن نفعلَ شيئاً حيالَ هذا الأمر.. لكن مِن أينَ نبدأ؟"...

"ومن أينَ عساكَ تبدأ؟

عليكما أولاً وقبل كلِّ شيءٍ أن تُطمئِنا الأهلَ عنكما.. أغلبُ الظنِّ أن جميع من في القصر مُستنفِرٌ الآن لغيابكما.. سنجدُ غداً وسيلةً للتواصل معهم ريثما تصلان إليهم..

قد نستعينُ بجوّال عزَّام.. ابن العَم بشير.. تستريحان في بيتي قليلاً وتتَّصلانِ بهم.. ثم نفكرُ بهدوءٍ.. وأنا جاهزٌ لأيِّ مُساعدة..

هناك طريقٌ مُختصرةٌ لا يعرفها أحدٌ عبر تجاويف ودهاليز المَغَارَةِ تُفضي إلى ساقيةِ المياه عند حدودِ الغابة قربَ التلَّةِ حيث أقطنُ.. سنسلِكها ما إن يبزغ الفجر ونصل في غضونِ ساعةٍ ونصف إن شاءَ الله"..

"هناكَ سؤالٌ قابع في حلقي.. ولن أستطيع التنفسَ جيداً إن لم أخرجه..

أنتَ جمال.. ابنُ أمِّ جمال التي كانت تعَملُ سابقاً في قصر السيِّد مع الجدَّة عَواطِف.. صح؟"... سألَ سليم بفضول..

"وهل تعرفُ الجدَّة عَواطِف؟ نعَم.. كانت صديقةَ أمِّي.. لكنَّهما افترقَتا لسببٍ ما.. أمِّي لا تحبُّ الحديث عن القصر وأهلِه.. وتعتبرُه من المَحظورات.. لم تتفوَّه بكلمةٍ عن سنواتِ خدمَتها فيه.. جُلُّ ما أعلَمه أنَّها لم تعدْ تتعاطى مع أحدٍ بعد مشكلةٍ ما حدَثَتْ مَعها هناك..

بصراحة.. لطالما كانت تُبغِضُ السيِّد رستُم.. لم تُفصح عن السبب.. لكن يبدو أنَّها أعادَتْ النظر في الأمر في سنواتِها الأخيرة.. وتغيَّرت لهجتُها لدى ذِكرِه وعائلته.. باتتْ تذكره بالخير.. وتتأسَّفُ عليه ولا تنفَكُّ تقول (يَكفِيه ما أصَابَهُ)"..

"الجدَّةُ عَواطِف.. جدَّةُ المُدلَّلِ الراقدِ الذي يشخُر بسلامٍ هناك"... أومَئ سليم برأسِه تجاهَ مروان وهو يبتسِمُ في إشارةٍ إليه..

"ما زلتَ مُمتَعِضاً من كونِه المُدلَّل؟ أتعلم؟

أنا عادةً لا أقتربُ كثيراً ممَّن يحاولُ استكشاف المَغارَة ولا أحتكُّ به.. عاهدتُ نفسي أن ابتعدَ عن البشر.. كي أتفادى تعليقاتهم الحقيرة بشأنِ وجهيَ المُشوَّه..

في النهايةِ هُم مَن مَنَحَني لقبَ (مَسْخ المَغَارَةِ) دونَ أدنَى شعورٍ بالشفقةِ أو الإنسانيَّة..

يعيبونَ تشوهاتي الخارجية وكأنَّ لي يدٌ فيها.. ويغضُّون الطَرْفَ عن تشوهاتهم الداخلية التي من صُنعِ أيديهِم..

بعضُهم رآني صدفةً في الأرجاء فغذَّى الإشاعات المُرعِبة بِشأني.. ولهذا لطالما تجنَّبتُ لقاءَهم..

لكنَّ كثرةَ تردُّدي على المَغارة في السنة الأخيرة إثرَ وفاةِ أمِّي.. جعلتْني ولحسنِ الحظ أصادفكما مع بداية مشواركما فيها.. راقبتُ الوضع عن كثَب حتى المساء واسترقتُ السَمْع من حافَّة الفتحة العلوية وعندما علمتُ أنَّ ساقَ صديقك تنزف وتكادُ تلتهبُ جُنَّ جنوني.. وأردتُ مساعدته بأيِّ وسيلةٍ..

لا أدري.. ربما بالغتُ في التعاطف معه لأنَّني ذقتُ وجع ساقي والإعاقة الناجمة عن إهمالها.. وخشيتُ أن يستفحلَ الأمر معَه مثلي!

ثم أنَّ كلامك معي حينَها.. وأسلوبك اللطيف في الثناء والشكر.. ولباقتك في التظاهر بعدم الاكتراث لتشوُّهاتي.. كانوا كالبلسمِ لها.. وكان هذا كفيلاً باختصار المسافاتِ بيننا.. لكنَّ أكثر ما أهمَّني لدى لقائِكما هو سلامة ساقِ مروان..

حسناً.. دعه يرتَح كي يَغُذَّ السيرَ معنا غداً بلا مشاكل.. ولترقدْ أنتَ أيضاً.. أنهكتْكُما هذه الرحلة بما فيه الكفاية..

أنصَحُكَ أن تأخذَ قسطاً من الراحة الآن.. أمامنا غداً يومٌ شاقٌّ وطويل ولا نعلم ما يُخفي من مُفاجآت"..

أطفأ جمال فتيلَ المصباح.. ليأخذ كلُّ واحدٍ منهما زاويةً يُمدِّد جسده المتعب فيها حتى تبَدَّت بوادر الفجر شيئاً فشيئاً مع حزمِ الضوءِ المُتسللةِ من تصَدُّعاتِ السُقوف..

فَزْعَةُ السَيِّد

في هذه الأثناء وكما توقَّعَ جمال.. كان القصرُ قد انقلبَ بمَن فيه وضجَّ على أصداءِ نبأ اختفاء الفَتَيان وانقطاع الاتصال بهما بعد رحلةٍ مزعومةٍ إلى المُجَمَّعِ التجاريِّ قُرب العاصمة..

الكلُّ يُجري اتصالاتِه هُنا وهناك لعلَّه يأتي بخبرٍ يُطمئِنُ القلوب..

ها هو العَم جابر يَحوم كالمكُّوك.. لعلَّه يقعُ على أثرٍ لهما..

ولا ينفَكُّ فائز (أبو سليم) عن ملازمَته في انتظار الفَرَج..

"حتى لو كانا في رحلةٍ إلى المُجَمَّع التجاريِّ.. فقد تأخَّرا كثيراً.. أين باتا ليلتهما؟ جوَّاليهما خارج التغطية.. ولم يتصلا أبداً.. أخشى أن مكروهاً قد حلَّ يا جابر"..

قال أبو سليم يعتريهِ الخوفُ والقلق..

"استهدِ بالله يا فائز.. ما بكَ يا رجل؟

لقد أصبحا شابَّين ويستطيعان تدبُّرَ أمرَيهِما.. أنتَ تعرف طيشَ الشباب وتهاونَهُ في الاتصال.. قلَّما يخطرُ على بالهم الاتصال لطمأنةِ الأهلِ.. وربما يكونان في مكان شبكة الاتصالِ فيهِ ضعيفة.. (افتحْ فمَكَ على خيرٍ يا رجل).. لا تَهذي وكفاكَ هُراءً".....

"أتمنى أن أكونَ مُخطِئاً يا جابر.. لكن حَدْسي يقول أنَّ مكروهاً ما قد حدث..

أبلَغْنا شرطةَ المُجَمِّعِ التجاريِّ ولم يعثروا على أثرٍ لهما حتى في مُحيطِه.. وكاميراتُ المراقبة لم ترصدْ دخولَهما لهُ..

الأمرُ قد يستغرقُ وقتاً وإجراءاتٍ خاصَّة قبل أن نتمكَّنَ من تحديدِ مَوقِعَيهِما عبر جوَّاليهما المُغلقَين.. وأخشى أنَّ الوقتَ ليسَ في صالحِنا"..

"حسناً.. دعني اتصلُ بـ (أبو عزيز) لأطلعَهُ على الأمر.. وليستخدمْ نفوذَهُ في تسريعِ الإجراءات ما أمكن"... تلقَّفَ العَم جابر جوَّاله واتصلَ بالسيِّد..

كانَ الوقتُ مُبكراً.. لم تتجاوز السابعةَ صباحاً.. لكنَّ العَم جابر ولشدّةِ توتُّره لم يتنبَّه للأمر واتصلَ عفوياً دونَ تفكير..

يُقيمُ السيِّد رستُم وزوجته في منزلٍ فخمٍ في العاصمة..

هو عادةً لا يستيقظُ قبل الثامنة صباحاً.. وكان اتصالُ جابر المُفاجئ كفيلاً بأن يقضَّ مَضجَعَهُ..

"رستُم.. استيقظ يا عزيزي.. لقد رنَّ جوَّالُكَ كثيراً ولم تنتبه"...

همَسَتْ السيِّدة مُنيرة وهي تُسَرِّحُ شعرَها بيدها عَقِبَ استيقاظِها للتَّو على صوتِ الجوَّال..

"آآآه.. لم أسمع صوتَ المُنبِّه.. هي الثامنة؟"..

"لا.. بل السادسة والنصف.. ولم يكن صوتَ المُنبِّه كان رنينَ اتصال"..

"خير!! اللهُم اجعله خيراً.. من عساهُ يتصلُ بي الآن؟"...

عدَّل السيِّد من وضعيته في سريره جلوساً.. والتقطَ نظارتَه مِن على المِنضدة الخشبية الصغيرة التي تُحاذي السرير.. مُحاولاً توسِعَة حدَقَتيه ما استطاع ليتعَرَّفَ إلى اسمِ وهويَّةِ المُتصل..

"إنه جابر.. خير! ليس من عادتِه الاتصال هكذا"...

"عاوِد الاتصالَ به يا رستُم.. ولنرَ ما الأمر.. أنا أيضاً انشغلَ بالي"..

اتصلَ السيِّد بجابر الذي أخبَرَهُ بدورِهِ بكلِّ التفاصيل آمِلاً أن يساعدهم في إيجادِ حلٍّ للمشكلة..

"ماذا؟ أينَ اختفى الصَبيَّان؟"... سألتْ السيِّدَة مُنيرة بنبرةِ قلقٍ بعد أن أطلَعَها زوجُها على الأمر..

هي تعرفُ سليم ومروان مُذ كانا صِغاراً.. ولطالما أكرَمَتْهُما مع باقي الصغار بالعطايا والحلويات.. وسيَظلانِ في نظرِهَا صَبيَّي القصر المُشاغبَين حتى وإن أصبحا بشاربَين..

"وماذا ستفعلُ الآنَ يا رستُم؟"..

"لا أدري.. سأكلِّفُ أدهم بمتابعة الأمر هنا في العاصمة.. وأوعَزتُ لجابر بتسيير رجالِ القصر في دوريَّاتِ بحثٍ مَحَّليَّةٍ في مُحيطهم.. لا أحدَ يعلم أين يمكن أن يكونا"..

"أجل أجل.. دعْهُم يستخدمون سياراتِ القصر كلّها.. لا تدَّخِر جهداً في الأمر يا رستُم".. نظرَ السيِّدُ إلى زوجته وقد أربَكَها الخبر..

"وهذا ما حدثَ.. اطمَئِنِّي يا مُنيرة ولا تَجزَعي..

أعلمُ أنَّكِ استَحضَرْتِ حادثةَ أمِّ جمال.. هي لا تغيبُ عن ذهني أيضاً.. كانت أحدَ أسوأ أخطاءِ الماضي.. لم أكن أعلمُ أنَّ طفلها في حالةٍ حرجة.. وأثارَ تعثُّرُها بتمثالِ الخزَفِ الأثريِّ الذي تَحَطَّمَ ليلتَها غضَبي..

منعتُ عنها مساعدَتي في ثورةِ غضبٍ حَمقاء.. وعندما عرفتُ قصَّتَها لاحقاً كان الأوانُ قد فات.. لم تغفرْ لي أبداً ولاحقَتني كوابيسُها مع كلِّ مراسيلِ الاسترضاء والاعتذار التي أرسلتُها لها.. وحده الله يعلمُ كم ندمتُ"..

"نعَم يا عزيزي.. الرجوعُ عن الذنبِ فَضيلة.. كفَانا اللهُ جَريرةَ دعوةِ المَظلوم"..

بَسَطَ السيِّدُ كفَّهُ فوقَ كفِّ زوجَتِهِ في لحظةِ صِدقٍ ومُصارحةٍ نادرة قائلاً:

"أتَعلمينَ يا مُنيرة؟ أشعرُ أنَّ شيئاً ما يتغيَّرُ في داخِلي..

أنا وفي هذه السنِّ ما زلتُ أنضجُ وأتعلَّمُ مِن كلِّ مَن حَولي.. وأولُّهُم أنتِ..

لطالما أكبَرْتُ قوَّةَ إيمانِك.. ويقينك برحمةِ وعَدالةِ الله..

حاولتُ أن أقلِّدَكِ وأخرج من صندوق اليأسِ والاكتئاب فلم أفلح.. ربَّما لأنَّ أدواتي كانت مُختلفة.. وبوصِلتي ضالَّة.. ولأنَّني أُكَابِر..

بعد حديثِكِ معي ليلة كنَّا في غرفة تَيْمُور في القصر منذ أيام.. شعرت بالتقزُّمِ أمام حجمِ حِكمتِكِ.. وبالخجلِ من البِدَع العَبثيَّة التي كرَّستُها هكذا كلّ عامٍ في يوم ميلادِه..

كنتُ كما الطفلِ الصغير الذي لا يستطيعُ التعبيرَ عن حاجاتِه فَيبكي..

أخبرُكِ سِرَّاً؟؟؟

لم يُغضبني ليلتها رؤيةُ النافذةِ مفتوحةً.. كانت ذريعةً فحسب.. لأخفيَ خلفها غضبي من نفسي الضعيفة التي تعجزُ عن تجاوز مُصابِنا الكبير.. أمام نجاحك أنت برضاكِ وتقرُّبِكِ من الله أكثر..

طلبتِ مني أن أغفرَ لنَغَم وألا أحمِلَ ظلماً في رقبتي مرةً أخرى.. ولم أتجاوب مباشرةً.. لكنَّ شيئاً ما ألمَّ بي ونحنُ نغادرُ المكان!!

في لحظةٍ وأنا أنظرُ إلى السماء مُودِّعاً القصر.. وجدتُ نفسي أطلبُ من جابر ألا ينهيَ خِدمَتَها.. وأضمَرْتُ قبلَ ذلك حاجةً ورجاءً مِن الله تعالى..

سألتُهُ في نفسي أن:

(أرجوكَ يا الله أكرِمني بالرضا وأنزل السكينة على قلبي واغفر لي بحسنةِ غُفراني لنَغَم)..

كان الأمرُ بمثابةِ استجداءٍ وتقرُّبٍ بالطاعات قبل أن أسألَ اللهَ حاجَتي..

صَدِّقي أو لا تُصدِّقي!!

شعورٌ ما هزَّ كياني لحظَتها يُوحي بأنَّ الفَرَجَ قريبٌ.. وأنَّ الأيامَ القادمة ستحملُ معها خيراً إن شاءَ الله"...

"لا تعلمُ كم أسعدتني بكلامِك هذا يا عزيزي.. سيغيِّرُ اللهُ حالَنا إلى الأفضلِ طالما غيَّرتَ ما في نفسِك إن شاءَ الله.. وأحسنتَ بتراجُعِكَ عن طردِ نَغَم.. فرُّبَ خيرٍ قليلٍ جلبَ منفعةً كبيرة..

حقاً.. ((لا تُحقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا.. وَلَو أنْ تَلقَى أخَاكَ بِوَجهٍ طَلَقٍ))".....

أجابَتْ السيِّدة مُنيرة وقد اغرورَقَتْ عينَاها بالدمُوع..

سِتُّ أصَابع

في هذه الأثناء.. كان سليم ومروان قد انطلقا مع الفَجر بقيادةِ جمال الذي أخرَجهم من المَغارة كالشَعرةِ من العَجين وتناوَبَ مع سليم إسنادَ مروان في مَسيرهِم..

"لا أصدِّق أنَّنا أصبحنا وبهذه السرعة والسهولة أحراراً خارجَ جدرانِ مَغارَةِ (عَلي بابا) تلك.. أقصد مَغارَة (جَمال بابا).. شكراً يا جَمال.. لن ننسى معروفَك هذا".. قال مروان بحمَاسَة..

"استغفرُ الله.. أيّ معروفٍ يا رجل؟ بل هي فرصةٌ سعيدة معرفتي بكم".. أجاب جمال باستحياءٍ ثم أردفَ:

"لنسلكَ الآن تلك الطريق الترابية وصولاً إلى الساقية القريبة.. نجتازها وتكونَان في ضيافتي هناك"..

"ممتاز.. لن نتأخرَ عن طمأنةِ أهلنا إذاً.. ليتنا نصادفُ عزَّام الذي حدَّثتني عنه لنتمكَّن من الاتصالِ بهم".... قال سليم قبل أن يقاطعَه مروان:

"عزَّام من؟ يبدو أنَّكما أمضيتُما سهرةً طويلةً في قصِّ السِيَرِ والحَكَايا.. بينما أغطُّ أنا في نومٍ عَميق"..

"نعَم.. فاتَك الكثيرُ أيُّها المُدَلَّل.. وستُفاجئُك أخبارُنا بعدَ قليل"... أجابَ سليم دونَ أن يُفصِحَ عَمَّا استجدَّ لديه من معلومات.. وتابعَ الثلاثةُ سيرَهم حتى بلغوا ساقية المياه القريبة من التلة حيث بيتِ جمال.. بيت (أمِّ جمال) سابقاً..

"علينا أن نجتاز الساقية حُفَاةً.. هي سطحيَّة لا يتعدَّى عَمقها الشبرَين.. اخلعَا نَعلَيكُما ولنَمضِ"..

خلعَ جمال الخفَّ الذي كان يرتديه وحمَلَهُ ليتجاوزَ حافياً مع الصديقَين مياه الساقية وصولاً إلى الضفة المُقابلة..

"الحمدُ لله.. أشعرُ أنَّني أصبحتُ في قريتي أخيراً.. تلك التلة تطلُّ على القصر من بعيد.. أنا أعرفها جيداً".. هتفَ مروان مُبتهِجاً.. وهو يحاول تجفيفَ قدَمَيهِ بهزِّهِما في الهواء قبل أن ينتعلَ حذاءَهُ..

بينما جلسَ جمال على صخرةٍ قريبةٍ يحاولُ ارتداءَ خفِّهِ بصعوبةٍ مع ساقِه العَرجاء..

لاحظَ سليم شيئاً غريباً وهو يُراقبُ جمال.. ظنَّ في البداية أنَّه يَتَخيَّل.. فاقترب ليُمعِنَ النظرَ عن كَثَب فيتأكَّد..

"لاااا.. هذا كثيرٌ ليومٍ واحدٍ.. هل هي صدفةٌ أم ماذا؟

ما هو احتمالُ أن يكونَ الأمرُ مُصادفةً؟ واحد إلى مليون؟

هناكَ شيءٌ غريبٌ يحدثُ هنا.. ويحتاجُ إلى تفسير!!!"

فكَّرَ في سِرِّه قبل أن يسألَ جمال مُباشرةً بنبرةٍ يشوبُها الاستنكار..

"ستُّ أصابعَ في قدمِكَ اليُسرى؟"...

"نعَم.... ستَّة... كثير؟ ما بكَ؟

أرى أن هذا الإصبع الزائد قد روَّعكَ أكثر من تشوهاتِ وجهي".. أجابَ جمال باستغراب..

"لا لا.. ليست مَسألة تَرويع.. هناك أمرٌ استوقَفَني في الموضوع.. ويبدو أنَّني أسَأتُ التعبير.. سأخبرُك لاحقاً.. أنا حقاً آسِف.. لم أقصد الإساءَة"..

"لا بأس.. حصلَ خير.. هيَّا ولنتابع مَسيرَنا.. بيتي هناك على رأس التلة"..

بدا الطريقُ من الساقية إلى حيث بيت جمال أعلى التلة طويلاً جداً بالنسبة لسليم الذي بدأ يضربُ أخماساً بأسداس حتى تصدَّعَ رأسُه بافتراضاتٍ مَجنونة..

"كنتُ أشعرُ أنَّ ثمَّة شيء غريب حولَ هذا الرجل.. شيءٌ فيما تبقى من ملامح وجهه.. بحَّة صوته.. والآن.. تلك الأصابعُ السِتَّة".. فكَّرَ سليم وصوتُ الجدَّة عَواطِف يطرقُ ذاكرتَه..

(عائلة فيَّاض لديهم سمة خلقية وراثية.. يولَدون بستِّ أصابع في قدمِهم اليُسرى.. وكنَّا نمزحُ قديماً ونقول حتى أصابع القدم عندهم فائضة)..

"نعَم.. لهذا أحسَسْتُ أنَّني أعرِفُهُ.. فيهِ لاحَةٌ من السيِّد رستُم!!

وبحَّةُ صوتِهِ تلك.. تشبِهُ التي سمِعْتُها عندما كنتُ حبيسَ غرفة تَيْمُور تلكَ الليلة..

وماذا بَعد؟ إلى أين تريد أن تصلَ هذه الأفكارُ المجنونة؟

هل لجمال علاقة بعائلة السيِّد؟؟؟"...

تتالتْ الأفكار في ذهنِ سليم.. حتى قاطَعَها صِياحُ مروان..

"سليم.. أينَ عقلك يا ولد.. ما بك؟

ننادي عليك ولا تسمعُنا.. فلتنعطف نحوَ اليمين.. جمال يخاطِبُكَ ولا تسمع.. وها أنتَ تتجه شارِداً للأمام.. فلتمشِ معنا من هنا"... أشارَ مروان بيدِهِ نحوَ اليمين.. بعد أن لاحظ وجمال شرودَ سليم وخروجَه عن التغطية..

"حسناً حسناً.. شردتُ قليلاً.. ها أنا ذا".. قفزَ مُسرعاً تجاهَ اليمين للَّحاقِ بهما بعد أن فقدَ التركيز وحادَ عن المَسير لانشغاله بمعلومةٍ جديدةٍ واحدة سيطرَتْ على تفكيره وتنهشُ رأسَه الآن..

"ها قد وصلنا.. أهلاً وسهلاً بكما في بيتي المُتواضع يا أصدقاء"..

أخيراً وبعدَ هذا المَسير..

انتهى كابوسُ المَغَارَةِ واستقبلَ جمال ضَيفَيهِ في بيتِهِ الآمِن...

عزَّام وجلسَةُ الشَاي

"خذا راحتكما.. بإمكانكما تناول الطعام..

في خزانةِ المطبخ بعضُ الجُبنِ والكعكِ.. سأعرِّجُ أنا على بيت العَم بشير لأتفقَّدَ عزَّام.. لعلنا نستخدمُ جوَّاله في إجراءِ الاتصال"..

انصرفَ جمال وتركَ سليم ومروان وقد تمدَّد كلٌّ منهُما على سريرٍ مُنفردٍ فيما يبدو أنَّها غرفةُ نومِ جمال وأمِّه..

"ما بكَ يا سليم؟ لستَ على ما يرام.. هل من خَطْب؟

ما الذي دارَ بينكُما من حديثٍ بالأمس وأذهبَ عقلكَ هكذا؟

هناك حتماً حلقةٌ مفقودةٌ أجهَلُها.. وهذا يغيظُني كثيراً"....

"ليس ما دارَ بالأمسِ فقط يا مروان.. ألم تلاحظ أنَّ لجمال ستّ أصابع في قدمه اليسرى؟ ألم يُذَكِّرُكَ هذا بشيء؟

هل تعطَّلتْ أدواتُ الرَبط في عقلِكَ لهذهِ الدرجة؟

عائلة فيَّاض لها نفس السِمَة الوراثيَّة.. أيُّ صدفةٍ غريبةٍ قد تكونُ تلك؟

أعطني تفسيراً مَنطقياً لها.. وخذْ ما تُريد"..

"آآآه.. نعَم نعَم.. تَذكَّرت.. لكن ألا يُمكنُ أن تكونَ فعلاً صدفةً نادرةَ الحدوث؟"..

"وبحَّة صوتِه؟ وبعضُ ملامحِهِ التي فيها من ملامِحِهِم..

صدفة أيضاً؟ ألم تُلاحظ؟

لمَسْتُ منذُ البدايةِ أنَّه يشبِهُ أحداً ما.. غيرَ أنَّني لم أحزر حتى رأيت قدمَه اليسرى حافية.. فقفزَ وجهُ السيِّدِ في مُخيِّلَتي فجأةً"..

"طيِّب وما التفسيرُ برأيِكَ؟ هل مِن قَرابةٍ مثلاً؟ أتكونُ أمُّ جَمال أختاً للسيِّد؟"..

"اسكتْ أيُّها الغبيّ.. ليتَني لم أطلبْ تفسيرَكَ"..

"هدِّئ مِن روعِكَ يا صاح.. أنا أمُازحُكَ.. ما بك؟

لم أرَ توتُّرَك هذا واضطرابك حتى ونحنُ في عزِّ مأزقنا في المَغارة..

وليكن لديهِ ستٌّ وسبعٌ.. بل وعشرُ أصابع.. هذا لا يَعنينا.. لماذا تشغلُ بالكَ بهِ؟"....

"لديَّ شعورٌ قويٌّ بأنَّ الأمرَ جدِّيٌ وخطير وسيُفضي إلى شيءٍ ما.. حَدْسي لا يُخطِئ"..

"آآآه.. هذا ما كنتُ أخشاه.. عادَ فضولُك المؤذي مرَّةً أخرى ليطرقَ بابَنا..

كفَّ عن الاستجابة لوساوسِه.. ولا تفتح البابَ له.. يكفينا ما جَرى يا سليم"..

"وهل تعلمُ أنتَ شيئاً مما جَرى؟ هل تعلمُ أنَّ رحلتنا هذه أتتْ بثمارِها بل وأكثر؟

هل تعلمُ أنَّنا عُدْنا بِخفَّين مَليئَين بالذهب..

(عشرة أمثال وزنها ذهباً) هل تُذكِّرُكَ هذه العبارةُ بشيء؟"... قالَ سليم مُحاولاً بثَّ الحَماسَةِ في مروان وجذبَ اهتمامِه ليستمِّرَ في دعمِهِ..

"ماذا تعني؟ هل وجدتَ القلادة في أثناء نومي؟ هل كانت في عُهدةِ جمال؟

صحيحٌ أنَّني فقدتُ شغَفَ اهتمامي بها وبالمكافأة.. وأصبحُ أمرُ النجاةِ من المَغارَةِ هو الأهمُّ.. لكن لن أقولَ لا لبعض الذهب"..

"بل وجدتُ ما هوَ أهمُّ.. فلتنسَ أمرَ تلك القلادة الكريهة التي جَلبَتْ الإثم والعذاب لمن يعتقدُ بتأثيرها.. سأخبرُكَ الآن بما فاتَك سماعه يا صديقي"..

سرَدَ سليم لصديقِه كلَّ الأخبار والتفاصيل الجديدة التي قدَّمها له جمال على طبقٍ من ذهب.. واتَّفقا على إخبار السيِّد رستُم بأسرعِ وقتٍ..

في هذه الأثناء كان جمال قد استدعى عزَّام إلى بيتِه للاستعانةِ بجوّالِهِ في الاتصال.. وكانت المُكالمَةُ المُنتَظرة من الفَتَيان لكلِّ من يَهمُّهُ الأمرُ في القصر..

أثلجَا الصدور.. واتصلا أخيراً وأخبرا العَم فائز أنَّهما ذهبا في زيارةٍ إلى بيت صديقٍ لهما في القرية المُجاورة وباتا عنده وأنَّ شبكة الاتصالات كانت مُعطَّلة فلم يتمكَّنا من إعلامِ أحدٍ.. وأنَّهما عائِدانِ مَساءً..

"هل غَضِبَ أبوك؟ هل سيُطمْئِنُ جدَّتي؟"...

"غَضِبَ فحسب؟ هو الآن في انتظاري على أحرّ من الجَمر..

وجدَّتُك عَواطِف جهَّزت عَصَا المِكنسة عند بابِ الدار..

حسناً.. فلنأمَّل أن يشفَعَ لنا ما توصَّلنا إليه من حقائق عندهم..

لا ألومهم أبداً.. معهم كلُّ الحق.. لكنَّنا سنُصلِحُ ما أفسدناهُ قريباً وسنُرضيهم...

شكراً يا أخ عزَّام.. جزاكَ اللهُ خيراً.. تمكَّنا أخيراً من طمأنةِ الأهلِ.. تفضَّل".. شَكَرَهُ سليم وهو يُعيدُ له الجوَّال..

"على الرَحْبِ والسعة.. لا شُكْرَ على واجب.. المُهم أنَّكما بخيرٍ"... أجابَ عزَّام بلباقة..

"اجلس قليلاً ولتشربْ كوباً من الشاي مع الشباب يا عزَّام.. ستستمتعُ بصحبتِهم وأحاديثِهم الشيّقة"...

"حسناً.. لم لا؟ أطيب شاي مع أحلى شباب..

أطلتَ الغيبة هذه المرَّة يا جمال.. سألَ عنكَ أبي كثيراً.. الغريب في الأمر أنَّه يذكُرك وينساني.. لا ينفكُّ يسألني (أينَ جمال؟ أريدُ أن أعطيَهُ الرِسالة)".....

"نعَم نعَم.. تلكَ الرسَالة التي يذكُرُها دائماً.. رسالةُ أمِّ جمال..

في كلِّ مرَّةٍ أقولُ لنفسي سأمُرُّ وأستَفهِمُ قصَّتَها مِنهُ.. ثم أنشَغِلُ بشيءٍ ما"..

"يا رجل يذكرُ أمَّ جمال والرسالةَ ولا يذكرُ أمِّي..

يذكرُ أشياءَ من عشرين سنةٍ ويُحدِّثُك بها كأنَّها حدثَتْ الآن.. ولا يَذكُرُ ما حدَثَ منذ عشرينَ ساعة..

أحياناً يذكرُ اسمَ صديقِه في المدرسة الابتدائية.. ولا يذكرُ اسمي"....

"هكذا هوَ.. الزهايمر.. عافَانا الله وأحبابَنا.. ما بكَ يا مروان.. لماذا تُحدِّقُ بي هكذا؟".. باغَتَهُ جمال بالسؤالِ فجأةً وهو يَصبُّ الشاي ويقدِّمه للضيوف..

"لا لا.. لا شيء.. لقد شردتُ وأنا أسمعُ ما تقولان.. شكراً على الشاي"..

تَمكنَّت الريبةُ من ذِهن مروان.. وباتَ يدقِّقُ في ملامحِ وجه جمال وبحَّة صوتِه بعد أن فتحَ سليم عينَيه عليهِما..

"هوَ يُشبِهُ السيِّدَ حَقاً.. عيناهُ الدَعجاوان.. هُما هُما.. حاجِباه العَريضان.. هُما هُما.. كيفَ لم نفطنْ لذلك؟"....

هَمَسَ في أذنِ سليم الذي وَكزَه وهو يجلسُ بمُحاذاتِهِ.. قبل أن يلتفتَ الأخيرُ لمخاطبة عزَّام:

"أنا مُهتمٌ جداً بكلِّ ما يتعلقُ بالزهايمر.. هل تسمحُ لي بالتعرُّف إلى العَم بشير عَافَاهُ الله؟"..

لم يَمُر ذِكرُ الرسالةِ مُرورَ الكِرام من فلتر تَحريَّات سليم.. وقفزت في رأسه فكرة الاستقصاءِ عن بعض الأمور التي قد لا تُؤخَذُ على مَحملِ الجدِّ ويكون فيها كلّ الفائدة..

لمَ لا؟ لا ضيرَ من زيارةٍ خاطفة قبل الانتقال إلى جبهةِ السيِّد رستُم..

مُحاولةٌ أخيرةٌ قد تُجدي نفعاً وتأتي بثمارٍ غير مُتوقعة كما حدثَ بالأمس..

"طبعاً.. البيتُ بيتُك.. هو يحبُّ الدردشةَ مع الناسِ كثيراً.. لكن عليكَ أن تسمعَ الكلام وترميَ نصفَه.. لا تُدقِّق على ما يقولُ كثيراً".. أجابَ عزَّام مُرحِّباً..

"ما الذي تحاولُ فعله يا رجل.. ألن نتَّصِلَ بالسيِّد ونخبِرَهُ بما عندنا؟".. همسَ مروان في أذنِ سليم مُجدَّداً وهو يَكزُّ على أسنانِه منَ الغَيظ..

"ليسَ قبلَ أن أتأكَّدَ من بعض الأمور وأجيبَ على التساؤلات التي تنخرُ رأسي يا مروان.. العَم بشير عِشرةُ عُمُرٍ مع أهلِ هذا البيت.. ولن يكونَ لقائِي بهِ سُدىً".... ردَّ سليم هامِساً أيضاً..

زهَايمر.. وأنقاضُ ذَاكِرَة

لم يَطُلْ الانتظار.. ولا وقتَ أساساً للمُماطلة.. ما أن أنهى الجميعُ شربَ الشاي حتى رافق سليم عزَّام إلى بيتِ العَم بشير بذريعةِ فضولهِ حولَ مرض الزهايمر..

"السلامُ عليكم يا عَم".. استفتحَ سليم دخولَه غرفةَ الراعي بشير بالسلام عليه لكنَّه لم يردّ..

"عليكَ أن ترفعَ صوتَكَ قليلاً.. هو لا يسمعُ جيداً.. اعذرني.. سأتركك معه لتأخذ راحتك.. لديَّ بعض المشاغلِ في الحقل.. إذا احتجت شيء نادِني"..

"طبعاً.. طبعاً.. خذ راحتَك سأبقى أنا مع العَم.. ولا تقلق بشأنه"... هزَّ سليم رأسَه بالإيجاب..

التفتَ عزَّام إلى أبيه الذي كان يجلسُ شارداً قربَ النافذة على كرسيِّه الخشبيِّ ولوَّحَ له بيدِه مُخاطباً إيَّاه بصوتٍ مُرتفعٍ:

"كيف حالُك اليومَ أبي؟

عَم بشير نحنُ هُنا.. هذا الشاب الوسيمُ هو صديقُ جارِنا جَمال.. جمال ابنُ أمِّ جمال".. حاولَ إنعاشَ ذاكرتِه وجَذْبَ اهتمامِه بذِكرِ أمِّ جمال..

"أراد أن يلقيَ التحيَّة عليكَ ويسألَ عن صحتك.. أحضرتُ لك طبق المُتبَّل بالحمُّص الذي تحبُّه.. تفضَّل.. تجاوزت الساعة التاسعة ولم تتناول فطورك بعد"..

"حسناً.. لا تشغل بالك.. أنا سأتكفَّلُ بإطعامِه ومؤانستِه.. يمكنكَ الالتفاتُ لمشاغلك وأنتَ مُطمَئِنٌّ".. قالَ سليم وهو يتلقَّفُ الطبقَ من عزَّام ويضعه على الطاولة أمام العَم بشير.. ويجذبُ كرسيَّاً قريباً ليجلسَ قبالته.. مع انصراف عزَّام..

"السلامُ عليكم يا عَم.. أنا سليم صديقُ جاركم (ابن أمِّ جمال)"..

أصبحتْ الإشارة لأمِّ جمال بمثابةِ كلمة سرٍّ تفكُّ شيفرة العَم بشير..

وتُنشِّطُ سوَّاقةَ القرصِ الصلبِ في ذاكرتِه..

"أمُّ جمال هُنا؟ هل تحتاجُ شيئاً؟"... بدا الارتباكُ على وجه العَم وكأنَّه يريدُ أن يفزعَ لها..

من الواضح أنَّه اعتاد إغاثَتها وتأمين احتياجاتِها وجمال.. حتى باتَت تلبيتها في أعلى سلَّم أولويَّاتِه..

"لا لا.. ليسَتْ هنا.. بِسمِ الله.. ولتتناولْ فطورَك يا عَم.. رائحةُ الحمُّصِ مع شرائح الخِيار النديّ لا تُقاوَم"..

"نعَم أحبُّ الخِيار.. لكنَّه يحتاجُ إلى أسنان.. سأضعُ دكَّة أسناني أولاً"..

نهضَ العَم بِتؤُدَة وفتحَ علبةً بلاستيكيةً على الطاولة بدا أنَّها مملوءةٌ بماءٍ أو محلولٍ ملحيٍّ وقد نقعَ فيها ليلاً دكَّة أسنانٍ زهريَّةَ اللون..

أخرَجَها لتتقاطَرَ منها بضعُ نقاطٍ من الماء ثم دَسَّها في فَمِهِ بحركةٍ خاطفة.. وهو يُسوِّي وينضِّدُ لثَّتَه فوقها بلسِانه ليثبِّتها في وضعيةِ الجُهُوزيةِ الكاملة..

"أيه؟ كيفَ حالُ أبيكَ يا وسيم؟".. سأل العَم فيما يبدو أنَّه سؤالٌ تقليديٌّ لا علاقة له بمعرفتِهِ بأبيه..

"بخير والحمدُ لله.. وأنتَ كيفَ حالُك يا عَم؟".. سألَ سليم دون أن يهدِرَ الوقتَ في محاولةِ تصحيحِ اسمه..

"أنا كالحصان كما ترى.. كلّ يوم من هذا.. (أكل ومَرعى وقلَّةُ صنعة)..

إيييه على أيام الشباب.. لم أكن ألمسُ هذا الكرسي..

أرعى القطيعَ من الصباح حتى المساء ثم أعودُ لسريري مباشرةً.. لا أجلسُ أبداً على الكرسيِّ.. ومع الفجر أقفزُ للمرعى.. حتى فطوري أتناوله هناك..

(من الفَرشة للوَرشة) كما تقول أمِّي.. أما الآن (من الفَرشة للكرسيِّ).. إيييه سنَّة الحياة.. ولا اعتراض"..

"كنتَ تأنَسُ بأبي جمالٍ وأمِّه.. جيرانك.. أليس كذلك؟".. دخلَ سليم في الموضوع مباشرةً وبدونِ مُقدِّمات..

"أوووووو.. أتونَّس فقط؟ كنَّا أهل يا...."

"سليم"..

أجابَه بسرعة.. فهو يعلمُ أنَّ العَم لن يكمل كلامه حتى يأتيَ بالاسم.. ولا وقت للمُماطلة..

"كنَّا أهل يا سليم.. بل وأكثر.. أنا وأبو جمال خدمْنَا معاً في الجيش.. ثم عُدنا للقرية لنتجاورَ السكنَ هنا.. لكنَّني تزوَّجتُ قبله..

إيييييه رَحْمَةُ اللهِ عليكِ يا أمّ عزَّام.. ماذا سأحكي عن أمّ عزام؟"...

"- رَحِمَها الله - لكن ماذا عن أمِّ جمال؟ كيف استطاعتْ تربية ابنها لوحدها بعد وفاة أبيه؟".. أرادَ سليم أن يُديرَ دفَّةَ الحديث بسرعة.. فلا وقتَ الآن لاستعراض مناقب أمِّ عزَّام - رحِمَها الله -

"أمُّ جمال بمثابةِ زوجة أخي.. رشَّحَتها أمُّ عزَّام عروساً له وسُرعان ما تزوجا.. وأنجبا جمال.. لكنَّه أصيبَ بحمَّى شديدة وغريبة من نوعها تسبَّبت له بتشوهات.. وعانى ما عاناهُ في حياتِه..

قبل وبعد وفاةِ أبيه.. نذرتُ نفسيَ لخدمةِ الصغيرِ وأمِّه وعاهدتهما أن أتكفَّلَ بهما..

لطالما أحبَّتْ العُزلة ولم تختلط بأحد.. وكنتُ أتسوَّق لها كلَّ حاجياتها.. خاصَّة بعد أن توفيَ زوجها ثم بعد سنواتٍ توفيَتْ زوجتي.. وجدْنا العزاء في جيرَتِنا.. وما لكَ عليَّ من حلفانٍ يا (وسيم).. كانت أختاً لي.. وكنتُ أخاً لها.. أبو جمال غالي.. ولا أفرِّطُ أبداً في أمانته..

الحمُّص غيرُ زاكٍ.. يحتاجُ المزيدَ من الثوم.. نبَّهتُ أمَّ عزَّام مِراراً أنَّني أحبُّ ثومَه زيادة"... قال العَم بشير بِنَزَقٍ وهوَ يغرفُ بيدِه من طبقِ الحمُّص بشهيَّة..

"هذا وهو قليلُ الثوم وغيرُ زاكٍ.. كيف إذاً لو كان ثومه تمام؟

مُتطلِّبُون ودائِمو التذَمُّرِ.. ويَصعُبُ إرضاؤنا.. معشرَ الرجال"... فكَّرَ سليم مُبتسِماً وهوَ يراقبُ العَم..

"صحَّة وهنا يا عَمي.. إذاً فأنتَ كاتمُ أسرارِ أختِك (أمّ جمال)؟".. تسارَعتْ وتيرةُ الاستدراج من قِبَلِ سليم.. فلا وقتَ يُضيِّعُه..

"أووووو.. لا تأتَمِن غيري.. لكنَّني لم أستطعْ تلبيتها في سنَتِها الأخيرة.. أصيبَتْ بمرضٍ مُعدٍ.. ولم أتمكَّن من خدمتها.. على أيِّ حالٍ.. اشتدَّ عودُ ابنِها وأنا أصبحتُ مُسِنَّاً.. سلمتُّه الراية"..

"نعَم توفيت العام الماضي إثرَ إصابتها بكورونا - رحِمَها الله - ألم تتركْ وصيَّةً أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل؟"..

"نعَم نعَم.. أصابها مرضٌ خطيرٌ ولم يُسمَح لي بالاقتراب من بيتها.. بيني وبينك.. العدوى خطيرة في مثلِ سنِّي هذه".. اقتربَ وهمسَ في أذُنِ سليم..

"حمَاكَ اللهُ يا عَم.. لكن ألم تترك أمُّ جمال وصيَّتها قبل وفاتها؟".. كرَّر سليم سؤالَه بإلحاحٍ..

"لا لم تتركْ وصيةً"..

تنهَّدَ سليم وقد اعتراهُ الإحباطُ وشعرَ أنَّهُ وصلَ لطريقٍ مَسدودٍ..

إلى أن استدركَ العَم بشير وبصوتٍ مُنخفض:

"لكنَّها تَركتْ رسَالةً"..

أشرقَ وجهُ سليم واستبشرَ من جديدٍ بعد أن استطاع أخيراً انتزاعَ الاعتراف المُنتظَر في حربِ الأعصابِ هذه..

"وأينَ هيَ الآن؟"...

"توفيَت"...

"لا لا.. أقصدُ أينَ هيَ الرسالة؟"....

"آآآ.. أخبرتُهم مِراراً عنها لكنَّهم لم يلقوا بالاً.. يظنُّون أنَّني أهذي.. لم أخرِّف بعد يا ولد.. أستطيعُ أن أحدِّثك عن أشياء حدثَت منذ أربعين سنة.. أتذكرُ موجة الصقيع التي ضربت القرية؟"..

"طبعاً طبعاً.. ذاكرتُك حديديَّة يا عَم.. لكن فلنُرجئ الحديث عن موجة الصقيع.. سنُفرِدُ لها جلسةً لاحقة.. أريد الآن أن أختبر قدرتَك على تذكُّر مكان الرسالة؟"..

"بالطبع.. أنا الذي أتذكَّر..

قصدَتني يومَها أمُّ جمال واستودَعَتْها عندي وطلبَتْ ألا افتَحَها إلا بعد موتِها.. وأمَّنتني أن أنقلَ ما فيها لجمال ولِمَن يهمُّه الأمر..

خبأتُها على الفَور في صندوقِ عدَّة الإسطبل.. ودفنتُه تحتَ شجرة السنديان الكبيرة أو الصغيرة لا أدري"..

"ولمْ يَستخرجها أحدٌ بعدَ وفاتِها؟"..

"بعد وفاتِها هجرَ ابنُها البيتَ هائِماً على وجهه في المَغارة.. لم أصادفه في الجوار.. ولا يملكُ جوَّالاً للاتصال به.. وأصِبتُ بعدها بوعكةٍ صحيَّةٍ أقعدَتْني.. فأخبرتُ ابني ي ي ي...."..

تلكَّأَ العَمُّ قليلاً في مُحاولة لاستذكارِ اسم عزَّام..

"عزَّام؟".. لقَّنَهُ سليم..

"نعَم نعَم.. عزَّام.. أخبرتُهُ بأمرِ الرسَالة.. لكنَّه ظنَّ أنَّها إحدى هلوَساتي.. ولم يلقِ بالاً لها.. وأنا أنتظرُ جمال لأخبرَهُ"....

"يبدو أنَّ جمال وعزَّام اعتقدا أنَّ الرجل يَهذي! خاصَّةً وأنَّه لم يحدِّد بدقة مكانَ الصندوق..

معهما حق.. فلا حافزَ أو مُبرِّر لهُما لبذلِ الجهد والوقت في البحث عن رسالةٍ مَزعومةٍ..

وماذا قد يكونُ فيها؟ لا شكوكَ تساوِرُهُم باحتمالِ وجودِ أسرارٍ مُهمَّة..

ولا أسئلةَ في رؤوسِهم ليبحثوا عن إجاباتٍ لها..

لكنَّ شكُوكي وحَوافِزي التي استجدَّتْ اليوم جَعلتني أجزمُ أنَّها موجودةٌ وفيها كلُّ الحقيقة التي تستحقُّ بذلَ الجُهد"... فكَّرَ سليم ودبَّتْ فيه الحماسَةُ لينبشَ المكان المُشارَ إليه.. بل وينبشَ الماضي مَعَهُ..

صُندوقُ الدنيا

اختتمَ سليم زيارتَه.. ووَدَّع العَم بشير وابنَه.. عائداً إلى بيتِ جمال الذي تجاذبَ ومروان أطرافَ الحديثِ في انتظاره..

"أهلاً وسهلاً.. أرى أنَّك قد استمتعتَ بزيارتك؟ وجهُك مُشرقٌ ويبدو عليك التفاؤل"... سألَ مروان وهو يُضمِرُ سؤالاً آخرَ يُدركُه سليم جيداً..

"نعَم نعَم.. كانت زيارةً مُوفَّقة.. موفَّقة جداً"... أجابَ سليم وهو يُضمِرُ أيضاً إجابةً يُدركُها مروان جيداً..

ثم فكَّر بطريقةٍ يصرف فيها انتباه جمال عنهُما ليتمكَّنا من الاستقصاء عن مكان صندوق الرسالة تحتَ شجرتَيِّ السنديان المُجاورتَين لبيته..

"ليتني عثرتُ على جوَّالي لأعودَ به مساءً إلى البيت.. فحجمُ التوبيخِ التي سأناله من أبي على رحلتِنا هذه كافٍ ولا يحتملُ الوضع حصَّةً إضافية بشأن إضاعة الجوَّال"... قال سليم مُتظاهراً بالحُزن..

"هل تريدُ أن أرجعَ لأبحثَ لكَ عنه؟ أستطيعُ أن أذهبَ وأعودَ في غضونِ ساعتين.. سآخذُ معي بيلَ البطاريَّة.. واستعينُ به في البحث"..

"لاااا.. لا أريدُ أن أغلِّبَكَ معي.. شكراً يا جمال.. أعظم مَكسبٍ لهذه الرحلة هو صداقتك"..

"بل سأذهبُ وآتي بهِ.. إنَّه أمرٌ لا يَستَعصي عليَّ.. لن أترُكَكَ تخسر جوَّالك"..

"حقاً؟ أعجزُ عن شكركَ يا صديقي.. سننتظرُ عودَتك إذاً.. هل تُمانعُ إن أخبَرْنا السيِّد رستُم عن قصةِ تَيْمُور؟ سيكونُ مُمتنَّاً لكَ كثيراً.. هو رجلٌ مُحترمٌ وستُحِبُّه.. أنتَ لا تعلمُ كم يعني له اكتشاف مكان جُثمان ابنه"..

تردَّدَ جمال قليلاً.. فهوَ مع ائتلافِه لسليم ومروان ما يزالُ مُتوجِّساً من لقاء الغُرباء.. ولا يُحبِّذُ فكرةَ مُخالطة الناس عُموماً.. لكنَّ إنسانيته ونقاء معدنه جَعَلاهُ يُقدِّمُ إسعَادَ السيِّدِ رستُم على مزاجِه الخاص..

"لا أشعرُ بالارتياح إزاءَ استقبال الغرباء.. لكنَّه ظرفٌ خاصٌّ واستثنائي..

أولاً وأخيراً.. لا بدَّ للسيِّد أن يأتي ليُرَحِّلَ رُفَاةَ ابنِه.. ويدفنه في قبرٍ يليقُ به..

حتماً هناك مقبرةٌ للعائلة قربَ القصر"..

"تماماً.. سيكون معروفاً كبيراً لا يقدَّر بثمن تُسدِيه للسيِّد.. لطالما بحثَ عن قشَّةٍ يتعلقُ بها بخصوص اختفاء تَيْمُور ولم يُفلح.. والآن تتكشَّف الأمور بهذه السلاسَة.. وقد يَشفعُ لنا هذا الأمرُ ويُعفِينا مِن عقوبةِ أهلِنا"..

"وكيف ستخبرانِه وجوَّال مروان قد نفدَ شحنه.. من أين ستأتون بالرقم؟"..

"سنستعينُ مُجدَّداً بجوَّال عزَّام.. نضعُ شريحة مروان فيه ونتَّصلُ وليكنْ ما يكون"..

"على بَرَكةِ الله.. خذا راحتكما.. وافعلا المُناسبَ.. ولن أتأخَّر إن شاءَ الله"..

مع انطلاقةِ جمال صوبَ المَغارة.. فزَّ الصديقان ليُمشِّطا أرجاء المنزل بحثاً عن شيءٍ يُعينُهما في حفر التربة حتى عثرا على حديدةٍ تشبه الإزميل قاما باستِعارَتِها مع بضعِ قطعٍ من الخشب.. وتوجَّها مباشرةً إلى حيثُ الشجرتان..

من حُسن الحظ أنَّها تربةٌ طينيةٌ.. وقد أُشبِعتْ بأمطارِ آذار.. فباتَت سهلة الاختراق والنبش..

"اسمع يا سليم.. دعنا لا ننبشُ التربة مباشرةً.. أنتَ تغرزُ الحديدة شاقولياً في التربة وأطرقها أنا بقطعةِ الخشب حتى تغوصَ كليَّاً إلى الأسفل.. نمرِّرُها في محيط الشجرتَين ونفعلُ ذلك في عدة نقاطٍ واتجاهات ونرى.. قد يحالفنا الحظُّ وتصطدم بجسم الصندوق فنحدِّد مكانه ويسهل علينا استخراجه"..

"أحسنتَ يا مروان.. فكرةٌ ذكية تُوفِّرُ علينا الوقتَ والجهد.. هيَّا ولنبدأ.. بِسمِ الله"..

جرَّبَ الصديقان سَبْرَ محيط الشجرة الصغيرة أولاً ولم يتوصلا إلى شيء.. فانتقلا إلى الشجرة الأكبر.. وما هي إلا مُحاولتان حتى سَمِعا صوتَ الحديدة يطرق جسماً ما..

"حسناً.. توقف يا مروان.. أظنُّنا وجدناه"...

رمى سليم الإزميل وبدأ ينبش التربة بقطعة خشبٍ عريضة.. إلى أن ظهرَ سطحُ الصندوق..

(صندوقُ الدنيا) بالنسبةِ لهُما..

فيه حكاياتُ الدنيا!!

تبادلَ الصديقان نظرات النصر بغبطةٍ عارمة كمَن وجدَ صندوق كنزٍ بالفعل.. وسارعا بتنظيفه ورفعِ الترابِ ونفضِ الغبارِ عنه..

"هيا افتَحْ يا سِمسِم".. ضحكَ مروان بقهقهةٍ مُمازحاً سليم..

"هل تمزح؟ أنا فعلاً سِمسِم.. ألستُ سليم؟".. ضحكَ سليم أيضاً وقد انتابتهُما نشوةُ الانتصار..

"ألم أقل لك؟ حدْسي لا يُخطئُ يا ولد.. متى ستثقُ بقراراتي؟".. قال سليم وهو يفتحُ الصندوقَ ليعثُرا أخيراً على رسالةِ أمِّ جمال...

"تقرَؤُها أنت؟ أم أقرؤُها أنا؟".. سألَ سليم..

"بل نقرَؤها معاً".. أجابَ مروان.. وكأنَّهما خَشِيا فتحَ الرسالة وكشْفَ ما فيها..

"أشعرُ بالذنب لأنَّنا لم نُطلعْ جمال على أمر الرسالة.. لكنَّني علمتُ من العَم بشير أنَّ أمَّ جمال لم تمانع من معرفتِه مُحتواها.. ليس هو فحسب.. بل أرادَت أن يُطَّلِعَ عليها كلُّ من يهمُّه الأمر"..

"ونحن ممَّن يهمُّهم الأمر؟"..

"بالطبع.. وهل نَبتغي إلا ما فيهِ مصلحة الجميع؟

نحن لا نستطيعُ أن نفاجِئَ جمال بفحوى هذه الرسالة هكذا مباشرةً..

قد يكونُ ما فيها صادِماً.. وهو لا يملك أدنى فكرة عن هواجسنا بشأن الشبَهِ الكبير بينَه وبين السيِّد..

هناك أمورٌ تحتاجُ تمهيد يا مروان.. وما نفعله الآن هو من باب الحرص على مشاعر الجميع.. مهما كان مضمون هذه الرسالة.. فأنا وأنتَ الأقلُّ تأثُّراً به.. ولا تَبِعات له علينا.. ونستطيع أن نتحَلَّى بالحكمة والاتزان أكثر من أيِّ شخصٍ آخر"..

"حسناً ألستَ مَن يحبُّ القراءةَ يا سليم؟ فلتقرأها الآن بصوتٍ مُرتفعٍ.. ولنكتشف ما فيها معاً"..

استندا إلى جذعِ الشجرة.. قبل أن يفتحَ سليم الرسالة.. ويبدأ بقراءَتِها..

رسالةُ أمِّ جمال

"أخي بشير.. سَلامُ اللهِ عليكَ..

قد تستغربُ ما سأسرده لك في رسالتي هذه.. بل وقد تكون مُخيبةً للآمال..

لكن الأمر لم يعدْ يحتملُ التأجيل.. فأنا ومع انتشار الكورونا.. بدأتُ أشعر بضرورة البَوح.. مع كلِّ نزلةِ بردٍ تُلمُّ بي.. أشتَبه بالإصابة فأخافُ ضياعَ الحقيقة.. أكثر من ضياعِ حياتي..

كما أنَّني أخشى على حياة جمال من بعدي.. وتُرعبني فكرة بقائِه وحيداً.. وقد كنتُ أنا كلَّ ما له في هذه الدنيا..

هو يجهلُ أنَّه وبسببِ أنانيَّتي عاشَ حياةً بائسةً في كَنفي.. لكنَّني أريدُ له حياةً كريمةً من بعدي.. وأشعرُ بالتقصيرِ تجاهَهُ.. ويُؤنِّبُني ضميري..

أريدُ تعويضَهُ.. عَساهُ يغفرُ لي..

سأحكي لكَ الحكايةَ بدونِ مُقدماتٍ أو إطالة.. ولتعذُرني على تفاصِيلها الصادِمة..

منذ قرابة الثلاثة وعشرين عاماً كنتُ وكما تعلمُ أعَمل في قصر السيِّد فيَّاض.. وفي تلك الليلة السوداء اشتدَّتْ أعراض حمَّىً غريبة ألمَّتْ بابني جمال الذي لم يتجاوز عامَه الثاني..

تقطَّعَتْ بي السُبلُ ولم أتمكَّن من إسعافه في الوقتِ المُناسب بسببِ بُعدِ المركز الطبيِّ عن بيتنا.. وإحجامِ السيِّد عن مُساعدتي.. هو لم يكنْ يعلم أنَّ جمال في خطر.. لكنَّه أيضاً ودونَ قصدٍ لم يُساهم في نجدته.. فتسبَّب الأمر بوفاة حبيبي جمال بعد عدَّةِ أشهرٍ جرَّاءَ مضاعفاتِ ما ألمَّ به تلكَ الليلة..

لم أسامِح السيِّد.. وامتلأ قلبي حِقداً واجتاحَتني الرغبةُ بالانتقام..

قبل وفاة طفلي الغالي.. قُدِّرَ لي أن أشهدَ في أحد مساءات الشتاء المُخيفة.. حادثَ انزلاق وارتطام سيارةِ السيِّد وعائلتِه على جنبات طريق المَغارة قربَ تلَّتِنا..

كنتُ حينَها في طريقِ عودَتي من الحِرشِ الجنوبيِّ بعد أن اضطررتُ إثرَ تدهورِ حالةِ جمال أن أخرجَ لجمعِ أعشابٍ طبيَّةٍ تنمو هناك..

أنا الشاهدُ الوحيدُ على الحادث المُروِّع يومَها.. تصادف مروري مع مرورهم ورأيتُ الفاجعة.. لا أدري كيف هروَلتُ مُسرعةً صوبَ السيارة المُهشَّمة لأجدَ الجميعَ فاقداً للوعي باستثناء طفلٍ رضيع يبدو في عُمُرِ جمال.. وقد سالت الدماءُ منه وانفجرَ بالبكاء..

ولكَ أن تُخمِّنَ طبعاً أنَّه (عَزيز)..

بدون تفكير وقبلَ أن يصحوَ أيٌّ منهم.. انتشلتُ الطفلَ من حضنِ السيِّدة مُنيرة.. وبسرعةِ البرق كنتُ في بيتي..

تتساءُلُ كيف استطعتُ أن أفعلَ هذا؟

قد يكونُ قلبُ الأمِّ الذي أحسَّ بدنُوِّ أجلِ جمال الذي توفيَ بالفعل في اليوم التالي..

أو أنَّها الرغبة بالانتقام من السيِّد رستُم.. وردُّ الصاع صاعَين له..

أو أنَّني خفتُ ألا يُسعفهم أحدٌ فتأكلُ الضباعُ رضيعَهم وهو حيٌّ..

أو أنَّها الدوافعُ كلُّها مُجتمعةً.. لا أدري!!!

المهم أنَّ الرضيعَ صارَ في حضني وأخفيتُ أمرَه عن الجميع.. باستثناء زوجي طبعاً.. الذي لم يملك إلا السكوت عن الأمر لعلمِه بإصراري على المضيِّ بهِ..

كانَ غير راضٍ عَمَّا يجري.. لكن لا حولَ له ولا قوَّة أمام الهيستريا التي أصابتني بعد فقدانِ ولدِناً..

توفيَ جمال في اليوم التالي ودفنتُه بكلتيّ يدَيّ.. ولم يعلم أحدٌ بوفاته..

دفنتُه مع ملابس عزيز.. وألبستُ عزيز ملابسَه.. وأعطيتُه اسمَه..

وباتَ طوقَ النجاة الذي أخرجَني من دوَّامةِ الحُزن والكآبة..

تغيَّرتْ حياتي بعدَها.. أصابَتني فوبيا فقدان جمال الجَديد.. فحبسْتُه عن الناس.. ومنعتُ الدنيا عنه.. بذريعةِ أنَّني أخافُ على مشاعِره من نظرتِهم لتشوُّهاتِه..

أما عن تلك التشوُّهات.. فأنا أيضاً مَن تسبَّب بها عندما حاولتُ تطبيبَ جروحِه الناجمة عن الحادث بنفسي.. ولم استدعِ لهُ طبيباً أو أسعِفْهُ للمركز الطبيِّ..

كانَ من المستحيلِ أن أعرضَه على الناس.. ترعبُني فكرةُ أن يتعرَّف عليهِ أحدٌ فيفتضحَ أمري.. أو أفقده هو أيضاً..

كنتُ أريدُ الطفلَ بأيِّ ثمن..

باءتْ محاولات تطبيبه بالأعشاب البريَّة بالفشل.. كان نمطُ وعمقُ جراحه أكبرَ من قدرتي على علاجها.. ويبدو أنَّها التقطتْ جرثومةً ما.. فاستشْرَت فيها وتسبَّبتْ بالتهاباتٍ غريبة سُرعان ما استحالت إلى دمَامِل وتشوُّهاتٍ جلدية.. وخسرَ الطفلُ وسامَتَهُ للأبد.. كما خسرَ ساقه بعد أن وصلَ الالتهابُ فيها إلى العظم..

لا أجدُ مفرداتٍ تَفي بالاعتذار وتكون بحجمِ الجُرم الذي اقترفتْ..

لكنَّني آملُ أن تكون هذه الرسالة على الأقلّ تعويضاً له بعد مَماتي..

لماذا اخترتُ كشفَها بعدَ مَماتي؟

لأنَّني وللأسف لا أستطيعُ أن ألجمَ أنانيَّتي وخَوفي قبلَ ذلك..

يرعبني فقدانُ جمال بعد كشفِ الحقيقة..

كما أنَّني أخشى من انتقام السيِّد رستُم.. ومعه كلُّ الحق..

سببٌ آخر دفعني لكتابة هذه الرسالة..

منذُ خمسِ سنواتٍ لقيَ تَيْمُور ابنُ السيِّد حتفَه قربَ المَغارة كما تعلم..

حامَتْ حولَ جثتِه الضِباعُ وبدأتْ تنهشُ فيها إلى أن عثرَ عليه جمال مُصادَفةً..

وسُبحانَ الله.. لا يستحيلُ الدمُ ماءً..

لا أدري كيفَ رقَّ قلبُه لدرجة أنَّه هاجم الضباع بشعلةٍ من النَّار وسحبَ الجثة واجتاز بها الساقية ليدفِنَها قربَ بيتنا.. وكأنَّ قلبَه استشعرَ رابطةِ الدمِ بينهما..

بقيَ طريحَ الفراش بعدَها ليومين.. ولم تتمكَّن الشرطةُ من استجوابِهِ لدى تحرِّياتِها في البحثِ عن تَيْمُور.. ودُفِنَتْ الحقيقةُ مرَّةً أخرى..

انفطَرَ قلبي هذه المرَّة على السيِّد رستُم.. لكنَّني كنتُ مُقيَّدةً..

لا أستطيعُ أن أبوحَ بمكان جثَّة ابنِه.. فالأمرُ سيِّدخلنا بـ سين وجيم.. وستؤولُ الأمور للتحقيقِ مع جمال.. وقد يُفتضَحُ أمرُهُ أيضاً وتُفتَح ملفات القصص القديمة..

اضطررتُ للسكوتِ عن الأمر.. هوَ كِتمانٌ قادَ لآخرَ..

لكنَّني كنتُ أتعذَّبُ كلَّ يومٍ مع عذاب السيِّد وزوجتِه..

وأنا التي اختبرتُ فقدانَ الضَنى..

لن أطيلَ أكثر.. وليُسامِحني الجَميع.. وليَعلمْ جَمال أنَّني أحببتُهُ كثيراً..

لكنَّ خلاصَةَ القول:

جَمال هوَ (عَزيز رستُم فيَّاض) الذي دَفَنَ أخاهُ (تَيْمُور رستُم فيَّاض)... خلفَ بَيتِنَا.....

مَرحَباً بالحَقيقة

"كنتُ أشعر.. كنتُ أشعرُ مُذ رأيتُ أصابعَ جمالٍ الستَّة أنَّ نهايةً كتلك على الأبواب.. لكنَّني لم أجرؤ حتى أن أحدِّثَ نفسي بها"... صاحَ سليم مَصدوماً..

بينما ظلَّ مروان مَشدُوهاً لدقائق يحاولُ ترجمة ما قرأه سليم.. وكأنَّه سمعَه بلغةٍ أجنبية..

"هل أنا أحلم أم أنَّنا نشاهد معاً فلماً هندياً؟ أم ماذا؟ اقرصني يا سليم...

آآآه ليسَ بهذه القوَّة.. ما بك.. الآن أصبحتَ تُلبِّي طلباتي هكذا بسرعة؟".. صرخَ مروان بعد أن قرصَهُ سليم بقوَّة مُمازحاً استجابةً لطلبه..

"وماذا الآن؟ ماذا بعد؟ متى سننتهي من هذه القصة يا سليم؟ لقد تعبت"..

"لا تقلق يا مروان.. انتهت مهمتنا عند حدود هذه الرسالة.. وسنسلِّمُ الباقي لصلاحياتِ السيِّد رستُم.. هو المَعنيُّ الأوَّلُ والأخيرُ بهذه القضية..

كم أتوقُ لرؤية وجه السيِّدة مُنيرة وفرحتها بالحقيقة.. سُبحانَ الله..

وقَدْ يَجمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعدَما يَظُنَّان كُلَّ الظَّنِّ أنْ لا تلاقيا

صحيحٌ أن الأمر سيؤَلِّب عليها المواجع.. وسيفاجِئُها شكلُ (جمال).. أقصد (عزيز).. لكن لا بأس.. على الأقل سيتحقَّق حلمهم بزيارة قبرٍ لائقٍ لتَيْمُور.. وستمكِّنهم ثروتُهم من معالجة عزيز وترميم وجهه.. ومنحه فرصة الحياة الجديدة التي يستحقُّها..

لكنَّني أعتقد أن عزيز قبل ذلك سيكون بحاجةٍ مُلحَّة لترميمٍ من الداخل عند تلقيه صدمة الرسالة.. تُرى هل بإمكانِه الانتقال بهذه البساطة من المَغارة إلى القصر؟"..

"هل نستطيع مساعدتَه في الأمر؟ لو تتحدَّثُ معه قبل مجيء السيِّد يا سليم.. أنت محاورٌ ماهر.. وكلامُك يخرجُ من القلبِ إلى القلب"..

"هذا ما جالَ في ذهني يا مروان.. لنجعل لهذه الحكاية نهايةً سعيدةً تليقُ بعذاباتِها"..

"أتعلم؟ لم أتوقَّع أن أتغيَّر هكذا في غضونِ أيام.. أنا الآن أقدِّر قيمةَ الحياة وجدِّيتها أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.. حقاً من يشاهد مُصابَ غيره يَهونُ عليه مُصابه..

قلت لك يا سليم لن أخرجَ من المَغارَة كما دخلتُ.. كما أنَّني لن أنهضَ الآن من تحت هذه الشجرة كما جلست"..

"لاحظتُ ذلك.. وأعجِبتُ بأكثر من موقف لك أظهرتَ فيه وجهاً جديداً مُضيئاً لمروان.. على الأقل.. أنتَ لم تأتِ على ذكرِ السجائر ولو لمرَّة.. هيَّا.. وأخبرني ما الذي تنوي فعله بعد؟"..

"آآآه.. حسناً.. فيما يخصُّ السجائر.. فسأحاولُ استغلال فترة انقطاعي القسريِّ عنها كي أتحرَّرَ من اعتيادها.. وسأعود إلى عَملي في القصر بقلبٍ أوسع وبمحبةٍ أكبرَ لمَن حولي..

أتُصدِّق يا سليم؟ اشتقتُ للجميع هناك وأشعر الآن بدفء وجودي بينهم كعائلة كبيرة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى.. اشتقتُ حتى لجهاد وتوبيخاته يا رجل؟

وجدَّتي عَواطِف وأبي.. أحسَسْتُ أنَّني أضعتُ وقتاً كبيراً في البعد عنهم.. مِن الآن فصاعداً.. سأمنحهم حصَّة الأسد في حياتي..

وأخيراً وليس آخراً.. لن أقطعَ عهوداً وأخلفها..

ثم لديَّ قائمة أسماءٍ طويلة لفتيان وفتيات ينتظرهم الحظر على جوَّالي..

لن يكون في جهات اتصالي بعد الآن إلا أسماء ذات قيمة.. تستحق أن تأخذ من وقتي"..

"مُمتاااااز.. لكنَّها قائمةُ فتياتٍ وفتيان.. لا فتيان وفتيات.. (ليديز فيرست) يا عزيزي.. (Ladies first).. لزومُ اللباقةِ".... ضحكَ سليم وهو يجذبُ ذراعَ مروان ويساعده على النهوض.. وانطلقا قاصدَين عزَّام للاتصال بالسيِّد رستُم...

كما هو مُتوقعٌ.. رحَّبَ عزَّام بهما مُجدَّداً ووضع شريحة جوَّال مروان في جهازه.. ليتصلَ سليم.. وضرباتُ قلبه تُسمَع كطرقِ الطبول..

"السلامُ عليكم..

مرحبا سيِّد رستُم..

أنا سليم.. (ابن فائز) بستانيُّ القصر"..

"أهلا بك يا سيِّد رستُم.. نعَم نعَم.. الحمد لله لم نُصَبْ بمكروهٍ.. كان سوءَ فهمٍ بيننا وبين الأهل.. نأسفُ على إزعاجك"..

وضعَ كفَّهُ الأخرى على الجوَّال ليغطيه وهمسَ لمروان مُندهشاً:

"يعلم أنَّنا كنا تائِهَين.. وصَلَهُ الخبر".. ثم تابعَ مكالَمَتَه:

"ما سأقولُه لك الآن قد يكون أهمَّ شيءٍ تسمعُه في حياتك..

أنا شابٌّ بسيطٌ نعَم.. ولم أقف يوماً أمامَك لتراني وأحادثك..

لكن لديَّ اليوم معلومات مهمَّة جداً بخصوصِ قضيَّة السيِّد تَيْمُور - رحِمَهُ الله -

ولا بدَّ أن أخبرَك بها وجهاً لوجه.. ولأكونَ صريحاً أكثر.. فإن رحلتنا هذه أنا وصديقي مروان كانت لهذه الغاية وبدون علمِ أهلِنا"..

"نعَم أنا الآن في مكانٍ قريبٍ من التلَّة بين المَغارة والقرية"..

"لا لا داعي لإرسال سائقك لجَلبي.. الأمر يحتاج حضورَك العاجل شخصياً.. وصدِّقني لن تندمَ"..

"نعَم هو مُهمٌّ لهذه الدرجة"..

"أشكرك.. سأرسل لك العنوان.. لكن أعتقد أنَّك تعرفه.. هو بيت السيِّدة أمّ جمال.. - رحِمَها الله -"...

"أجل هوَ ذاته"...

"في انتظارك سيِّد رستُم.. شكراً لتجاوبِكَ"..

كانت هذه إجابات سليم على السيِّد رستُم الذي بدا أنَّ الفضولَ دفعَهُ بسرعة لتلبية دعوة سليم... ابن فائز البستاني....

"هل سيأتي؟؟؟"... سألَ مروان..

"نعَم نعَم.. ألم تسمع؟ سيأتي حالاً.. قال أنَّه سيكون هنا في غضون ساعةٍ ونصف.. وبدا أنَّه يعرفُ العنوان"..

"بقيَ أن تُمَهِّدَ الأمرَ لجمال.. أعني عزيز"..

"سأفعل حالما يعود.. هو شخصٌ طيِّبٌ وأليفٌ.. على عكس ما يوحي مظهره.. اعتقد أنَّ رغبته باعتزال الناس نجمَت عن تنمُّرهم عليه وإساءتِهم له.. وهذا ما أجبره على استيطان المَغارَة.. خاصَّةً بعد وفاةِ أمِّهِ.. أعني أمَّ جمال..

لكنَّه في الحقيقة يتوقُ لدفءِ العائلة.. ولديهِ جوعٌ عاطفيٌّ نتيجة الحرمان من الأهل والأحبَّة.. هو في قرارة نفسِه يحلم بهم.. لن يتردَّدَ في تقبُّلِ وضعه الجديد.. بل وسيطيرُ فرحاً بعد أن يستوعبَ الحقيقة ويعودَ إلى حضنِ أمِّه السيِّدة مُنيرة"..

لم يمضِ الكثيرُ من الوقت حتى عادَ جمال من المَغارَة وهو يُلوِّحُ من بعيدٍ بجوّالِ سليم..

"أبشرْ يا صديقي.. مالٌ حلالٌ.. لا يَضيع".. قال جمال وهو يُقدِّم الجوَّال لسليم..

قفزَ سليم من الفرحة مُعانقاً جمال بشكلٍ عفويٍّ..

"شكراً يا صديقي.. بل يا أخي.. لا أعرف كيف أردُّ لك صنيعك هذا.. أنا فخورٌ بمعرفتك"....

شعرَ جمال فجأةً بالغرابة.. انتابَهُ خليطٌ من المشاعر..

فيما عدا أمِّه.. كانت المرَّةَ الأولى التي يعانقُهُ فيها أحدٌ دونَ أن يتوجَّسَ من تشوُّهات وجهه.. المرَّة الأولى التي يُشعِرهُ فيها أحدٌ أنَّه آدميٌّ.. ويَستحقُّ التقبُّلَ والحبَّ والاحترامَ..

"لا شُكرَ على واجبٍ.. ما بكَ يا سليم؟

الأمرُ لا يستحقُّ كل هذا الامتنان.. وأنا أيضاً فخورٌ.. بل سعيدٌ جداً بمعرفتكما"..

"حسناً.. هل لي بكلمةٍ معكَ على انفراد؟".. سألَ سليم..

"طبعاً.. خير؟"... أجابَ جمال بارتياب..

"لا تقلق يا صديقي.. هو خيرٌ إن شاءَ الله.. بل لا أعتقدُ أنَّ ثمَّة خير أكثر مما هوَ الآن".. أجابَ سليم قبلَ أن يَدخُلا البيتَ معاً..

ويبقى مَروان خارجاً في انتظارِ سيارة اللكزس السَودَاء التي يَعرفُها جيِّداً..

عائِلة.. مِن جَديد

"شغلتَ بالي يا سليم.. ما الخطب؟"..

"الأمر جديٌّ ومهمٌ للغاية لكنَّه ليس سيئاً على الإطلاق.. سأسألكَ سؤالاً.. بل سأقدِّم لكَ عرضاً..

إن أخبركَ أحدُهم أنَّ أمَّك ليست مُتوفاة أو أتيحتْ لكَ الفرصة بالحصول على عائلة من جديد.. أم وأب تحت سقفِ بيتٍ.. لا مَغارَة.. ماذا ستكونُ ردَّة فعلك؟"

"ما الذي يَجولُ في بالكَ يا سليم.. دفنتُ أمِّي بِيدَيَّ هاتَين.. لم أفهم.. ما المغزى من سؤالك؟"...

"هناكَ أمرٌ يجب أن تعرفَه يا جمال.. لا أعرف كيف سأقول هذا.. لكن قد تكون أمّك - رحِمَها الله – أعني.. قد..

قد تكون مُربيَتَكَ فقط.. وليستْ أمَّكَ البيولوجية أو والدتك"..

استخدمَ سليم أسلوبَ (البَين بَين).. لم يجزم ولم ينفِ.. رمى طُعمَ الشكّ وسيعَمل على تأكيده لاحقاً بالتدريج في ذهن جمال ليمهد له ويمتصَّ صدمته..

"ما الذي دفعك لتقول هذا الآن؟ سهرنا ليلةً كاملةً تقريباً في المَغارة ونحن نتبادلُ الأحاديثَ والأسرار.. ولم تنطق بما أسمعهُ منكَ الآن.. ما الذي استجدَّ؟"...

"لو كنتُ مكانَك لما استهجنتُ الفكرة.. ولتَمَنيتُ أن تكون حقيقةً..

بكلِّ الأحوال أمّ جمال توفيت ولن تخسر شيئاً إن تقبَّلتَ أمَّاً جديدةً.. ولا بأس إن كان معها أبٌ أيضاً.... لكَ مُطلق الحرية في الرفض أو القبول.. لكن من حقكَ أيضاً أن تعلم ولو متأخِّراً"..

"بدأتَ تُثيرُ غَضَبيَ يا سليم.. هل تراني صبيَّاً أمامك؟ تحدَّث بوضوحٍ ولا تُوارِب"..

"حسناً.. هناك من أخبرني بأنَّ لكَ عائلة أخرى.. تحبُّك وتنتظر أن تلتقيك..

سأحكي لكَ حكايتَها باختصار.. وفهمك كفاية..

كان لهذه العائلة طفلٌ رضيعٌ يدعى عزيز.. تاهَ وتبنَّته بطريقةٍ أو بأخرى عائلة جديدة.. لكنَّه فقدَ عائلته الجديدة أيضاً.. وهو الآن وحيد..

هل منَ المنطقِ أو الحكمة أن يرفضَ عائلتَه القديمة بعد أن عثرَتْ عليه مُجدَّداً؟؟"..

اكتفى سليم بما قاله وتعَمَّدَ عدمَ إطلاع عزيز أو(جمال) سابقاً.. على تفاصيل ما اقترفته أمُّ جمال.. مُظهراً جانبها المُضيء فقط.. تاركاً باقي التفاصيل للأيام..

جلُّ ما يَهمُّهُ الآن هو إدخال فكرة إمكانيَّة وجودِ والدَين له على قيد الحياة إلى عقله بسلاسةٍ.. وتَقبُّلَ فكرة تركِهِ المَغارة..

لم ينطق جمال بكلمة.. وظلَّ مُنتظراً سماعَ المزيدِ من سليم.. لكنَّه هدأ قليلاً..

"فكِّر معيَ يا جمال.. أليسَ من الرائع أن يكون لك من جديد عائلة وبيت دافئ وأهل يهتمُّون لأمرك؟ أليس من الرائع أن نبقى أصدقاء في مكانٍ واحدٍ أنا وأنت ومروان؟"...

حاول سليم العزفَ على وتر عاطفته.. ثم فتحَ جوَّاله فجأةً ليستعرض صور تَيْمُور ويختارَ أجملَها..

"أحمدُ الله أنَّني فقدتُ جوَّالي في المَغارة وبقيَ مُغلقاً وإلا كنتُ قد استنفدتُ شحنَه.. انظر.. هل ترى هذا الشابَّ الوسيم؟"..

"نعَم.. كأنَّني أعرِفه!"...

"هل تسمحُ لي بالتقاطِ صورةٍ لك؟".. سألَ سليم..

"ماذا؟ لا لا.. أنا لا ألتقطُ صوراً على الإطلاق.. استحالة.. ماذا تريد أن تصوِّر؟ وجهاً مشوَّهاً؟

يا رجل أنا لا أنظرُ في المرآة.. بل لا أملكُ مرآةً حتى في بيتي كما ترى... وتريدني أن أوثِّق صورةً لوجهي هذا؟

لن تكون الصورة إلا عِبئاً على ذاكرة جوَّالك.. ما هذا الهراء؟"...

"سَايرني قليلاً فقط وستفهمُ قصدي.. صورةٌ واحدةٌ فقط ونحذفُها لاحقاً إن أردتَ.. أرجوك اسمح لي بها"..

"لو لم تكن شخصاً لطيفاً ولبِقاً.. لكان لي تصرفٌ آخر معك"..

"أرجوك.. ألا تثقُ بحكمَتي؟"..

"بلى"..

"أرجوك لا تكسفني.. صورةٌ واحدة وسأحذفها متى تشاء"..

"حسناً.. صوِّر"..

وقف عزيز بنَزَقٍ أمامَ الجوَّال وقد أشاحَ نظرَهُ عنه..

"وهل تريدُني أن أصوِّرك هكذا؟ انظر إلى عدسةِ الجوَّال أرجوك..

أنتَ تُخفي أجملَ ما في وجهكَ.. عينَيكَ.. أرجوكَ لَبِّ مَطلبي هذا كما يجب"...

"حسناً.. سأجاريكَ قليلاً.. ولنرَ آخرتها معك"..

حدَّقَ عزيز في الجوَّال مباشرةً هذه المرَّة.. بنظرةٍ قويَّةٍ وحاجبَين مُقطَّبَين.. ليُسارِع سليم بالتقاطِ صورةٍ خاطفةٍ له قبل أن يغيَّر رأيه..

"فيها الشفا".. قال سليم مُمازحاً.. قبلَ أن يغطسَ رأسُه في شاشةِ جوَّاله لدقائق..

"أنا لا أستوعِبُ كمَّ الغرابةِ التي تتصرَّفُ بها الآن!! تُصَدِّعُ رأسيَ بتلميحاتٍ عن عائلةٍ جديدةٍ.. ثم تلتقطُ صورةً جَبريَّة..

هل ستستصدِرُ ليَ الآن دفترَ عائلةٍ على جوَّالِك؟".. ابتَسمَ عَزيز مُنتظراً التالي..

"لمَ لا؟ هي حقاً فكرةٌ تستَحِقُّ الدراسةَ.. انظر الآن معي إلى هذا الشابّ الوسيم أيضاً"...

"أليس هو ذات الشابِّ الذي أرَيتَني صورتَه قبلَ قليلٍ؟"...

"للهِ درّ التكنولوجيا الرقميَّة.. لم يخطر ببالي أبداً أن يكون تطبيق (مُعالِج الوُجوه) مُفيداً إلى هذا الحدّ.. هذا الشابُّ هو أنتَ.. صَدِّق أو لا تُصَدِّق..

هو أنتَ.. فيما لو كانَ وجهُك مُعافاً مِنَ التَشوُّهات"..

"ماذا؟ يبدو أن الأمور أصبحت تَفوقُ مَداركي.. أنا لم أتعاملْ قطّ مع الجوَّالات ولا خبرةَ لي بعالم التكنولوجيا الرقميَّة.. اشرح لي ولا تتركني كالأطرش في الزفَّة"..

"حسناً.. أخضَعْتُ صورتَك لتطبيقٍ يقومُ بترميم الوجوه ودَمجِ إضافاتٍ وتناظراتٍ بناءً على جزءٍ من الوجه فقط..

التقَطْتُ صورتَك.. وأدخلتُ الجزء المُعافى من وجهك إلى البرنامج.. وتولَّى هو إكمالَ الباقي.. وهي بالفعل صورتك"..

"مااا هذا؟ فاتَني الكثيرُ وأنا في المَغارةِ إذاً.. أيُعقلُ ذلك؟"..

"والصورةُ التي سَبَقَتَها وتشبُه صورتَك كثيراً هي لـ (تَيْمُور رستُم فيَّاض).. هل لاحظتَ الآن الشبهَ الكبيرَ والغريبَ بينكما؟"...

"تَيْمُور؟ الذي تحدَّثنا عنه ليلة المغارة؟ تَيْمُور الذي دفنتُه خلفَ بيتنا هنا؟

نعَم الصورةُ الأولى تبدُو مُشابِهة للشاب الذي دفنتُه ليلتها.. ربَّما!

كان الظلامُ دامِساً.. ووجهُهُ ملطخاً بالدماء..

لا أعرف ما الذي استوقَفَني لإلقاءِ نظرةٍ أخيرةٍ على وجهِهِ قبل أن أحثَّ التُرابَ فوقه.. لكن نعَم.. بعضُ ملامِحِه كما الصورة الأولى.. تأثَّرتُ ليلتَها كثيراً برؤيَتِهِ"....

"والصورَتان مُتشابِهتان للغاية.. (فولَة وانقسَمتْ نِصفَين).. أنتَ وهوَ مُتشابِهانِ كثيراً.. أتعلمُ لماذا؟"...

"لماذا؟".. سألَ عَزيز بتَوجُّسٍ وكأنَّه يخافُ أن يَسمعَ شيئاً صادِماً.. لكن يبدو أن لا مفرَّ من الصَدمة..

"لأنَّه أخوكَ يا عَزيز..

أخوك..

يا..

عَـ .. ز .. يـ .. ز"....

"تقصد جمال.. ثم ما قصَّة (أخوك) تلك؟

آآآآه.. أنت الآن تُكملُ ما بدأت؟

وسنعودُ لقصة العائلة الجديدة.. وَوالدَين.. وكذاااا"... راوَغَ عزيز مُستنكراً...

أحسَّ سليم أنَّ عزيز أصبحَ الآن جاهزاً لتلقي الدَفعَةَ الأخيرةَ نحو الحقيقة.. خاصَّة بعد أن شتَّتَ تفكيره بقصَّة الصورَتَين.. وجعله يدورُ حولَ نفسه..

"بل أقصدُ عزيز.. يا عزيز..

أنتَ.. شئتَ أم أبيتَ.. الطفلُ المفقودُ لعائلةِ فيَّاض منذ أكثرَ من عشرين عاماً..

أنتَ (عَزيز رستُم فيَّاض) الشقيقُ الأكبرُ لـ (تَيْمُور رستُم فيَّاض)..

والدكما السيِّد (أبو عزيز) أفنى ما مضى من عُمُرِهِ في الحزنِ عليكُما..

ألا يستَحقُّ أن تكرمَه فيما تبقَّى منَ العُمر؟

سيأتي بعدَ قليلٍ..

رمَى بجدولِ أعَمالِه عرضَ الحائطِ على الفور عندما أخبرتُه أنَّ ثمَّة معلومات تخصُّه عندي.. معلومات فقط..

ركِبَ سيارتَه وانطلق من أجلِها دون تلكُّؤ..

لا تُخيِّب أملَه يا عزيز.. وليكن حضورُك أمامَه اليوم مُرضِياً.. بعد أن عذَّبَه غيابُك من قبل"...

تسمَّرَ عَزيز في مكانِه قليلاً.. قبلَ أن يُسارعَ بمغادرةِ الغُرفة..

"كفى يا سليم.. أنا مُتوتِّرٌ الآن.. ولا أريدُ سماعَ المزيد.. سأتمشّى قليلاً في الجوار.. أشعرُ بأنَّ صدري يَضيق.. وأحتاج هواءً طلقاً"...

كان من الطبيعيِّ أن تتكدَّسَ الأفكارُ والأخبارُ الجديدة الصاعقة في رأسِ عزيز لتُصَدِّعَهُ.. لكن مع مرورِ الوقتِ وتحليلِ المُعطيات سيتمكَّنُ من استعادةِ توازنِهِ..

هوَ في النهاية شابٌّ مُثقفٌ وذو حكمةٍ حتى لو كانَ يَسكنُ في مَغارَة...

السيِّدُ الوَالدُ

دخلَ مروان بعد أن لاحظَ خروجَ عزيز بسرعة وابتعادَه عن البيت..

"ما الذي حدث؟ لماذا خرج مُسرعاً"..

"لا تقلق.. هو ردُّ فعلٍ طبيعيٍّ على كمِّ المعلومات التي تهاطَلت عليه فجأةً اليوم كالقذائف.. سيهدأ ويعودُ ويتقبَّلُ الأمر..

اسمع.. سننتظرُ السيِّد مَعاً ونُخبرُهُ بكلِّ شيءٍ.. ثم نترك له الرسالة ليقرأها مُنفرداً هنا.. لا نريد أن نقف فوقَ رأسِه كالغربان.. لنمنَحَه فسحةَ الاختلاءِ بنفسه.. قبل أن يقرِّرَ إذا ما كان يريد فتح القبر والتأكُّد من رُفَاةِ تَيْمُور أم لا"....

لم تكدْ تنتهي الساعةُ والنصف حتى لاحَتْ في الأفق سيارةُ السيِّد رستُم..

أتَى برفقةِ السائق فقط.. وقد جلس على غير عادته في المقعد الأمامي.. وبدون ربطة عنقٍ.. مُتَّكئاً بكوعِه الأيمن على حافَّة الشبَّاكِ المفتوح!

يبدو أنَّه قرَّرَ التحرُّرَ من الرسميَّات.. لتخفيفِ حِدَّةِ توتُّرِه..

اصطفت السيارة أمام باب البيت تماماً.. وترجَّل السيِّدُ بعُجالة..

هَرَعَ الصديقان لمُصافحتِهِ والترحيبِ به ثم دعَاهُ سليم للدخول..

كانت لحظةً تاريخيةً..

أرادَ كلاهما التقاط صورة (سِيلفي) معه في مشهدٍ لم يخطر لهما على بال..

جلس إلى كرسيٍّ في صدرِ الغرفة.. بينما هما واقفان أمامَه بجمود..

"حسناً.. يبدو أنَّكُما شابَّان خلوقان.. مَن ابنُ فائز فيكُما؟".....

"أنا.. أنا سليم.. ابنُ فائز"... تقدَّم سليم باسِطاً كفَّه على صدره..

"ما عندكَ يا سليم؟"... سألَ السيِّد بدون مُقدِّماتٍ.. هو رجلُ أعَمالٍ ولا يضيعُ وقته.. يدخلُ مباشرةً في المَواضيع.. وكانَ لهُ ما أراد...

دامَ الاجتماعُ المُغلقُ الذي انعقدَ للتوّ أكثرَ من نصف ساعةٍ قبلَ أن يخرج الصديقان ويترُكا السيِّدَ مع الرسالةِ كما خَطَّطا.. فتقدَّم مُرافقُه السائق بسرعة مُحاولاً الدخول للاطمِئنان إلى سلامَتِهِ وتأمينهِ.. بعد أن تأخَّرَ ولم يخرج مع الفَتَيان..

وما هي إلا لحظات.. حتى عاوَدَ الخروجَ مُجدَّداً.. وبطلبٍ من السيِّد..

كانت ساعةَ الحَسم!

تضافرتْ فيها حلقاتُ الحقيقة بعد أن عُثِرَ على ما هوَ مفقودٌ منها واكتملت الصورة في ذهنِ الجميع.. ولم يبقَ لهم إلا خيار تقبُّلِها..

"الحمدُ لله.. ما أكرمَكَ يا الله!

كنتُ أعلمُ أنَّك ستجبرُ خاطري..

كنتُ أعلمُ أنَّ رحمتَكَ تسَعُ تقصيري..

سامِحني على حَماقاتي..

على الأصنامِ التي نَصَبتُها لأعانِد القدر..

كيف طاوعَها قلبُها؟ تلك الحاقدة أمّ جمال!

كثيرٌ ما فعَلَتْهُ بي.. كثيييييير..

نعَم.. صَدَّقْتُ الآنَ أنَّ تَيْمُور قد مات..

لكنَّه على الأقلّ سيحظى بقبرٍ يليقُ به..

والأهمُّ أنِّي ما زلتُ أباً..

عزيز.. عزيزي أنا..

حَيٌّ يُرزقُ.. وإن كانَ مُشَوَّهاً..

تقدَّمَ الطبُّ اليوم.. وسأبذلُ الغالي والنفيس لترميم وتجميل تشوُّهاتِه مهما كلّفَ الأمر..

سَأعوِّضُكَ يا حبيبي.. سأعوِّضُكَ عن الآلام التي تكبَّدتَها وأنتَ بعيدٌ عني"...

كانت هذه تَمتَماتُ السيِّد رستُم أثناء خلوتِه غير المُتوقَّعة في بيتِ أمِّ جمال والتي لم تكن مُدرجةً في أجندةِ أعَمالِه اليوم..

نهضَ عن كرسيِّه.. سَجَدَ باكياً.. وأطالَ السُجود..

كان جبينُه العالي مُشتاقاً لملامَسة الأرض بعد أن بعُدَت المسافة بينهما..

لم يُرغمه على رفعِ رأسه إلا صُداعٌ انتابَهُ فجأةً لارتفاعٍ في الضغط بسببِ انفعالِه على ما يبدو.. لكنَّه تمنَّى لو استطاع إطالةَ السُجود أكثر!!

أرادَ تعويضَ كلِّ لحظةِ جَفاءٍ كابَرَ فيها وظنَّ أنَّه يقوى على الابتعاد..

لكنَّ تلكَ المُفارقة الغريبة أعادَته ليتحرَّرَ من نفسه..

أن تكونَ عَبداً لله هو السبيلُ الوحيدُ لتكونَ سيِّدَ نفسِك..

أيُّ عُبوديَّةٍ تلك التي تُحرِّركَ من كلِّ شيءٍ سِواه!!!

نهضَ ببطءٍ مُستنداً على الكرسيِّ الخشبيِّ.. وجرَّ خُطاهُ بتثاقلٍ تجاهَ الباب..

حيث كان سليم ومروان ينتظران.. بينما التزمَ السائق مكانَه في السيارة خلف المِقوَد بناءً على أوامرِ السيِّد..

"أينَ هوَ الآن؟؟؟"... سألَ أبو عزيز.. مُخاطباً سليم..

"خرجَ هائِماً على وجهِه بعد أن أطلعتُه على الأمر.. سيعود.. لا تقلق.. هذا طبيعيٌّ لمن هو في وضعِه".. أجابَ سليم وهو يُخرجُ الجوَّال من جَيبه..

"سيِّد رستُم.. دعني أُرِيَكَ صورَتَه إن شِئتَ.. كي لا تتفاجأ بهَيئتِه"...

"نعَم نعَم.. أينَ هيَ؟"... بدا السيِّدُ مُتشوِّقاً لرؤية صورة ابنه عزيز..

"أرجو ألا يزعجك حالُ وجهه المُشوَّه.. لكن صدِّقني.. له هالةٌ غريبةٌ تُنسِيك تشوُّهاته بعد أن تتعرَّفَ إليه"...

"لا تقلق يا بُنيَّ.. لن أُظهِر له ارتياباً من هذه التشوُّهات مهما كانت"...

ربَتَ السيِّد على كتف سليم مُثنياً على حرصه ومراعاته لمشاعر عزيز ومحاولته تهيئة السيِّد نفسياً لمثل هذا اللقاء..

"أنتَ شابٌّ رائعٌ يا سليم"...

ثم التفتَ إلى مروان:

"وأنت أيضاً يا بُني.. لن أنسى صنيعكما هذا.. اطلبا تُجابا..

من الآن فصاعداً سيكون عندي ثلاثة أولاد.. عزيز.. وسليم.. و..."...

أشارَ بيدهِ إلى مروان في مُحاولةٍ لتَذكُّرِ اسمه.. قبل أن يُسارع الأخير إلى تلقينه:

"مروان"..

"أجل مروان مروان.. عاشت الأسامي يا بُني.. أنتُما الآن ولدَاي.. وعزيز أخوكُما الكبير.. لا أعلم كيف سيكون وقع الأمر على أمِّ عزيز عندما أخبرها.. لكنَّه حتماً أسعدُ أيام حياتها..

عليَّ قبل ذلك أن أعطيَها حبَّة الضغط.. خوفاً على صحتها من الانفعال الشديد..

أينَ هوَ؟ تأخَّرَ"...

سألَ السيِّد عَفوياً مرَّةً أخرى وبِنَزَقٍ.. وهو يحادث الفَتَيانِ بشكلٍ طفوليٍّ لم يعتادا عليه من قبل.. هو الآن على سَجيَّته بعد أن تناول جرعة سعادةٍ تكفي لتحسينِ مزاجه مئة عامٍ.. وقد أزالتْ لطافتُه التشنُّجَ الذي أصابَ سليم ومروان لدى لقائه.. ولم يعد هناك تكلُّفٌ مُبالغٌ فيه في التعاطي معه..

مما دفَعَ مروان (لِيَبُقَّ البحصَة) العالقة في حلقِه منذُ أيام:

"سيِّد رستُم أريدُ أن أعترفَ لكَ بأمرٍ"...

"خير؟ ما هو؟"...

تساءَل أبو عزيز مُخاطباً مروان..

في حين جحظت عينا سليم وهو يراقبُ ارتجالَ مروان غير المُتَّفَقِ عليه..

"النافذةُ التي كانت مفتوحةً تلك الليلة وتمَّ إلقاء اللوم على نَغَم بشأنها..

أنا مَن فتَحَها.. ليس لنَغَم علاقةٌ بالأمر.. والحمدُ لله أنَّك لم تطردها"...

أفرَغَ مروان ما في جعبته من اعترافٍ كانت قد غصَّتْ به حنجرته.. بعد أن شعر بارتياحٍ لسعةِ صدرِ السيِّد.. وأرادَ اقتناصَ الفرصة لينُزِلَ هذا الحمل عن كاهِلِهِ..

"لا تُذَكِّرني بحَماقاتي السابقة يا بُني.. فأنا الآن أنظرُ إليها باستغراب.. بل باستهجان..

أوَّلُ شيءٍ سأطلبه من جابر لدى وصولنا إلى القصر هو تحطيمُ تلكَ الأصنام وفتحُ نوافذِ الغرفة.. وتهيئتها لتكونَ لعزيز..

ستنبِضُ الحياةُ مُجَدَّداً فيها بعودةِ حبيبي عزيز"...

"ويبدو أنَّ العشاءَ السنويَّ المُقام على أنغام معزوفة (عالم آخر).. سيُستبدل بفطورٍ يوميٍّ على أنغام معزوفة (ربيع والتز) لشوبان أيضاً"... علَّقَ سليم مُمازحاً في إشارةٍ إلى أن السيِّدة والسيِّد فيَّاض سيعودان للإقامة في القصر لتدبَّ الحياةُ فيه من جَديد..

وَالعَودُ أحمَدُ

انتظرَ السيِّد وصحبُهُ قرابة الساعةِ ولم يَعدْ عزيز..

"أخشى أنَّه سبيتُ ليلتَه في المَغارة بعد صدمةِ اليوم!"... تساءلَ مروان وقد أحضر كرسيَّاً ليجلس عليه أبو عزيز بعد أن بدا على وجهه القلقُ والإنهاكُ.. واحمَرَّ جفناه..

"وأنا أخشى أن يرفضني يا بُني.. هل يُعقلُ أن يتجاهلني؟ نحن لا نملك أدنى تصورٍ عَما يعتَمِلُ في صدره الآن"...

"لا أعتقدُ ذلك.. قد يحتاجُ لاحقاً إلى تأهيلٍ نفسيٍّ لتجاوزِ الأمر..

لا أظنُّه سيكون جلفاً معك الآن.. هو طيبٌ كما الأطفال بالرغم من خشونة مظهره.. لكن لا ضيرَ من التحايل على لحظة اللقاء من باب الاحتياط"... أجاب سليم..

"وماذا تقتَرحُ يا بُنيّ؟"....

"أرى أن تتظاهرَ بالإغمَاءِ أو التعبِ أو الانهيارِ مثلاً لحظة لقائكما.. يمكنك معانقته أولاً حتى وإن أبدَى جَفاءً وتحفُّظاً..

ثم تظاهرْ بالإغماء.. تلك وصفةٌ ممتازةٌ لخطفِ وانتزاعِ التعاطف والتَجاوب.. لكنَّها طبعاً لا تنفعُ إلا مع ليِّني القلوب.. وعزيز ليِّنُ القلب..

هذا ولا شكّ سيجعله يخرجُ كالمارد من قُمقُمِ حذَره وانغلاقِه.. ويهمُّ في تقديم العون لك.. في حين نتظاهرُ أنا ومروان وسائقُك بالعجز عن فعلِ شيءٍ"...

"أنتَ تُفرِطُ في مشاهدةِ المسلسلات التلفزيونية أيُّها الماكر.. لستَ بقليلٍ يا ولد".. أجابَ السيِّدُ وهو ينظر إلى سليم بعينِ الانبهار والاستغراب..

مع اقتراب موعد الغروب.. بدا عزيز أخيراً في المشهد.. مُطلاً من بعيد.. يجرُّ خُطاهُ صوبَ الجمْعِ الذي أمامَ بيته..

وصلَ أخيراً.. وقفَ أمامَهم.. مُتجنِّباً النظرَ إلى السيِّد فيَّاض.. ولم يُبدِ أيَّ ردّ فِعلٍ..

"وعليكُم السلام ورحمةُ الله وبركاته.. (ومَن لا يُمسِّي علينا نُمسِّي نحن عليه)".. بادرَ سليم بشقِ طريقٍ لحديثٍ مُشتركٍ.. وقد طَغَى الحَرَجُ على المَشهَدِ بِرُمَّتِهِ..

"مساءُ الخَير"... أجابَ عزيز بصوتِه الأجشّ المُترَدِّدِ وبحَّتِه التي لامسَتْ قلبَ أبيهِ على الفور.. فلم يتمالك نفسه وانقضَّ مُعانقاً إيَّاه..

"وَلدي.. أنتَ وَلدي عزيز.. لستُ بحاجةٍ للتأكيد في عينيكَ اللتين تلمعان كعينَي شقيقك تَيْمُور.. يكفي أن تنطقَ لأدرِكَ أنَّك وَلدي.. هذه بحَّتُنا..

لو تعلم ما فعلَ وقعُ صوتِكَ بقلبي الآن.. أنا لا أصَدِّقُ ما يحدُث..

آآآه.. صَدري"...

وضعَ السيِّد يدَه على صدره وقد انكمشَت ملامحُ وجهه.. ثم خرَّ بين ذراعَيّ عزيز المُتَسَمِّرِ في مكانه..

"ما بكَ؟ ما الذي أصابَك؟

سليم.. مروان.. ساعداني في حملِهِ.. افعَلا شيئاً".... صرخَ عزيز مَذعوراً..

"نحنُ لا نفقَه شيئاً في إسعافاتِ السكتَةِ القلبية.. هل يُعقل أنَّه ابتلعَ لسانَه من الصدمة؟ أنا متوترٌ جداً وليس بمقدوري فعل شيءٍ"... قال سليم مُتظاهراً بقلَّةِ الحِيلة وتعَمَّدَ الإشارةَ إلى السكتة القلبية ليُخيفَ عزيز أكثر.. ويحضَّهُ على التفاعل..

"وأنا أيضاً.. لا أملكُ فِعلَ شيءٍ.. أنجِدنا أنتَ يا عزيز.. أنا خائفٌ على الرجل.. سيضيعُ من بين أيدينا"... شاركَ مروان بدورِه في إكمالِ المَسرحيَّة..

وباتَ على عزيز أن يحملَ أباه لوحدِه فيمدِّده على السرير في غرفته داخل البيت.. ويفكّ أزرارَ قميصِه.. مُحاولاً مَسحَ وجهه بالقليلِ من الماء..

"يبدو أنَّه التقطَ الطُعْم! ثم ما هذا الأداءُ التمثيليُّ الرائعُ للسيِّد!

كادَت تنطلي الحيلة عليَّ يا رجل"... همسَ مروان في أذنِ سليم دون أن يُحرِّكا ساكناً مُعتقدَين أنَّ السيِّد ماضٍ في تنفيذ خطةِ اللقاء..

لكنَّه في حقيقةِ الأمر.. كان قد أُصيبَ فعلاً لحظتَها بتشنُّجٍ في عَضَلةِ الصدر من شدَّة انفعالِه وتأثُّرِه.. وانقلبَ الهزلُ جدَّاً..

"آآآ.. اسسسسـ .. تَدعِ ..... سا.. ئِقي"...

بالكاد استطاعَ أبو عزيز بصوتٍ متقطعٍ ونبرةِ أنينٍ أن ينطقَ هاتين الكلمَتين مُوعزاً باستدعاءِ سائِقِه الذي كان قد التزمَ بأوامر بقائِه خلفَ المِقوَد تماشياً مع خطَّة سليم..

هرعَ عزيز ليجلبَ السائق من الخارج.. ونظرَ باستغرابٍ إلى الصديقَين المُتَبلِّدَين.. وهُما يُحجِمان عن التدخُّل..

"ما بكُما؟ الرجل يموتُ في الداخل.. وأنتما تقفان هنا كالأصنام؟

وأنتَ أيُّها السائق.. السيِّد يستدعيك.. تعالَ بسرعة.. تحرَّك"... صرخَ عزيز بأعلى صوتِه مُرتبِكاً.. وقد تملَّكَهُ الغضبُ والقلق..

"فلنلقِ نظرةً يا سليم.. قلبي ليسَ مُرتاحاً.. أيُعقلُ أن يكونَ أبو عزيز مُتوَعِّكاً بالفعل؟".... تساءلَ مروان قبل أن يهرعا للدخولِ خلفَ السائقِ إلى الغرفة حيث يرقُدُ السيِّدُ..

لم يتأخَّر الجميعُ في إدراكِ أنَّ الأمر ليس بِحِيلةٍ.. وأنَّ السيِّدَ مُتوَعِّكٌ حقاً..

لكن لحسنِ الحظ كان سائقه على درايةٍ بتفاصيل ملفِّهِ الطبيِّ وضليعاً في التعامل مع هكذا حالات.. ويحملُ في حقيبة السيارة كلَّ ما قد يلزمُ من أدوية..

أعطاهُ حبَّةَ الدواء مع القليل من الماء.. فهدأ قليلاً وتحسَّنَ حالُه.. لكنَّه ما زالَ غير قادرٍ على النهوض لِوخْزَةٍ في صَدره..

خرجَ الجَميعُ وتَركُوهُ ليرتاحَ قليلاً ويلتقِطَ أنفاسَهُ..

باستثناء عزيز.. الذي بقيَ مُرابطاً عند بابِ الغرفة.. مَخافة أن يستجدَّ أيُّ طارئٍ على وضعهِ الصحيِّ..

أهوَ قلبُ الأب وابنِه؟ يتعبانِ ويرتاحانِ معاً؟ فَكَّرَ عزيز..

فقد تعدَّى اضطرابُه المُفرِطُ وخوفُه على حياةِ السيِّد حدودَ كونِه مجردَ تعاطفٍ إنسانيٍّ ولينَ قلبٍ.. هو شيءٌ آخر اختبرَهُ تحتَ الضغطِ الآن.. ولسانُ حالِه يقول:

(كُنْ بخيرٍ... يا..... أبي)..

حلَّ المَساءُ.. وأوعَزَ السائقُ لأهلِ القصر بتحضيرِ غرفةِ السيِّدِ واستدعاءِ طاقمِه الطبيِّ إلى القصر إلى حينِ وصولِه بعدَ قليل..

هو الآن أفضلُ حالاً وقد استطاعَ أن ينهضَ ويجلسَ ويتنفَّسَ لكن بصعوبة..

الوضعُ يُحتِّم مُغادرةَ المكان والعودة حالاً إلى القصر.. وسيُرجِئُ السيِّدُ أمرَ التحقُّقِ من قبرِ تَيْمُور إلى الغَد حتماً..

على أيِّ حالٍ هو تحصيلُ حاصلٍ الآن.. فالكلُّ باتَ متأكداً أنَّه تَيْمُور من يرقدُ هنا.. ولا بأسَ من تأجيل إجراءات نقلِ رُفاتِه إلى القصر للغَد..

المُهمُّ الآن أمرُ عزيز.. و(الحيُّ أبقى مِن الميِّت)..

تجهَّزَ سليم ومروان للعودة برفقةِ السيِّد إلى القصر.. لكنَّ عزيز لم يحسم الأمر..

"أرجوكَ يا عزيز.. فلترأفْ بحالِ السيِّد.. قد يتردَّى وضعُه إن تركتَه يعود بمفرده.. اعتبرها من بابِ إغاثةِ المَلهوف يا رجل.. تعالَ معنا ولو ليومين إلى أن يتحسَّنَ.. ثم فلتفعلْ ما تشاء..

يا سيدي وإذا شعرتَ أنَّك غير مرتاحٍ في القصر.. فغرفتي جاهزة.. نسهرُ حتى الصباح.. مع إبريق الشاي.. ألم تُكرم ضيافتي؟ اسمح لي باستضافتك في غرفتي المُتواضعة..

لكن رافقنا أولاً إلى القصر كُرمَى للسيِّد.. فليسعْهُ قلبُك الكبيرُ يا عزيز وأشفِقْ على صحَّته"....

"آآه منك يا سليم.. لديكَ لسانٌ يلفُّ على بلد.. ويخرِجُ الحيَّةَ من وِكْرِها"... فكَّرَ مروان في سِرِّهِ وهوَ ينصِتُ إلى كلامِ سليم في حَضرةِ عزيز الذي لم يُجبه..

لكنَّ في عدمِ الإجابةِ إجابة أيضاً.. فمجرَّد سكوتِه وعدم رفضه يعدُّ انتصاراً كبيراً على شيطانه.. ويعني أنَّه يقلِّبُ الفكرةَ في رأسه.. قبل أن يُقاطع أبو عزيز حديثهم وهو يهمَّ بالخروجِ مُتَعَكِّزاً على سائقه..

"ألن تأتيَ معنا يا بُنيّ؟ ليسَ للقصر معنىً بدونك.. صدِّقني.. رؤيتك تزيِّنُ صدرَ قصري بقامَتك المَمشوقةِ تلك وقد أصبحتَ رجلاً يرفعُ الرأس.. هي حلم سنوات حياتي.. وما كنتُ أظنّه سيتحقق.. فلا تحرمني منه وقد باتَ قابَ قوسين أو أدنى..

أعلمُ أنَّكَ تعاطفتَ معيَ قبلَ قليلٍ ولم تدَّخِر جُهداً.. وهرعْتَ بجنونٍ لإنقاذي.. لشهامَتك ولينِ قلبك.. وأشكرك من كلِّ قلبي الذي يتمنَّى ألا يفارقكَ"...

قال السيِّدُ بصوتٍ مُستكينٍ ضعيفٍ خافتٍ وبنبرةِ استجداءٍ لم يَعهدها بهِ أحدٌ..

"لم تدفعني شهامتي أو لين قلبي لأهرَعَ لنجدتِكَ.. لكنَّني..."...

سكتَ عزيز للحظات ثم اعترفَ:

"لكنَّني خشيتُ أن أفقدَ أبي..... مرَّةً أخرى"....

كانت هذه الكلمات بمثابةِ رايةِ استسلامٍ رفعَها عزيز.. بعد عجزه عن مُغالبة خلجاتِ قلبه الذي يكادُ يقفزُ من صدره كلَّما استرَقَ النظرَ إلى أبيهِ الجديد..

لم يعدْ صدّهُ وتمنُّعه يُجدي نفعاً.. انهارَت الجبهةُ وحانَ وقتُ الاستسلام..

عانَقَ أباه الذي جذبَه إليهِ بقوَّةٍ بعينَينِ دامِعَتين..

وكانت المرَّةَ الأولى في حياته.. التي يتجرَّؤ فيها ويبادِرُ هوَ بمعانقةِ أحدٍ..

وكأنَّما تشوُّهات وجهِهِ قد اختفَت ولم تَحُلْ دونَ تماسِّ وجنتَيه بوجنَتَي أبيه..

لاحقاً وقبلَ أن يشتَدَّ الظلام.. صعدَ الجميعُ إلى السيارةِ وشدُّوا الرِحالَ إلى القصر.. السيِّدُ في مكانِه في المقعد الأماميِّ.. والثلاثة في المقعدِ الخلفيِّ..

"لم أكنْ أتخيَّل دخولَ القصر في اللكزس السوداء يا سليم.. أنا لا أصدِّقُ أنَّني أجلسُ الآن بصبحةِ السيِّد في نفسِ السيارة.. لاااا.. وأجلسُ في الخلف كضيوفِ الشَرفِ"... قال مروان بعَفويَّةٍ أضحكَتْ أبا عزيز..

وَكَزَهُ سليم في خاصرتِه بقوَّةٍ مُحاولاً لجمَ تمادِيه في المُزاح بحضورِ السيِّد..

"آآآه.. ما بكَ سليم؟ آلمتَني.. وهل أنا مُخطِئٌ؟

كنَّا نخشى أن يستقبلنا أهلُ القصر بالتوبيخ.. وانظر الآن إلى حالِنا.. سندخلُ بحماية السيِّد وفي مَوكِبِهِ.. ليكون الجميعُ في استقبالنا..

أتوقُ لرؤية جهاد وأمجد عندما يُبصراني مُترجِّلاً من اللكزس بعد قليل"...

"ألن تكفَّ عن الثرثرة.. السيِّد مُتعبٌ.. لا تُصَدِّع رأسه"...

"دعه يا سليم دعه.. فثرثرته هذه حلوةٌ على قلبي.. سيكون لكما حُظوة أكبر من ركوب اللكزس السوداء يا مروان.. هذا وعد.. وسترى إن شاء الله".. قال السيِّدُ في إشارةٍ إلى حجم الامتنانِ الذي سيوازيه ولا بدّ إكرامُه للفَتَيان..

وصلت السيارةُ أخيراً إلى بوَّابةِ القصر.. وكانَ الجميع مُستنفراً ومُترَقِّباً في الداخل ينتظرُ أن يتكشَّفَ شيءٌ عن سببِ الزيارةِ المُفاجِأة وغير المُعتادة من السيِّد للقصر..

ترجَّل السيِّد وقد بَدَتَ هيئتُهُ مُنهَكةً وغير مُرتبة هذه المرَّة.. ليتبعه الثلاثةُ..

سليم.. مروان.. وعزيز الذي مَشى خَلفهما باستحياءٍ.. وسطَ ذهول طاقم الخدمة نساءً ورجالاً.. وتطايُرِ علاماتِ الاستفهام من رؤوسِهم.. وفجأةً وبشكلٍ عفويٍّ لكنَّه مُتوقَّعٌ وبعد أن وقعَ بصرُ أمِّ سليم على عزيز في هيئَته المُريبة تلك.. شَهقت لا إراديَّاً ولم تتمالك نفسَها.. وتَمتَمَتْ بصوتٍ مُنخفضٍ:

"مَن هذا؟ وَيْكَأنه مَسْخُ المَغَارَةِ الذي يتحدَّثونَ عنهُ!"....

كانَ صوتُها مُنخَفضاً لكنَّه وصلَ إلى مَسامِعِ السيِّد فتوجَّهَ للجميعِ مُخاطباً وقاطعاً الطريق على تعليقاتهم التي قد تتكرَّرُ بعفويَّةٍ فتُزعج عزيز دونَ قصدٍ.. وقالَ بنبرَةٍ حازِمةٍ مُختَصِراً الشَرْحَ.. ومُتلافِياً الهَرَجَ والمَرَجَ في هذه القضيَّة:

"نعَم..... هوَ مَسْخُ المَغَارَةِ..... وَسيِّدُ هذا القصرِ"